التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة غافر

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر سابقًا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة غافر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر
التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثلاثون – سورة غافر / القسم العلمي
بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ
٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١– القرآن – سورة غافر – تفسير أ– العنوان
ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/١٠٣٣٨

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٠٣٣٨
ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ – ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدرر السنية
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة غافر)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

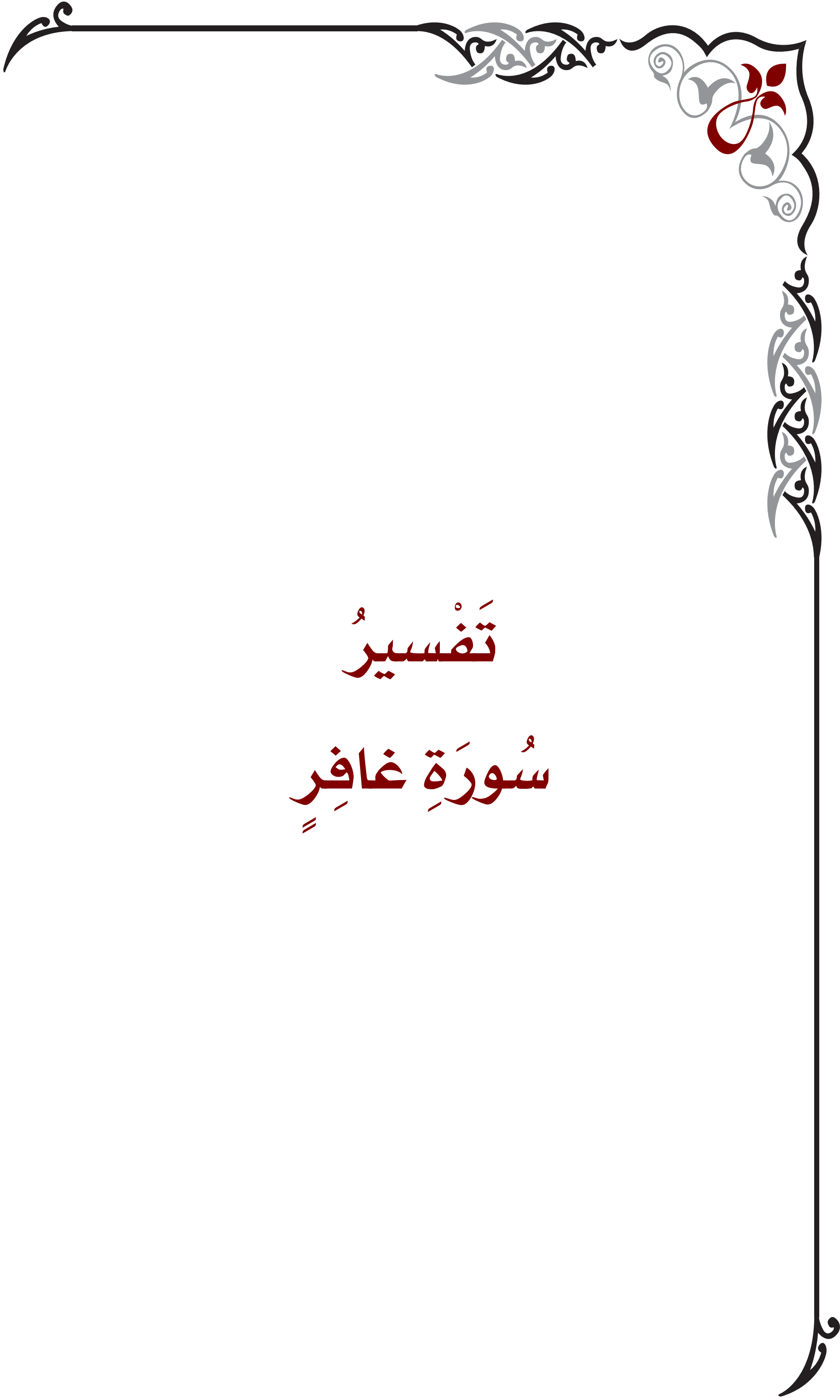
الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

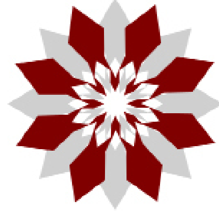
المجلد الثلاثون

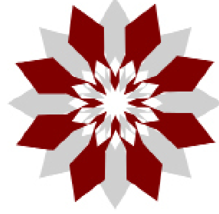
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

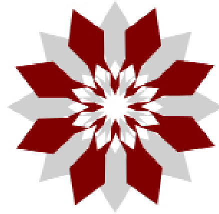
بسم الله الرحمن الرحيم



تَفْسِيرُ
سُورَةِ غافِرٍ







سورةُ غافِرٍ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: غافِرٍ[١]، وسُورةِ المُؤمِنِ[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سورةُ غافِرٍ هي أوَّلُ السُّوَرِ السَّبْعِ الَّتي تَبدَأُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، ويُطلَقُ على هذه السُّورِ (الحواميم)[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ غافِرٍ مَكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لذِكْرِه في أوَّلِها؛ قال ابنُ عاشور: (تُسمَّى سورةَ غافرٍ؛ لذِكرِ وَصْفِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غافر: ٣] في أوَّلِها، وبهذا الاسمِ اشتَهَرتْ في مَصاحفِ المغربِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥).

(٢) سُمِّيَت بهذا الاسمِ؛ لاشتِمالِها على حديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩).

قال ابنُ عاشور: (وبذلك اشتَهَرت في مصاحفِ المَشرقِ، وبذلك تَرجَمها البخاريُّ في «صحيحِه»، والتِّرمذيُّ في «الجامعِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٢٥٥).

والحواميم هي: (غافر)، و(فصلت)، و(الشورى)، و(الزخرف)، و(الدخان)، و(الجاثية)، و(الأحقاف)، ويقالُ لها أيضًا: (ذوات حم)، و(آل حم). يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٠٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٢٢٤).

(٤) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ منها نزلَتا بالمدينةِ، وهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾ [غافر: ٥٦]، والَّتي بعْدَها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤١).

(٥) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٣٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إبطالُ جَدَلِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ(١).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَقِيَه مِن المُشرِكينَ.

٣- بيانُ وظيفةِ الملائِكةِ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ، وأنَّ منها الاستِغفارَ للمُؤمِنينَ، والدُّعاءَ لهم.

٤- دَعوةُ العِبادِ إلى إخلاصِ الطَّاعةِ له، وتَذكيرُهم بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

قال الألوسي نقلًا عن القَزْويني في ((الكشف)): (... ولو تُؤمِّلَ في هذه السُّورةِ الكريمةِ حقَّ التَّأمُّلِ، وُجِد جُلُّ الكلامِ فيها مبنيًّا على ردِّ المُجادِلينَ في آياتِ الله المُشتمِلةِ على التَّوحيدِ والبعثِ، وتبيينِ وجْهِ الرَّدِّ في ذلك بفنونٍ مختلِفةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (إذ كان مِن أوَّلِها قَولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وتكَرَّر ذلك خَمْسَ مرَّاتٍ فيها؛ فنَبَّه على إبطالِ جِدالِهم في مُناسَباتِ الإبطالِ كُلِّها؛ إذ ابتُدِئَ بإبطالِه على الإجمالِ عَقِبَ الآياتِ الثَّلاثِ مِن أوَّلِها بقولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ بإبطالِه بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥]، ثمَّ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [غافر: ٥٦]، ثمَّ بقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، وذلك كُلُّه إيماءٌ إلى أنَّ الباعِثَ لهم على المجادَلةِ في آياتِ اللهِ هو ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ؛ فلذلك أعقَبَ كُلَّ طريقةٍ مِن طرائقِ إبطالِ شِرْكِهم بالإنحاءِ على جِدالِهم في آياتِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

المُلْكَ في هذا اليومِ لله وَحْدَه.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، وما وَعَظ به الرَّجُلُ المؤمِنُ مِن آلِ فِرعَونَ قَومَه.

٦- حِكايةُ جانبٍ مِن المُحاوَراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ الضُّعَفاءِ والمتكَبِّرينَ في النَّارِ، وما يَقولونَه لِخَزَنةِ جَهنَّمَ.

٧- التَّنبيهُ على دَلائلِ تفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إجمالًا، وإبطالُ عبادةِ ما يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ.

٨- ذِكرُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ؛ لكي يَشكُروه عليها.

٩- الحَديثُ عن الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، وتوبيخُهم وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ، وأمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذاهم، مع تذكيرِه بأحوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مع أقوامِهم.

١٠- إنذارُ مُشركي مكَّةَ بأنَّ مَصيرَهم سيَكونُ كمَصيرِ مَن قَبْلَهم ممَّن أشرك، وذلك في حالِ بقائِهم على كُفرِهم، وأنَّهم إذا نزَل بهم عذابُ اللهِ فلن يَنفَعَهم الإيمانُ حينَئذٍ.



الآيات (١-٣)

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلتَّوۡبِ﴾: أي: التَّوبةِ، وهو مصدرُ تابَ يَتوبُ، والتَّوبُ: ترْكُ الذَّنْبِ على أجمَلِ الوُجوهِ، وقيلَ: التَّوبُ جمعُ تَوبةٍ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

﴿ٱلطَّوۡلِ﴾: أي: القُدرةِ والغِنى والفَضلِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضلٍ وامتِدادٍ في شَيءٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

بدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ تَنزيلٌ مِن عندِ اللهِ العزيزِ، العَليمِ، غافِرِ ذُنوبِ عبادِه، وقابِلِ تَوبةِ التَّائبينَ، شَديدِ العِقابِ، ذي الفَضلِ والإنعامِ الواسِعِ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه دونَ ما سِواه، وإليه وَحْدَه مَرجِعُ العبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥١).

قال البِقاعي: (جَعْلُه اسمَ جِنسٍ كأخَواتِه أنسَبُ مِن جَعْلِه بيْنَها جَمعًا كتَمْرٍ وتَمرةٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[(١)].

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المَنيعِ الجَنابِ، الممتنعِ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، ذي القدرِ والسيادةِ؛ العليمِ الَّذي أحاط عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ[(٢)].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

أي: سَاترِ ذُنوبِ عبادِه، ومُتجاوزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[(٣)].

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾.

أي: وقابِلِ تَوبةِ التَّائبينَ مِن الشِّركِ وجَميعِ المعاصي[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عبد السلام)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[١]))[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن تابَ قبلَ أنْ تطلُعَ الشَّمسُ مِن مغربِها، تابَ الله عليه))[٣].

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: شديدِ العِقابِ لِمَن يَستحِقُّ مِن عِبادِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو

---

(١) أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يَتغرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ). وقال ابن القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتملٌ أن يُقال فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣).
قال ابن جرير: (فلا تتَّكِلوا على سَعةِ رَحمتِه، ولكِنْ كونوا منه على حَذَرٍ، باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائِضِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

يَعلَمُ المؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ ما قَنَط مِن جَنَّتِه أحَدٌ))[١].

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾.

أي: صاحِبِ الغنَى الواسِعِ، والفَضلِ والإنعامِ على خَلْقِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ وَحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ العِبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمصيرِ إلى الله تعالى: الرُّجوعُ إليه يومَ القيامةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّة:

١- في قَولِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الحَثُّ على كُلِّ ما تَكونُ به المَغفِرةُ. وَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا بأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ مِن أجْلِ أن نعلَمَ أنَّه غافِرٌ فقط، لكِنْ مِن أجْلِ أن نتعَرَّضَ لِمَغفرتِه(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾؛ تأنيسًا لِمَن استجاب بحَمدِه، وأناب بلُطفِه، وجريًا على حُكمِ الرَّحمةِ وتَغليبِها، ثمَّ قال: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ ليأخُذَ المؤمِنُ بلازِمِ عُبوديَّتِه مِن الخَوفِ والرَّجاءِ(٢)، فهذه الآيةُ قد اجتَمع فيها الرَّجاءُ والخَوفُ، وهي كقولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ حيثُ يُقرَنُ هذان الوصْفانِ كثيرًا في مواضعَ متعدِّدةٍ مِن القرآنِ؛ ليبقَى العبدُ بيْنَ الرَّجاءِ والخَوفِ(٣) في السَّيرِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ المَصيرَ إلى اللهِ، وأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ وقابِلُ التَّوبِ وشَديدُ العِقابِ؛ فإنَّه يَرجو مِن وَجهٍ، ويَخافُ مِن وَجهٍ آخَرَ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أنَّ عِقابَ الله تعالى شديدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن التَّعرُّضِ لِعقابِه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلَّى الله عليه

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السَّلَفِ: ابنُ عُمرَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٧٢).

وقيل: المرادُ: إليه المرجِعُ في كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا والآخرة، كالحُكم بيْنَ النَّاسِ، وتدبيرِ الأمورِ؛ وإليه المرجِعُ بعدَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٣).

وسلَّم: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١] [المائدة: ٩٨].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ مُشعِرٌ بتَرجيحِ جانِبِ الرَّحمةِ والفَضلِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أراد أن يَصِفَ نَفْسَه بأنَّه شديدُ العِقابِ ذكَرَ قَبْلَه أمْرَينِ كُلُّ واحدٍ منهما يَقتضي زَوالَ العِقابِ، وهو كَونُه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وذكَرَ بَعْدَه ما يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، وهو قَولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، فكَونُه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لَمَّا كان مَسبوقًا بتَيْنِك الصِّفَتينِ، ومَلحوقًا بهذه الصِّفةِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والكَرَمِ أرجَحُ[٢]، وفي هذا تَصديقُ الحَديثِ الصَّحيحِ وشاهِدٌ له، وهو قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خَلَق اللهُ الخَلْقَ، كَتَب في كتابِه، فهو عندَه فوقَ العرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غَضَبي))[٣]، وفي لَفظٍ: ((سَبَقَتْ غضبي))[٤]، وقد سبَقَت صِفةُ الرَّحمةِ هنا وغَلَبَت[٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَجْهُ المُناسَبةِ بذِكرِ نُزولِ القُرآنِ مِن اللهِ المَوصوفِ بهذه الأوصافِ: أنَّ هذه الأوصافَ مُستلزِمةٌ لجَميعِ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المعاني؛ فإنَّ القُرآنَ إمَّا إخبارٌ عن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه وأفعالِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللَّفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

وهذه أسماءٌ وأوصافٌ وأفعالٌ. وإمَّا إخبارٌ عن الغُيوبِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ، فهي مِن تعليمِ العليمِ لعِبادِه. وإمَّا إخبارٌ عن نِعَمِه العَظيمةِ وآلائِه الجَسيمةِ، وما يُوصِلُ إلى ذلك مِن الأوامِرِ، فذلك يدُلُّ عليه قولُه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾. وإما إخبارٌ عن نِقَمِه الشَّديدةِ، وعمَّا يُوجِبُها ويَقتَضيها مِن المعاصي، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾. وإمَّا دَعوةٌ للمُذنِبينَ إلى التَّوبةِ والإنابةِ والاستِغفارِ، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾. وإمَّا إخبارٌ بأنَّه وَحْدَه المألوهُ المعبودُ، معَ إقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على ذلك، والحَثِّ عليه، والنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِوى اللهِ، وإقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على فَسادِها والتَّرهيبِ منها، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وإمَّا إخبارٌ عن حُكمِه الجزائيِّ العَدلِ، وثوابِ المُحسِنينَ، وعِقابِ العاصينَ، فهذا يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. فهذا جميعُ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المطالِبِ العالياتِ[1]، وأيضًا فبَعْدَ أن بَيَّنَ أنَّ الكِتابَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ بيَّنَ أنَّه تعالى مَوصوفٌ بِصفاتِ الجَلالِ، وسِماتِ العَظَمةِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا على التَّشميرِ عن ساقِ الجِدِّ عندَ الاستِماعِ، وزَجرِه عن التَّهاوُنِ والتَّواني فيه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حُروفٌ، تكَلَّمَ اللهُ به بحُروفٍ؛ ففيه الرَّدُّ على الأشاعِرةِ ومَن سلَكَ سبيلَهم، الَّذين يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بالنَّفْسِ، وأنَّ اللهَ لا يَتكَلَّمُ بحَرفٍ وصَوتٍ، لكِنْ يَخلُقُ حُروفًا وأصواتًا تُسمَعُ تَعبيرًا عمَّا في نفْسِه! وحقيقةُ هذا القَولِ نَفيُ الكلامِ؛ لأنَّ ما في النَّفْسِ مِن المعلوماتِ المُرتَّبةِ ليست كلامًا، ولكِنَّها مَعلوماتٌ؛ عِلمٌ، وليست كلامًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠).

٣- قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ التَّنزيلُ يَستلزِمُ عُلُوَّ المُنزَّلِ مِن عِندِه، ولا تَعقِلُ العَرَبُ مِن لُغتِها -بل ولا غَيرُها مِن الأُمَمِ السَّليمةِ الفِطرةِ- إلَّا ذلك، وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ تنزيلَ الكِتابِ منه؛ فهذا يدُلُّ على شَيئَينِ:

أحَدُهما: عُلُوُّه تعالى على خَلْقِه.

والثَّاني: أنَّه هو المتكَلِّمُ بالكتابِ المُنزَّلِ مِن عِندِه لا غَيرُه؛ فإنَّه أخبَرَ أنَّه منه، وهذا يَقتضي أن يكونَ منه قولًا، كما أنَّه منه تنزيلًا؛ فإنَّ غيرَه لو كان هو المتكَلِّمَ به لَكان الكِتابُ مِن ذلك الغَيرِ؛ فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ إلى المتكَلِّمِ به، ومِثلُ هذا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ومِثلُه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومِثلُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ فاستَمسِكْ بحَرفِ «مِنْ» في هذه المواضِعِ؛ فإنَّه يَقطَعُ شَغَبَ المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، وتأمَّلْ كيف قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ﴾ ولم يقُلْ: «تنزيلُه»! فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ عُلُوِّه وكلامِه، وثُبوتَ الرِّسالةِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ(٢)؛ وذلك لأنَّ ما كان مِنَ اللهِ إنْ كان عَينًا قائمةً أو صِفةً قائمةً بغَيرِها -كما في السَّمَواتِ والأرضِ، والنِّعَمِ، والرُّوحِ الَّذي أرسَلَه إلى مَريمَ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]- كان مخلوقًا، وإن كان صِفةً لا تقومُ بنَفْسِها ولا يتَّصِفُ بها المخلوقُ، لم يكُنْ مخلوقًا، كالقُرآنِ؛ فإنَّ ذلك قائمٌ باللهِ، وما يَقومُ باللهِ لا يكونُ مَخلوقًا(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وصْفُ القرآنِ الكريمِ بالكتابِ، وهو بمعنى

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٧١).

مَكتوبٍ؛ وذلك لأنَّه يُكتَبُ؛ فهو مَكتوبٌ بالمصاحفِ الَّتي بأيدينا، والصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٢، ١٣]، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(١) [البروج: ٢١، ٢٢].

٦- قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وتَضمَّنَ هذان الاسْمانِ صِفتَيِ القُدرةِ والعِلمِ، وخَلْقَ أعمالِ العِبادِ، وحُدوثَ كُلِّ ما سِوى اللهِ؛ لأنَّ القَدَرَ هو قُدرةُ اللهِ، كما قال أحمدُ بنُ حَنبلٍ؛ فتضَمَّنَت إثباتَ القَدَرِ، ولأنَّ عِزَّتَه تَمنَعُ أن يكونَ في مُلكِه ما لا يَشاؤُه، أو أن يَشاءَ ما لا يكونُ؛ فكانت عِزَّتُه تُبطِلُ ذلك، وكذلك كَمالُ قُدرتِه يُوجِبُ أن يكونَ خالِقَ كُلِّ شَيءٍ، وذلك يَنفي أن يكونَ في العالَمِ شَيءٌ قَديمٌ لا يَتعَلَّقُ به خَلْقُه؛ لأنَّ كَمالَ قُدرتِه وعِزَّتِه يُبطِلُ ذلك(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جمَعَ جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ بيْن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعدِ والوَعيدِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقَلاءِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ؛ هما: جَلبُ النَّفعِ، ودَفعُ الضُّرِّ(٣).

٨- قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فكما أنَّه لا يُؤْيِسُ أهلَ الإجرامِ والآثامِ مِن عَفْوِه، وقَبولِ تَوبةِ مَن تاب منهم مِن جُرْمِه، كذلك لا يُؤَمِّنُهم مِن عِقابِه وانتِقامِه منهم بما استحَلُّوا مِن مَحارِمِه، ورَكِبوا مِن مَعاصيه(٤).

٩- قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذَّنْبُ مُخالَفةُ شَرعِه وأمْرِه؛ فتَضَمَّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

هذان الاسْمانِ إثباتَ شَرعِه وإحسانِه وفَضلِه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ لَمَّا ذكَرَ تعالى شِدَّةَ عِقابِه أردَفَه بما يُطمِعُ في رحمتِه، وهو قَولُه: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾؛ فجاء ذلك وعيدًا اكتَنَفَه وَعْدانِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ هذا جزاؤُه للمُذنِبينَ، و﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جزاؤُه للمُحسِنينَ؛ فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إثباتُ التَّوحيدِ والمَعادِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المقصودُ بتَوجيهِ هذا الخبَرِ هُمُ المُشرِكونَ المُنكِرونَ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ من عندِ اللهِ؛ فتَجريدُ الخبَرِ عن المؤكِّدِ إخراجٌ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ بجَعلِ المُنْكِرِ كغَيرِ المُنكِرِ؛ لأنَّه يَحُفُّ به مِنَ الأدلَّةِ ما إنْ تأمَّلَه ارتَدَعَ عن إنكارِه، فما كان مِن حَقِّه أنْ يُنكِرَ ذلك[٥]!

- ووصْفُ اللهِ تعالَى بوَصفَيِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ هنا تَعريضٌ بأنَّ مُنكِري تَنزيلِ الكِتابِ منه مَغلوبونَ مَقهورونَ، وبأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه نُفوسُهم؛ فهو مُحاسِبُهم على ذلك. ورمزٌ إلى أنَّ القرآنَ كلامُ العزيزِ العليمِ؛ فلا يَقدِرُ غَيرُ اللهِ على أنْ يأتيَ بمِثلِه. وفي ذِكرِهما رمزٌ إلى أنَّ اللهَ أعلَمُ حيث يَجعَلُ رسالتَه، وأنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٨، ٧٩).

لا يُجاري أهواءَ النَّاسِ فيمَن يُرَشِّحونَه لذلك مِن كُبَرائِهم؛ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهُما صِفتانِ دالَّتانِ على المُبالَغةِ في القُدرةِ والغَلَبةِ والعِلمِ(١). وأيضًا فهذه السُّورةُ تَتحدَّثُ عن المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، وما جرَى عليهم مِنَ الهَلاكِ والانتِقامِ؛ فالَّذي يُناسِبُ ذلك: العِزَّةُ الَّتي فيها الغَلَبةُ والأَخْذُ؛ فلهذا جاء هنا «العَزيزُ»، وجاء «العَليمُ»؛ لِيُفيدَ أنَّه لعِزَّته أخَذَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ولعِلْمِه أنزَلَ الكُتُبَ، وعَلِمَ كيفَ يأخُذُ هؤلاء المكَذِّبينَ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ...﴾ أُجريَ على اسمِ اللهِ تعالى مِن صِفاته ما فيه تَعريضٌ بدَعْوتِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هُم فيه، فكانتْ فاتحةُ السُّورةِ مِثلَ دِيباجةِ الخُطبةِ؛ مُشيرةً إلى الغرَضِ مِن تَنزيلِ هذه السُّورةِ. وفي إتْباعِ الوصفَينِ العَظيمَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ بأوصافِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ تَرشيحٌ(٣) لذلك التَّعريضِ، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتُم أذنَبْتُم بالكُفرِ بالقرآنِ، فإنَّ تَدارُكَ ذَنْبِكم في مُكنَتِكم؛ لأنَّ اللهَ مُقَرَّرٌ اتِّصافُه بقَبولِ التَّوبةِ، وبغُفرانِ الذَّنْبِ، فكما غفَرَ لِمَن تابوا مِنَ الأُمَمِ فقَبِل إيمانَهم، يَغفِرُ لِمَن يَتوبُ منكم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٣) التَّرشيحُ: هو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ بكلمةٍ لا تصلُحُ لضربٍ مِن المحاسنِ، حتَّى يُؤتَى بلفظةٍ ترشِّحُها وتؤهِّلُها لذلك. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الأصبع (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن =

- والذَّنْبُ في قولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ هنا مفردٌ محلًّى بـ «أل»، فيكونُ عامًّا، أي: أنَّ الله جلَّ وعلا يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا(١).

- وتَقديمُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على (قَابِلِ التَّوْبِ) مع أنَّه مُرتَّبٌ عليه في الحُصولِ؛ للاهتمامِ بتَعجيلِ الإعلامِ به لِمَنِ استعَدَّ لتَدارُكِ أمْرِه؛ فوصْفُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرغيبِ، وصِفَتا ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرهيبِ(٢).

- قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اختلفَتْ هذه الصِّفاتُ تعريفًا وتنكيرًا، والمَوصوفُ مَعرفةٌ يَقتَضي أنْ يَكونَ مِثلُه مَعارِفَ؛ وذلك أنَّ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ مَعرِفتانِ؛ لأنَّه لم يُرَدْ بهما حُدوثُ الفِعلَينِ، وأنَّه يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَقبَلُ التَّوبَ الآنَ أو غدًا حتَّى يَكونَا في تَقديرِ الانفِصالِ، فتَكونَ إضافَتُهما غيْرَ حقيقيَّةٍ، وإنَّما أُريدَ ثُبوتُ ذلك ودوامُه. وتَنكيرُ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأنَّه في تقديرِ: شديدٌ عِقابُه، فيَجوزُ أنْ يُقالَ: قد تُعُمِّدَ تَنكيرُه وإبهامُه؛ للدَّلالةِ على فَرْطِ الشِّدَّةِ، وعلى ما

= عاشور)) (٢٤/ ٧٧ - ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩، ٨٠).

قال ابن عاشور: (والطَّوْلُ يُطلَقُ على سَعةِ الفضلِ وسَعةِ المالِ، ويُطلَقُ على مُطلَقِ القُدرةِ، وظاهِرُه الإطلاقُ، ووُقوعُه مع شديدِ العِقابِ ومُزاوجَتُها بوصْفَيْ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ ليُشيرَ إلى التَّخويفِ بعذابِ الآخرةِ مِن وصْفِ شديدِ العقابِ، وبعذابِ الدُّنيا مِن وصفِ ذي الطَّوْلِ، كقولِه: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠، ٨١) بتصرفٍ يسيرٍ.

وتقدَّم في الفوائدِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، ويُطمِعُ فيها.

لا شَيءَ أدهَى منه وأمَرُّ؛ لِزيادةِ الإنذارِ[(١)].

- قولهُ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ جُرِّد المصدَرُ؛ لِيُفهِمَ أنَّ أدنَى ما يُطلَقُ عليه الاسمُ كافٍ[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾ أُتيَ بالواوِ في الوَصفَينِ الأوَّلَينِ، وحُذِفَت في الوصفَينِ الآخَرينِ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ وقَبولَ التَّوبِ قد يُظَنُّ أنَّهما يَجريانِ مجرى الوَصفِ الواحِدِ؛ لِتَلازُمِهما؛ فمَن غفَر الذَّنْبَ قَبِلَ التَّوبَ، فكان في عَطفِ أحَدِهما على الآخَرِ ما يَدُلُّ على أنَّهما صِفتانِ وفِعلانِ مُتغايِرانِ، ومَفهومانِ مختَلِفانِ لكُلٍّ منهما حُكمُه، أحَدُهما يَتعلَّقُ بالإساءةِ والإعراضِ، وهو المَغفِرةُ، والثَّاني يَتعلَّقُ بالإحسانِ والإقبالِ على اللهِ تعالى والرُّجوعِ إليه، وهو التَّوبةُ؛ فتُقبَلُ هذه الحَسَنةُ، وتُغفَرُ تلك السَّيِّئةُ، وحَسَّنَ العطفَ هاهنا هذا التَّغايُرُ الظَّاهِرُ، وكلَّما كان التَّغايُرُ أبْيَنَ كان العَطفُ أحسَنَ؛ ولهذا جاء العَطفُ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وتُرِكَ في قَولِه: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقَولِه: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾[(٣)] [الحشر: ٢٤].

- وقيل: عُطِفَتْ صِفةُ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ بالواوِ على صِفةِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ولم تُفصَلْ؛ إشارةً إلى نُكتةٍ جليلةٍ، وهي إفادةُ أنْ يَجمَعَ للمُذنِبِ التَّائبِ بيْنَ رحمتَينِ: بيْن أنْ يَقبَلَ تَوبتَه فيَجعَلَها له طاعةً، وبيْن أنْ يَمحوَ عنه بها الذُّنوبَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

الَّتي تاب منها، ونَدِمَ على فِعلِها، فيُصبحَ كأنَّه لم يَفعَلْها، كأنَّه قال: جامِعُ المَغفرةِ والقَبولِ، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ(١).

وأمَّا قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فتُركَ العَطفُ بيْنَهما؛ لِنُكتةٍ بَديعةٍ، وهي: الدَّلالةُ على اجتِماعِ هذينِ الأمْرَينِ في ذاتِه سُبحانَه، وأنَّه حالَ كَونِه شَديدَ العِقابِ فهو ذو الطَّولِ، وطَولُه لا يُنافي شِدَّةَ عِقابِه، بل هما مُجتَمِعانِ له، بخِلافِ قَولِه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ﴾ [الحديد: ٣]؛ فإنَّ الأوَّلِيَّةَ لا تُجامِعُ الآخِرِيَّةَ؛ فأوَّلِيَّتُه أزلِيَّتُه، وآخِرِيَّتُه أبَدِيَّتُه(٢).

- والوَصفُ بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ إفضاءٌ بصَريحِ الوَعيدِ على التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ لأنَّ مَجيئَه بعدَ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٢] يُفيدُ أنَّه المَقصودُ مِن هذا الكلامِ بواسِطةِ دَلالةِ مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ(٣).

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لَمَّا ذكَرَ جُملةً مِن صِفاتِه العُلا الذَّاتيَّةِ والفِعليَّةِ، ذكَرَ أنَّه المُنفرِدُ بالأُلوهيَّةِ والوَحدانيَّةِ، المَرجوعُ إليه في الحشرِ بأنَّ المصيرَ والمَرجِعَ إليه؛ تَسجيلًا لبُطلانِ الشِّركِ، وإفسادًا لإحالَتِهمُ البَعثَ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إنذارٌ بالبَعثِ والجَزاءِ؛ لأنَّه لَمَّا أُجريَتْ صِفاتُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، أُثيرَ في الكلامِ الإطماعُ والتَّخويفُ؛ فكان حَقيقًا بأنْ يَشعروا بأنَّ المصيرَ إمَّا إلى ثَوابِه وإمَّا إلى عِقابِه، فلْيَزِنوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

أنفُسَهم؛ لِيَضعوها حيثُ يَلوحُ مِن حالِهم(١).

- وقولُه: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إليه فحَسْبُ، لا إلى غَيرِه، لا استِقلالًا ولا اشتِراكًا، فيَجزي كُلًّا مِنَ المُطيعِ والعاصي؛ فتقديمُ المَجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادةِ الاختِصاصِ(٢). وقيل: إنَّ تقديمَ المَجرورِ في ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ بحَرفَينِ: حَرفِ لِينٍ، وحَرفٍ صَحيحٍ؛ مِثلَ: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، و﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، و﴿عِقَابِ﴾(٣) [غافر: ٥].

- وقد اشتملَتْ فاتحةُ سُورةِ (غافرٍ) على ما يُشيرُ إلى جَوامِعِ أغراضِها، ويُناسِبُ الخَوضَ في تَكذيبِ المُشركينَ بالقرآنِ، ويُشيرُ إلى أنَّهم قد اعتَزُّوا بقوَّتِهم ومَكانَتِهم، وأنَّ ذلك زائلٌ عنهم كما زال عن أُمَمٍ أشَدَّ منهم؛ فاستَوفَتْ هذه الفاتحةُ كَمالَ ما يُطلَبُ في فَواتِحِ الأغراضِ ممَّا يُسمَّى بَراعةَ المَطْلَعِ أو بَراعةَ الاستِهلالِ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٤-٦)

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يَغْرُرْكَ ﴾: أي: يَخدَعْك، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر) هنا: نُقصانٌ[١].

﴿ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾: أي: تَصَرُّفُهم في البِلادِ، وتَردُّدُهم في أسفارِهم سالِمينَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

﴿ وَٱلْأَحْزَابُ ﴾: أي: الأُمَمُ الَّذين تحزَّبوا وتجمَّعوا على رُسلِهم بالتَّكذيبِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[٣].

﴿ وَهَمَّتْ ﴾: الهمُّ: جَرَيانُ الشَّيءِ في القلبِ، وأصلُ (همم): يدُلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشْبَهَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣).

﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾: أي: لِيُبطِلوا ويُذهِبوا، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ[١].

﴿حَقَّتۡ﴾: أي: وجَبَتْ ولَزِمَتْ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مصدرٌ مُؤَوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ بنَزعِ الخافِضِ، وهو لامُ التَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، ويجوزُ أنْ يكونَ في محلِّ رَفعٍ بدلًا مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا أو بدَلَ اشتمالٍ[٣].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكافِرونَ، فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم باللهِ.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسَلِّيًا لنبيِّه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذَّبَت قَبْلَهم قومُ نُوحٍ ومَنْ بَعْدَهم مِمَّن تحزَّبوا واتَّفَقوا على رُسُلِهم، وهمَّت كُلُّ أمَّةٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ بقَتلِ رَسولِهم، وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٥٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

فأخَذْتُهم بعذابي، فكيف كان عِقابي؟! وكما وجَبَ العذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العذابُ على جميع الكُفَّارِ؛ أنَّهم في الآخِرةِ أصحابُ النَّارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ أنزَلَه؛ لِيُهتَدَى به في الدِّينِ- ذكَرَ أحوالَ مَن يُجادِلُ لغَرَضِ إبطالِه، وإخفاءِ أمْرِه، فقال تعالى[1]:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ إلَّا الكافِرونَ الَّذين يَرُدُّونَها، ويَطعُنونَ فيها، يَقصِدونَ إدحاضَ الحَقِّ، وإطفاءَ نُورِ اللهِ تعالى[2].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

أي: فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتَردُّدُهم فيها بالأسفارِ وأنواعِ المكاسِبِ وغَيرِها، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم بالله؛ فتَظُنَّ بهم ظَنًّا حَسَنًا، وأنَّهم على الحَقِّ، أو أنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم؛ فاللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

عالمٌ بحالِهم، فيُمهلُهم ويَستدرِجُهم بالنِّعَمِ حتَّى يُهلِكَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ * مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان جِدالُ الكفَّارِ ناشئًا عن تَكذيبِ ما جاء به الرَّسولُ عليه السَّلامُ مِن آياتِ اللهِ؛ ذكَرَ مَن كَذَّبَ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، وما صار إليه حالُهم مِن حُلولِ نَقِماتِ اللهِ بهم؛ ليَرتَدِعَ بهم كفَّارُ مَن بُعِثَ الرَّسولُ عليه السَّلامُ إليهم(٢).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: كذَّبت الأُمَمُ الماضيةُ رُسُلَها مِن قَبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وهم قَومُ نُوحٍ، ومَنْ بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ المكَذِّبةِ ممَّن تحَزَّبوا واتَّفَقوا على إبطالِ الحَقِّ، ونَصرِ الباطِلِ؛ كعادٍ، وثمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وأصحابِ مَدْيَنَ، وقومِ فِرعَونَ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤، ٨٥).

قال ابن عثيمين: (هذا كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [غافر: ٤]، يعني: فلينظر عاقبةَ مَن كان قبْلَهم حينَ كذَّبوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٤).

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وهَمَّ كُلُّ قَومٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ مِن تلك الأُمَمِ بقَتلِ رَسولِهم الَّذي كَذَّبوه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٥).

وممَّن قال بأنَّ الأخْذَ هنا يعني: القتْلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٥).

وقيل: المرادُ: الحَبسُ والتَّعذيبُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧).

وقال الزمخشري: (﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ لِيَتمكَّنوا منه، ومِن الإيقاع به، وإصابتِه بما أرادوا مِن تعذيبٍ أو قَتلٍ؛ ويُقالُ للأسيرِ: أخِيذٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١).

واختار الرَّازيُّ العُمومَ، فقال: (وقولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وعَزَمتْ كلُّ أُمَّةٍ مِن هؤلاءِ الأحزابِ أنْ يأخُذوا رسولَهم لِيَقْتُلوه ويُعَذِّبوه ويَحْبِسوه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

وممَّن اختار العمومَ أيضًا: أبو حيَّان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

أي: وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه[١].

﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أي: فأخَذْتُهم بعَذابٍ أهلَكَهم، فكيف كان عِقابي الَّذي أصابَهم[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾.

أي: وكما وَجَب العَذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العَذابُ على جَميعِ الكُفَّارِ؛ أنَّهم الملازِمونَ في الآخِرةِ عَذابَ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

قال ابن كثير: (أي: فكيف بلَغَك عذابي لهم، ونَكالي بهم؟! قد كان شديدًا مُوجِعًا مُؤلِمًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١).

قال الشنقيطي: (المراد بالكلمة هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتاب الله تعالى؛ كقوله تعالى في آخرِ سورةِ «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقوله تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى في أخريات «ص»: =

= ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]. ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف.

وممَّن اختار أنَّ كلمةَ العذابِ هي قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١).

قال ابنُ القَيِّم: (الكَلِمةُ التي حَقَّت كَلِمتانِ: كلمةُ الإضلالِ، وكَلِمةُ العذابِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وكَلِمتُه سُبحانَه إنَّما حَقَّت عليهم بالعذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم، فحَقَّت عليهم كَلِمةُ حُجَّتِه، وكَلِمةُ عَدلِه بعُقوبتِه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٢٣٤).

وقال السعدي: (﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كما حقَّتْ على أولئك، حقَّتْ عليهم كلمةُ الضَّلالِ الَّتي نشأت عنها كلمةُ العذابِ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

وقال الزمخشري: (كما وجَب إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَب إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للتَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، أو لأجْلِ أنَّهم مُستحِقُّونَ للنَّارِ: الزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يجوزُ أن يكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلًا مطابِقًا، فيكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أن يَكونوا أصحابَ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ العربيَّةِ في موضعِ قَولِه: ﴿أَنَّهُمۡ﴾؛ فقال بعضُ نَحويِّي البَصرةِ: معنى ذلك: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: لأنَّهم، أو: بأنَّهم،... وكان غيرُه يقولُ: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ بدَلٌ مِن الكلمةِ، كأنَّه: حَقَّتِ الكلمةُ حقًّا أنَّهم أصحابُ النَّارِ. والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ترجمةٌ عن الكلمةِ، بمعنى: وكذلك حقَّ عليهم عذابُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه أنَّ الجِدالَ في تَقريرِ الباطِلِ مَذمومٌ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فيه أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَغتَرَّ بحالةِ الإنسانِ الدُّنيويَّةِ، ويَظُنَّ أنَّ إعطاءَ اللهِ إيَّاه في الدُّنيا دليلٌ على محبَّتِه له، وأنَّه على الحَقِّ! بل الواجِبُ على العَبدِ أن يَعتبرَ النَّاسَ بالحَقِّ، ويَنظُرَ إلى الحقائِقِ الشَّرعيَّةِ، ويَزِنَ بها النَّاسَ، ولا يَزِنَ الحَقَّ بالنَّاسِ[2]، فإنَّ بَعضَ المُسلِمينَ ضُعفاءِ الإيمانِ انبَهَروا بما عليه الكُفَّارُ، وظَنُّوا أنَّ ما هم عليه من تحَلُّلِ الأخلاقِ، وفَسادِ العقائِدِ، والكُفرِ: هو الَّذي أوجَبَ أن يَكونوا على هذا المُستوى من التَّقَدُّمِ المادِّيِّ، فانبَهَروا بذلك، وانفَلَتوا مِنَ الدِّينِ[3]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مُعارَضةُ أقوالِ الرُّسُلِ بأقوالِ غَيرِهم: مِن فِعلِ الكُفَّارِ، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكُلُّ مَن عارَضَ القُرآنَ وجادَلَ في ذلك بعَقلِه ورَأيِه، فهو داخِلٌ في ذلك، وإنْ لم يَزعُمْ تَقديمَ كَلامِه على كَلامِ اللهِ ورَسولِه، بل إذا قال ما يُوجِبُ المِرْيةَ والشَّكَّ في كلامِ اللهِ فقد دخَلَ في ذلك،

= النَّارِ، الَّذي وعَدَ اللهُ أهلَ الكفرِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

فكيفَ بمَن يَزعُمُ أنَّ ما يَقولُه بعَقلِه ورَأيِه مُقَدَّمٌ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ[(١)]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُمْلي للكفَّارِ، ويُمهِلُهم ويُمَكِّنُهم مِن التَّقلُّبِ في البلادِ حيث شاؤُوا[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ جعَل سبحانَه الأحزابَ المكذِّبينَ كلَّهم مِن بَعدِ قَومِ نوحٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو أوَّلُ الرُّسلِ، وهذا أمرٌ معلومٌ متقرِّرٌ في عدَّةِ آياتٍ وفي الأحاديثِ أيضًا، وبه نَعلَمُ أنَّ مَن زعَم أنَّ إدريسَ عليه السَّلامُ كان قبْلَ نوحٍ عليه السَّلامُ فإنَّه مخطئٌ، ولا وجْهَ لقولِه[(٣)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ﴾ بيانُ ما تَنطوي عليه صدورُ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الهَمِّ بقتلِهم، يعني: أنَّ المكذِّبينَ للرُّسلِ لم يَقتصِروا على أنْ يُكذِّبوا فقط، بل هَمُّوا بالقتلِ، والقتلُ والاغتيالُ والسَّجنُ والسَّبُّ والشَّتمُ كلُّه سلاحُ العاجزِ؛ لأنَّ القادرَ على دفْعِ الحُجَّةِ هو الَّذي يَدفَعُ الحُجَّةَ بحُجَّةٍ مِثلِها، أمَّا أن يَستعمِلَ سُلطتَه فهذا يدُلُّ على عجْزِه؛ ولهذا قال فِرعَونُ لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيمَ «آزَرُ»: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾[(٤)] [مريم: ٤٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الفاءَ للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حقٌّ، وهو مقتضَى حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إثباتُ تقديرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ للأشياءِ، أي: إثباتُ أنَّ الأشياءَ قد كُتِبَت مِن قَبْلُ، وهذا لا يُنافي إرسالَ الرُّسُلِ، ولا يُنافي الأمرَ بما أَمَر به، ولا النَّهيَ عمَّا نهى اللهُ عنه؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطى الإنسانَ عَقلًا ورُشدًا وبَصيرةً يَعرِفُ كيف يَتصَرَّفُ، فإذا أُرسِلَت الرُّسُلُ مع الفِطرةِ الأُولى ثمَّ عانَدَ، فقد قامت عليه الحُجَّةُ[٢].

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إثباتُ الكلامِ لله؛ لقولِه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومِن عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّمُ بكلامٍ مَسموعٍ، وبحَرْفٍ[٣].

٨- في قولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ عنايةُ الله عزَّ وجلَّ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ أضاف إليه الرُّبوبيَّةَ، فقال: ﴿رَبِّكَ﴾، وهذه الرُّبوبيَّةُ خاصَّةٌ؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ الله عزَّ وجلَّ نَوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: الشَّامِلةُ لكلِّ شَيءٍ، والخاصَّةُ: المُختصَّةُ بما أُضيفَتْ له[٤].

٩- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خُلودُ الَّذين كَفَروا في النَّارِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الصُّحبةَ تَقتضي المُلازَمةَ، ولا يُمكِنُ أن تكونَ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لِمَن تُوُعِّدوا بدُخولِ النَّارِ ثمَّ يُخرَجونَ منها، إنَّما تكونُ لِمَن هم أهلُ النَّارِ الَّذين هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

أهلُها وأصحابُها[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ مِن قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، المُقتَضي أنَّ كَوْنَ القرآنِ مُنَزَّلًا مِن عِندِ اللهِ أمْرٌ لا رَيبَ فيه، فيَنشأُ في نُفوسِ السَّامِعينَ أنْ يَقولوا: فما بالُ هؤلاء المُجادِلينَ في صِدقِ نِسبةِ القرآنِ إلى اللهِ لم تُقنِعْهم دَلائلُ نُزولِ القرآنِ مِنَ اللهِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ما يُجادِلُ في صِدقِ القرآنِ إلَّا الَّذينَ كَفَروا باللهِ. وإذْ قد كان كُفْرُ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ أمرًا معلومًا، كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم كافِرونَ غيْرَ مَقصودٍ منه إفادةُ اتِّصافِهم بالكُفرِ؛ فتعَيَّنَ أنْ يَكونَ الخبَرُ غيْرَ مُستعمَلٍ في فائدةِ الخبَرِ، لا بمَنطوقِه ولا بمَفهومِه؛ فإنَّ مَفهومَ الحَصرِ -وهو أنَّ الَّذينَ آمَنوا لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ- كذلك أمْرٌ مَعلومٌ مُقرَّرٌ، فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا نَفْسَ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وأنَّ المُرادَ بكُفرِهم كُفْرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ بسببِ إشراكِهم، فالمَعنى: لا عَجَبَ في جِدالِهم بآياتِ اللهِ؛ فإنَّهم أتَوْا بما هو أعظَمُ، وهو الإشراكُ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعَ الكافِرينَ باللهِ مِنَ السَّابِقينَ والحاضِرينَ، أي: ما الجَدَلُ في آياتِ اللهِ إلَّا مِن شأنِ أهْلِ الكُفرِ والإشراكِ، ومُجادَلةُ مُشرِكي مكَّةَ شُعْبةٌ مِن شُعَبِ مُجادَلةِ كلِّ الكافِرينَ؛ فيَكونَ استِدلالًا بالأعَمِّ على الخاصِّ. وعلى كِلا الوَجهَينِ تُرِكَ عَطفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قَبْلَها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٣، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١، ٨٢).

- والمُرادُ بالمُجادَلةِ هنا في قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُجادَلةُ بالباطِلِ، بقَرينةِ السِّياقِ؛ فمعنى ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في صِدقِ آياتِ اللهِ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]؛ فتعَيَّنَ تَقديرُ مُضافٍ دَلَّ عليه المَقامُ[١].

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾؛ للمُبالَغةِ في الفِعلِ مِن جانبٍ واحدٍ؛ لإفادةِ التَّكرُّرِ[٢].

- ولِتَعلُّقِ (في) الظَّرفيَّةِ بالجِدالِ، ولِدُخولِه على نفْسِ الآياتِ دُونَ أحوالِها في قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ مَوقِعٌ عظيمٌ مِنَ البَلاغةِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ تَحوي جميعَ أصنافِ الجِدالِ. وجُعِلَ مَجرورُ الحَرفِ نفْسَ الآياتِ دُونَ تَعيينِ نَحوِ «صِدقِها»، أو «وُقوعِها»، أو «صِنفِها»؛ فكان قَولُه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامِعًا للجدَلِ بأنواعِه، ولمُتعلَّقِ الجدَلِ باختِلافِ أحوالِه، والمرادُ الجِدالُ بالباطِلِ؛ كما دَلَّ عليه تَنظيرُ حالِهم بحالِ مَن قال فيهم: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [غافر: ٥]، فإذا أُريدَ الجِدالُ بالحقِّ يُقَيَّدُ فِعلُ الجِدالِ بما يدُلُّ عليه، والمعنى: ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ أنَّها مِن عِندِ اللهِ؛ فإنَّ القرآنَ تَحدَّاهم أنْ يأتوا بمِثلِه فعَجَزوا، وإنَّما هو تَلفيقٌ وتَستُّرٌ عن عَجزِهم عن ذلك، واعتِصامٌ بالمُكابَرةِ، فمُجادَلتُهم بعدَ ما تَقدَّمَ مِنَ التَّحدِّي دالَّةٌ على تَمكُّنِ الكفرِ منهم، وأنَّهم مُعانِدونَ، وبذلك حصَلَ المقصودُ مِن فائدةِ هذا، وإلَّا فكَوْنُهم كُفَّارًا مَعلومٌ[٣].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (في آياتِه)؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

لتَفظيعِ أمْرِها بالصَّريحِ؛ لأنَّ ذِكرَ اسمِ الجَلالةِ مؤْذِنٌ بتَفظيعِ جِدالِهم وكُفرِهم، وللتَّصريح بزِيادةِ التَّنويهِ بالقرآنِ(١).

- وفُرِّع قَولُه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ على مَضمونِ ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لأنَّ مُقتَضى تلك الجُملةِ أنَّ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ هُم أهلُ الكفرِ، وذلك مِن شأنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ مَن يَراهُم في متعةٍ ونِعمةٍ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: كيف يَترُكُهمُ اللهُ على ذلك؟ ويَظُنَّ أنَّهم أَمِنوا مِن عَذابِ اللهِ؛ ففُرِّع عليه الجَوابُ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، أي: إنَّما هو استِدراجٌ ومِقدارٌ مِن حِلمِ اللهِ ورحمتِه بهم وقتًا ما، أو أنَّ مَعناهُ: نحنُ نعلمُ أنَّهم يُجادِلونَ في آياتِنا إصرارًا على الكُفرِ، فلا يُوهِمْكَ تَقلُّبُهم في البلادِ أنَّا لا نؤاخِذُهم بذلك؛ فإنَّا نأخُذُهم أَخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ(٢).

- والتَّقلُّبُ: اختِلافُ الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن تَناوُلِ مَحبوبٍ ومَرغوبٍ. والبِلادُ: الأرضُ، وأُريدَ بها هنا الدُّنيا؛ كِنايةً عن الحَياةِ(٣).

- والمُخاطَبُ بالنَّهيِ في قَولِه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ غيْرَ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمَّ كلَّ مَن شأنُه أنْ يَغُرَّه تَقلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ، وعلى هذا يَكونُ النَّهيُ جاريًا على حقيقةِ بابِه، أي: موَجَّهًا إلى مَن يُتوقَّعُ منه الغُرورُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ موَجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على أنْ تَكونَ صيغةُ النَّهيِ تَمثيليَّةً؛ بتَمثيلِ حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في استِبطائِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

عِقابَ الكافِرينَ بحالِ مَن غَرَّهُ تَقَلُّبُهم في البِلادِ سالِمينَ[١]. أو يكونَ نهَى اللهُ جلَّ وعلا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ -ليُشرِّعَ لأُمَّتِه- عن أنْ يُغرَّه تقلُّبُ الَّذين كفَروا في بلادِ الله[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ...﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]، باعتبارِ التَّفريعِ الواقعِ عَقِبَ هاتِه الجُمَلِ مِن قولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالمَعنى: سبقَتْهم أُمَمٌ بتَكذيبِ الرُّسُلِ كما كَذَّبوكَ، وجادَلوا بالباطِلِ رُسُلَهم كما جادَلَكَ هؤلاء، فأخَذْتُهم، فكيف رأيْتَ عِقابي إيَّاهم؟ كذلك مثلُ هؤلاء في إمهالِهم إلى أنْ آخُذَهُم[٣].

- وبَدأ بقَومِ نوحٍ؛ إذْ كان عليه السَّلامُ أوَّلَ رَسولٍ في الأرضِ، وعطَفَ على قَومِه الأحزابَ، وهُمُ الَّذينَ تَحزَّبوا على الرُّسُلِ ولم يَقْبَلوا ما جاؤُوا به مِن عِندِ اللهِ، ومنهم: عادٌ، وثَمودُ، وفِرعونُ وأتْباعُه[٤].

- قولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قال: (هَمَّتْ)، ثمَّ بيَّن أنَّهم هَمُّوا بأخْذِ رسولِهم؛ فكان فيه إجمالٌ، وأَعقَبَه تَفصيلٌ. واختيرَ الفِعلُ ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هنا؛ لِيَشملَ مُختلفَ ما همَّتْ به كُلُّ أُمَّةٍ برَسولِها؛ مِن قتلٍ أو غيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

- وفي قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ قُدِّمَ الهَمُّ بالأخذِ على الجِدالِ بالباطِلِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لَمَّا عصَمَهمُ اللهُ منهم أنْ يَقتُلوهم رَجَعوا إلى الجِدالِ بالباطِلِ[1].

- والباءُ في ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: جادَلوا مُلابِسينَ للباطِلِ، أو الباءُ للآلةِ، بتَنزيلِ الباطِلِ مَنزِلةَ الآلةِ لجِدالِهم[2].

- ويُفهَمُ مِن تَفريعِ قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قَولِه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذارُ المُشركينَ أنَّ هَمَّهم بقَتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مُنتهَى أمَدِ الإمهالِ لهم، فإذا صَمَّموا العَزمَ على ذلك أخَذَهمُ اللهُ كما أخَذَ الأُمَمَ المُكَذِّبةَ قَبْلَهم حينَ همَّتْ كلُّ أمَّةٍ برسولِهم لِيأخُذوه؛ فإنَّ قُرَيشًا لَمَّا هَمُّوا بقتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْجاهُ اللهُ منهم بالهِجرةِ، ثمَّ أمكَنَه مِن نَواصيهم يَومَ بَدرٍ؛ فالمقصودُ مِن تَعدادِ جرائمِ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ مِن تَكذيبِ الرُّسُلِ، والهَمِّ بقَتلِهم، والجِدالِ بالباطِلِ: تَنظيرُ حالِ المُشرِكينَ النَّازِلِ فيهم قَولُه: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] بحالِ الأُمَمِ السَّابِقينَ سَواءً؛ لِيَنطبِقَ الوعيدُ على حالِهم أكمَلَ انطِباقٍ في قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستِفهامُ بـ (كيف) مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالةِ العِقابِ، واستِعظامٌ لِما حَلَّ بهم، وذلك يَقتَضي أنَّ المُخاطَبَ بالاستِفهامِ قد شاهَدَ ذلك الأَخْذَ والعِقابَ، وإنَّما بُنيَ ذلك على مُشاهَدةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

آثارِ ذلك الأخْذِ في مُرورِ الكثيرِ على دِيارِهم في الأسفارِ، وفي سَماعِ الأخبارِ عن نُزولِ العِقابِ بهم وتَوصيفِهم، فنُزِّلَ جميعُ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن شاهَدَ نُزولَ العَذابِ بهم؛ ففي هذا الاستِفهامِ تَحقيقٌ وتَثبيتٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ في هذا الاستِفهامِ معنَى التَّقريرِ؛ بناءً على أنَّ المَقصودَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشركينَ مِن قُرَيشٍ، بتَنبيهِهم على ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم؛ لأنَّهم أمثالُهم في الإشراكِ والتَّكذيبِ؛ فلذلك يَكونُ الاستِفهامُ عمَّا حَلَّ بنُظَرائِهم تَقريريًّا لهم بذلك[1].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعِقابِ؛ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالأخْذُ واقعٌ موقعَ العِقابِ، وهذا بِناءً على أنَّ الاستِفهامَ تقريريٌّ، وعلى القول بأنَّه للتَّعظيمِ يكونُ معنَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعْظَمَ عِقابي وأشَدَّه، حيثُ أزالهم عن آخِرِهم[2]! ولَمَّا كان أخْذُه عظيمًا، دلَّ على عظَمتِه بأنَّه أهلٌ لأنْ يُسألَ عن حالِه؛ لزِيادةِ عَظَمةِ الأخْذةِ في قوَّةِ بطْشِها، وسُرعةِ إهلاكِها، وخرْقِها للعوائدِ؛ فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الواوُ عاطفةٌ على جملةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: ومِثلُ ذلك الحقِّ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠).

فالمُشارُ إليه المَصدرُ المأخوذُ مِن قَولِه: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهو يُفيدُ أنَّ المُشَبَّهَ بلَغَ الغايةَ في وَجهِ الشَّبَهِ، حتَّى لو أرادَ أحَدٌ أنْ يُشَبِّهَه لم يُشَبِّهْهُ إلَّا بنفْسِه. ويجوزُ جعْلُ المُشارِ إليه الأخْذَ المأخوذَ مِن قَولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ [غافر: ٥]، أيْ: ومِثلُ ذلك الأخذِ الَّذي أخَذَ اللهُ به قَومَ نوحٍ والأحزابَ مِن بَعدِهم حَقَّتْ كَلِماتُ اللهِ على الَّذين كفَروا، فعُلِمَ مِن تَشبيهِ تَحقُّقِ كَلِماتِ اللهِ على الَّذين كَفَروا بذلك الأخذِ؛ لأنَّ ذلك الأخْذَ كان تَحقيقًا لكَلِماتِ اللهِ، أي: تَصديقًا لِمَا أخبَرَهم به مِنَ الوَعيدِ، فالمُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعُ الكافِرينَ، فالكلامُ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فهو تَذْييلٌ؛ لأنَّ المُرادَ بالأحزابِ الأُمَمُ المَعهودةُ الَّتي ذُكِرتْ قِصَصُها؛ فيَكونُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أعَمَّ، وبذلك يَكونُ التَّشبيهُ في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جاريًا على أصلِ التَّشبيهِ مِنَ المُغايَرةِ بيْن المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ به. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عَيْنَ المُرادِ بقَولِه آنِفًا: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، أي: مِثلُ أخذِ قَومِ نوحٍ والأحزابِ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ على كفَّارِ قَومِكَ، أيْ: حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ إذا لم يُقلِعوا عن كُفرِهم[1].

- قولُه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قُرِئَ بالإفرادِ، وقُرِئ بصيغةِ الجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾[2]، والإفرادُ هنا مُساوٍ للجَمعِ؛ لأنَّ المُرادَ به الجِنسُ، بقَرينةِ أنَّ الضَّميرَ المَجرورَ بـ ﴿عَلَى﴾ تَعلَّقَ بفِعلِ ﴿حَقَّتۡ﴾، وهو ضَميرُ جَمعٍ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧، ٨٨).

(٢) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بالجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لأبي بكر الأصبهاني (ص: ٣٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

الكَلِمةُ جِنسًا صادقًا بالمُتَعدِّدِ بحسَبِ تَعدُّدِ أزمانِ كَلِماتِ الوَعيدِ، وتَعدُّدِ الأُمَمِ المُتوعَّدةِ[1].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ فيَكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أنْ يَكونوا أصحابَ النَّارِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ غيرُ مُعاقِبٍ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ (أمَّةَ الدَّعوةِ) بالاستِئصالِ؛ لأنَّه أراد أنْ يُخرِجَ منهم ذُرِّيَّةً مؤمِنينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، على تقديرِ لامِ تَعليلٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ كَثرةِ حَذفِها قبْلَ (أنَّ)؛ فيَكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى جميعِ ما ذُكِر قَبْلَه مِن قَومِ نوحٍ والأحزابِ مِن بَعدِهم ومِنَ الَّذينَ كَفَروا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قُرَيشٌ، ومَعناهُ: كما وجَبَ إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَبَ إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

الآيات (٧-٩)

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

غريب الكلمات:

﴿عَدۡنٍ﴾: أي: إقامةٍ واستِقرارٍ وثباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسْلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق؛ لأنَّها خلْقُ اللهِ، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وعن كمالِ لُطفِه بعبادِه المؤمنينَ، وأنَّه قَيَّض هؤلاء الملائكةَ أنْ يَدْعوا لهم، فيقولُ: الملائِكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ ومَن حَوْلَ العَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ، ويُؤمِنونَ به، ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفِرةَ للَّذين آمَنوا قائِلينَ: ربَّنا وَسِعَتْ رحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

عِلمُك كلَّ شَيءٍ؛ فاغفِرْ للَّذين تابوا واتَّبَعوا دينَ الإسلامِ، واصرِفْ عنهم عذابَ الجَحيمِ.

ربَّنا وأدخِلْهم جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم، وأدخِلْ معهم مَنْ صلَحَ في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، الحَكيمُ في شَرعِك وقَدَرِك، وقِهِمْ يا ربَّنا السَّيِّئاتِ، ومَن تَصرِفْ عنه عاقِبةَ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يُبالِغونَ في إظهارِ العَداوةِ مع المؤمِنينَ؛ بيَّنَ أنَّ أشرَفَ طَبَقاتِ المخلوقاتِ هم الملائكةُ الَّذين هم حمَلةُ العَرشِ، والحافُّونَ حَوْلَ العَرشِ؛ يُبالِغونَ في إظهارِ المَحَبَّة والنُّصرةِ للمُؤمِنينَ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كان هؤلاء الأراذِلُ يُبالِغونَ في العَداوةِ، فلا تُبالِ بهم، ولا تَلتَفِتْ إليهم، ولا تُقِمْ لهم وَزنًا؛ فإنَّ حَمَلةَ العَرشِ معك، والحافُّونَ من حَوْلِ العَرشِ معك يَنصُرونَك(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ جِدالَ الكفَّارِ في آياتِ اللهِ وعِصيانَهم؛ ذكَرَ طاعةَ هؤلاء المُصطَفَينَ مِن خَلقِه، وهُم حَمَلةُ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وهُمُ الحافُّونَ به مِنَ المَلائكةِ(٢).

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧).

أي: الملائِكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ والملائِكةُ المُقرَّبونَ الَّذين يَحُفُّونَ بالعَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ تنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً وتعظيمًا، ويُؤمِنونَ برَبِّهم، فيُقِرُّونَ بوُجودِه ورُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وأسمائِه وصِفاتِه، ويُقِرُّونَ بأنَّه الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ فلا يَستكبِرونَ عن عِبادتِه(١).

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من مَلائِكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ: إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبْعِمئةِ عامٍ!))(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال الرسعني: (﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وهم أربعةُ أملاكٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ جُعِلوا ثمانيةً). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩١). ونسَبه ابنُ الجوزيِّ إلى قولِ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (والمشهورُ أنَّ حمَلَتَه الآنَ أربعةٌ، وفي يومِ القيامةِ يَكونون ثمانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٧).

قال جلالُ الدِّينِ المحلي، والشِّربيني: في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يقولونَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذا مدحٌ لهم بكثرةِ عبادتِهم للهِ تعالى، وخصوصًا التسبيحَ والتحميدَ. وسائرُ العباداتِ تدخُلُ في تسبيحِ الله وتحميدِه؛ لأنَّها تنزيهٌ له عن كونِ العبدِ يصرفُها لغيرِه، وحمدٌ له تعالى، بل الحمدُ هو العبادةُ للهِ تعالى، وأمَّا قولُ العبدِ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه» فهو داخلٌ في ذلك، وهو من جملةِ العباداتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦). =

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أي: ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفرةَ للَّذين آمَنوا بما يجِبُ الإيمانُ به، وأقَرُّوا بوَحدانيَّةِ اللهِ، وتَبَرَّؤوا مِن كُلِّ مَعبودٍ سِواه[1].

كما قال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المَغفِرةَ لها لوازِمُ لا تَتِمُّ إلَّا بها غيرُ ما يَتبادَرُ إلى كثيرٍ مِن الأذهانِ؛ أنَّ سُؤالَها وطَلَبَها غايتُه مُجَرَّدُ مَغفرةِ الذُّنوبِ- ذكَرَ تعالى صِفةَ دُعائِهم لهم بالمَغفِرةِ، بذِكرِ ما لا تَتِمُّ إلَّا به، فقال[2]:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

أي: تَقولُ الملائِكةُ: يا رَبَّنا وَسِعَتْ رَحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ عِلمُك كُلَّ شَيءٍ، فما مِن شَيءٍ إلَّا شَمِلَتْه رحمتُك، ونالَه منها حَظٌّ ونصيبٌ، وأحاطَ به عِلمُك[3].

= صَحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٧٢٧)، وجوَّده ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٨٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): (إسنادُه على شرط الصَّحيحِ). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، =

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾.

أي: فاستُرِ الذُّنوبَ وتَجاوَزْ عن المؤاخَذةِ بها: للَّذين تابوا مِنَ الشِّركِ والمعاصي، والتَزَموا بما شرَعْتَه من دينِ الإسلامِ، فوَحَّدوك وعَمِلوا بما أمَرْتَهم به، وانتَهَوا عمَّا نَهَيْتَهم عنه[١].

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: واصرِفْ عنهم عذابَ النَّارِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا طَلَب الملائِكةُ مِنَ اللهِ إزالةَ العَذابِ عنهم؛ أردَفوه بأنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ إيصالَ الثَّوابِ إليهم[٣]؛ إذ كانت النَّجاةُ مِنَ العذابِ لا تَستلزِمُ الثَّوابَ[٤].

= ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (جملةُ ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ هي عبارةٌ عن توسُّلٍ، أي: توسَّلوا بسَعةِ عِلمِ اللهِ ورَحمتِه إلى مَطلوبِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

أي: يا رَبَّنا وأدخِلِ الَّذين تابُوا واتَّبَعوا سَبيلَك جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم بإدخالِهم إيَّاها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٠ - ٦٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

أي: وأدخِلْ جنَّاتِ عَدْنٍ أيضًا مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال الشَّوكاني: (المرادُ بالصَّلاحِ هاهنا: الإيمانُ باللهِ، والعَمَلُ بما شرَعَه اللهُ؛ فمَنْ فَعَل ذلك فقد صَلَح لدُخولِ الجنَّة). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٣).

أي: إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسِّيادةِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان طلَبُ الغُفرانِ يَتضمَّنُ إسقاطَ العَذابِ؛ أَردَفوهُ بالتَّضرُّعِ بِوقايَتِهِمُ العَذابَ على سبيلِ المُبالَغةِ والتَّأكيدِ[٢].

وأيضًا لمَّا كان الإنسانُ قد يُغفرُ له ويُكرمُ، وفيه مِن الأخلاقِ ما رُبَّما حمَلَه على بعضِ الأفعالِ النَّاقِصةِ، دَعَوْا لهم بالكمالِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فقالوا[٣]:

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾.

أي: واحفَظِ المؤمِنينَ الَّذين تابوا واتَّبَعوا سَبيلَك مِمَّا يَسوؤُهم، مِن ارتِكابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ، وعُقوباتِها الَّتي تَسوءُ أصحابَها[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: قِهِمُ السَّيِّئاتِ نَفْسَها، بحيثُ لا يَفعَلونَها، أو يكونَ المعنى: قِهِمْ جزاءَ السَّيِّئاتِ، فلا تُؤاخِذْهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). وبنحوِه قال =

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾.

أي: ومَن تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقِبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه بالنَّجاةِ مِن عَذابِك، ودُخولِ جنَّتِك[1].

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

= ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦).

واختار مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ أنَّ المرادَ بالسَّيِّئاتِ: الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو وِقايَتُهم عاقِبةَ السَّيِّئاتِ وهو العذابُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١١، ١١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين -أي: قِهِمُ الأعمالَ السَّيِّئةَ وجزاءَها-: ابنُ القيِّم، والسعدي. يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وِقايةُ السَّيِّئاتِ نَوعانِ؛ أحدُهما: وِقايةُ فِعلِها بالتَّوفيقِ فلا تَصدُرُ منه. والثَّاني: وقايةُ جزائِها بالمَغفرةِ فلا يُعاقَبُ عليها، فتضَمَّنَتِ الآيةُ سُؤالَ الأمْرَينِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١١٥).

وقال ابن عاشور: (السَّيِّئاتُ هنا جمْعُ سَيِّئةٍ، وهي الحالةُ أو الفَعلةُ الَّتي تَسوءُ مَن تعلَّقَت به، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]... والمرادُ: إبلاغُ هؤلاء المؤمنينَ أعلى درجاتِ الرِّضا والقَبولِ يومَ الجزاءِ، بحيث لا يَنالُهم العذابُ، ويَكونونَ في بُحبُوحةِ النَّعيمِ، ولا يَعتريهم ما يُكَدِّرُهم مِن نحوِ التَّوبيخِ والفَضيحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣، ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

أي: والنَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ في الآخرةِ هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُه[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن جُملةِ فَوائِدِ الإيمانِ وفَضائِلِه الكثيرةِ جِدًّا: أنَّ الملائِكةَ الَّذين لا ذُنوبَ عليهم يَستَغفِرون لأهلِ الإيمانِ؛ فالمؤمِنُ بإيمانِه تَسبَّبَ لهذا الفَضلِ العَظيمِ[(٢)]. وفيه الحَثُّ على الإيمانِ؛ حتَّى تَدخُلَ ضِمْنَ مَن تَستَغفِرُ لهم الملائِكةُ، والإيمانُ كلُّه خَيرٌ وسُرورٌ، ونِعمةٌ في القَلبِ، ونِعمةٌ في البَدَنِ، حتَّى البلاءُ الَّذي يُصيبُ المؤمِنَ هو له خَيرٌ؛ لذا فاحرِصْ على تَحقيقِ إيمانِك بفِعلِ الوَسائلِ الَّتي تُنَمِّي هذا الإيمانَ وتُغَذِّيه وتُقَوِّيه[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الاشتِراكَ في الإيمانِ يَجِبُ أن يكونَ أدعى شَيءٍ إلى النَّصيحةِ، وأبْعَثَه على إمحاضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٢-١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

الشَّفَقةِ، وإن تفاوَتت الأجناسُ، وتباعَدَت الأماكِنُ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فيه أنَّ السُّنَّةَ في الدُّعاءِ أن يُبدَأَ فيه بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، ثمَّ يُذكَرَ الدُّعاءُ عَقِيبَه[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سَعَةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ قال قائلٌ: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدمَ كُفَّارٌ! فأين الرَّحمةُ؟

فالجواب: هم مَرحومونَ بالرَّحمةِ العامَّةِ، مَن يُخرِجُ لهمُ النَّباتَ؟ مَن يُنزِلُ لهمُ المطرَ؟ مَن يَجْعَلُهم أصِحَّاءَ؟ مَن يُمَتِّعُهم بالأسماعِ والأبصارِ إلَّا اللهُ؟! وهذه رحمةٌ، فرحمةُ اللهِ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[٣]، وفي الآيةِ أيضًا سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ لقولِه: ﴿وَعِلْمًا﴾، ويترتَّبُ على هاتَينِ الفائدتَينِ أنَّ الإنسانَ متى عَلِمَ ذلك تَعَرَّضَ لرحمةِ اللهِ لعلَّه يَكونُ مِن الدَّاخِلينَ فيها، وإذا آمَنَ بسَعَةِ عِلْمِ اللهِ استحيا مِن اللهِ أنْ يَفْقِدَه حيثُ أمَرَه، أو يَجِدَه حيثُ نَهاه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ إثباتُ أنَّ لهذا العَرشِ حَمَلةً، وإثباتُ الحَمَلةِ له -مع قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى على إمساكِه بدونِ حَمَلةٍ- إشعارٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩١).

(٣) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كان سِياقُ هذا الدُّعاءِ أنَّه واقِعٌ في الدُّنيا... اندفَعَ ما عسى أنْ يُقالَ: إنَّ رحمةَ اللهِ لا تَسَعُ المُشركينَ يومَ القيامةِ؛ إذْ هُم في عَذابٍ خالدٍ؛ فلا حاجةَ إلى تَخصيصِ عُمومِ كلِّ شَيءٍ بالنِّسبةِ إلى سَعةِ الرَّحمةِ بمُخَصِّصاتِ الأدلَّةِ المُنفصِلةِ القاضيةِ بعدَمِ سَعةِ رحمةِ اللهِ للمُشركِينَ بعْدَ الحِسابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).

بتَعظيمِه، وأنَّه عظيمٌ مُعتنًى به؛ ولهذا فإنَّ اللهَ قال في السَّمَواتِ: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ [الرعد: ٢] ولم يَذْكُرْ لها حَمَلةً، والعَرشُ ذَكَرَ له حَمَلةً مع أنَّ الَّذي أمسَك السَّمَواتِ والأرضَ أنْ تَزولا قادِرٌ على إمساكِ العَرشِ بلا حَمَلةٍ، لكِنْ هذا مِن بابِ التَّعظيمِ والتَّنويهِ بشَرَفِه وعَظَمتِه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ استِغفارَ الملائِكةِ لأهلِ الأرضِ خاصٌّ بالمؤمِنينَ منهم، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يدُلُّ ظاهِرُها على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]؟

الجواب: أنَّ آيةَ (غافر) مُخَصِّصةٌ لآيةِ (الشورى)، والمعنى: ويَستَغفِرونَ لِمَن في الأرضِ مِنَ المؤمِنينَ؛ لِوُجوبِ تَخصيصِ العامِّ بالخاصِّ(٢).

٣- دُعاءُ الملائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ...﴾ إلى آخِرِ الدُّعاءِ، تَضَمَّنَ أمورًا؛ منها:

أوَّلًا: قد تَضَمَّنَ هذا الدُّعاءُ مِن الملائكةِ كَمالَ مَعرفتِهم برَبِّهم، والتَّوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِه الحُسنى الَّتي يُحِبُّ من عِبادِه التَّوسُّلَ بها إليه، والدُّعاءَ بما يناسِبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه؛ فلمَّا كان دعاؤُهم بحُصولِ الرَّحمةِ، وإزالةِ أثَرِ ما اقتَضَتْه النُّفوسُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

البَشَريَّةُ الَّتي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتِضاءَها لِما اقتَضَتْه مِنَ المعاصي، ونحوِ ذلك مِن المَبادئِ والأسبابِ الَّتي قد أحاط اللهُ بها عِلمًا- تَوَسَّلوا بالرَّحيمِ العَليمِ، وتضَمَّن كَمالَ أدَبِهم مع اللهِ تعالى بإقرارِهم برُبوبيَّتِه لهم الرُّبوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّةَ، وأنَّه ليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ، وإنَّما دُعاؤُهم لرَبِّهم صَدَر مِن فَقيرٍ بالذَّاتِ مِن جَميعِ الوُجوهِ لا يُدِلُّ على رَبِّه بحالةٍ مِن الأحوالِ، إنْ هو إلَّا فَضْلُ اللهِ وكَرَمُه وإحسانُه.

ثانيًا: تضَمَّن أيضًا مُوافقَتَهم لرَبِّهم تمامَ المُوافَقةِ، بمَحبَّةِ ما يُحِبُّه مِن الأعمالِ الَّتي هي العِباداتُ الَّتي قاموا بها، واجتَهَدوا اجتِهادَ المُحِبِّينَ، ومِن العُمَّالِ الَّذين هم المؤمِنونَ الَّذين يحِبُّهم اللهُ تعالى مِن بيْنِ خَلْقِه؛ فسائِرُ الخَلقِ المُكَلَّفينَ يُبغِضُهم اللهُ إلَّا المؤمِنينَ منهم، فمِن مَحَبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا اللهَ، واجتَهَدوا في صَلاحِ أحوالِهم؛ لأنَّ الدُّعاءَ للشَّخصِ مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على مَحَبَّتِه؛ لأنَّه لا يدعو إلَّا لِمَن يُحِبُّه.

ثالثًا: تضَمَّن ما شَرَحه اللهُ وفَصَّله مِن دُعائِهم بعْدَ قَولِه: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّنبيهَ اللَّطيفَ على كيفيَّةِ تدَبُّرِ كِتابِه، وألَّا يَكونَ المُتدَبِّرُ مُقتَصِرًا على مجرَّدِ معنى اللَّفظِ بمُفردِه، بل يَنبغي له أن يَتدبَّرَ معنى اللَّفظِ، فإذا فَهِمَه فَهمًا صَحيحًا على وَجْهِه نظَرَ بعَقلِه إلى ذلك الأمرِ، والطُّرُقِ المُوصِلةِ إليه، وما لا يَتِمُّ إلَّا به، وما يتوقَّفُ عليه، وجزَم بأنَّ اللهَ أراده، كما يَجزِمُ أنَّه أراد المعنى الخاصَّ الدَّالَّ عليه اللَّفظُ، والَّذي يُوجِبُ له الجَزمَ بأنَّ اللهَ أراده أمْرانِ؛ أحَدُهما: مَعرِفتُه وجَزْمُه بأنَّه مِن توابِعِ المعنى والمتوقِّفُ عليه. والثَّاني: عِلمُه بأنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وأنَّ اللهَ أمَرَ عِبادَه بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ في كتابِه. وقد عَلِمَ تعالى ما يَلزَمُ مِن تلك المعاني، وهو المُخبِرُ بأنَّ كِتابَه هُدًى ونُورٌ وتِبيانٌ لكُلِّ شَيءٍ، وأنَّه أفصَحُ الكَلامِ وأجَلُّه إيضاحًا، فبذلك يَحصُلُ للعَبدِ مِن العِلمِ العَظيمِ والخَيرِ الكثيرِ

بحَسَبِ ما وفَّقَه اللهُ له.

رابعًا: قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ تضَمَّن أنَّ المقارِنَ مِن زَوجٍ وولَدٍ وصاحِبٍ: يَسعَدُ بقَرينِه، ويَكونُ اتِّصالُه به سَبَبًا لخَيرٍ يَحصُلُ له خارِجًا عن عَمَلِه وسَبَبِ عَمَلِه، كما كانت الملائكةُ تدعو للمؤمِنينَ ولِمَن صَلَح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، وقد يُقالُ: إنَّه لا بُدَّ مِن وُجودِ صَلاحِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ فحينَئذٍ يكونُ ذلك مِن نتيجةِ عَمَلِهم[(١)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ يُوجِبُ أنَّ الله تعالى عَرشًا يُحمَلُ، ويُوجِبُ أنَّ ذلك العَرشَ ليس هو المُلْكَ، كما تَقولُه طائفةٌ مِن الجَهميَّةِ؛ فإنَّ المُلْكَ هو مجموعُ الخَلقِ، فهنا دَلَّت الآيةُ على أنَّ لله ملائِكةً مِن جُملةِ خَلْقِه يَحمِلونَ عَرشَه، وآخَرونَ يكونونَ حَوْلَه[(٢)].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ وَهمٌ أنَّه سُبحانَه مُحتاجٌ إلى حَملِهم لِعَرشِه، أو إلى عَرشِه، أو إلى شَيءٍ؛ نَبَّه بالتَّسبيحِ على أنَّه غَنيٌّ عن كُلِّ شَيءٍ[(٣)].

٦- المَيتُ يَنتفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له، واتَّفقَ أئِمَّةُ الإسلامِ على ذلك، ودلَّ عليه كِتابُ الله تعالى؛ كقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَقِهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢).

ﵟٱلسَّيِّـَٔاتِ ...ﵞ؛ فقد أخبرَ سُبحانَه أنَّ الملائِكةَ يَدْعُونَ للمُؤمِنينَ بالمَغفِرةِ، ووِقايةِ العَذابِ، ودُخولِ الجنَّةِ(١).

٧- قال الله تعالى: ﵟٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِﵞ تأمَّلْ ما تضَمَّنَه هذا الخبَرُ عن الملائِكةِ من مَدْحِهم بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، والإحسانِ إلى المؤمِنينَ بالاستِغفارِ لهم، وقَدَّموا بيْنَ يَدَي استِغفارِهم تَوسُّلَهم إلى اللهِ تعالى بسَعةِ عِلمِه وسَعةِ رَحمتِه؛ فسَعةُ عِلمِه تَتضَمَّنُ عِلمَه بذُنوبِهم وأسبابِها، وضَعفِهم عن العِصمةِ، واستيلاءِ عَدُوِّهم وأنفُسِهم وهواهم وطِباعِهم، وما زُيِّنَ لهم من الدُّنيا وزينتِها، وعِلمَه بهم إذ أنشَأَهم من الأرضِ وإذ هم أجِنَّةٌ في بُطونِ أمَّهاتِهم، وعِلمَه السَّابِقَ بأنَّهم لا بُدَّ أن يَعصُوه، وأنَّه يُحِبُّ العَفوَ والمَغفِرةَ، وغيرَ ذلك مِن سَعةِ عِلمِه الَّذي لا يُحيطُ به أحَدٌ سِواه. وسَعةُ رَحمتِه تَتضَمَّنُ أنَّه لا يَهلِكُ عليه أحَدٌ من المؤمِنينَ به أهلِ تَوحيدِه ومَحبَّتِه؛ فإنَّه واسِعُ الرَّحمةِ لا يَخرُجُ عن دائرةِ رَحمتِه إلَّا الأشقياءُ، ولا أشقَى ممَّن لم تَسَعْه رَحمتُه الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ(٢).

٨- قولُه تعالى: ﵟوَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦﵞ فيه أنَّ الملائكةَ مُكَلَّفون، ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّهم لولا أنَّهم مُكَلَّفون قد قاموا بما كُلِّفوا به؛ لم يَكونوا مُستحِقِّينَ للثَّناءِ بالإيمانِ! لو كان هذا مِن طبيعتِهم وسَجِيَّتِهم لم يكنْ للثَّناءِ عليهم بذلك كبيرُ فائدةٍ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﵟوَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَاﵞ إلى قولِه سبحانه: ﵟوَمَن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

صَٰلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ دليلٌ على كرامةِ المؤمنِ على اللهِ؛ إذْ قد أَلْهَم حَمَلةَ عرْشِه ومَن حَوْلَه الاستِغفارَ له، والدُّعاءَ، وما فيه -له ولآبائِه وأزواجِه وذُرِّيَّاتِه- النَّجاةُ[1].

١٠- قال الوَزيرُ ابنُ هُبَيرةَ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾: (عَلِمَت الملائِكةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المؤمنينَ، فتقرَّبوا إليه بالشَّفاعةِ فيهم، وأحسَنُ القُربِ أنْ يُسأَلَ المُحِبُّ إكرامَ حَبيبِه؛ فإنَّك لو سألْتَ شَخصًا أن يَزيدَ في إكرامِ وَلَدِه لارتفَعْتَ عندَه؛ حيثُ تَحُثُّه على إكرامِ مَحبوبِه)[2].

١١- يُتوسَّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بصِفاتِه كما يُتَوسَّلُ إليه بأسمائِه، فهنا تَوسَّلَ الملائِكةُ إلى اللهِ بالرُّبوبيَّةِ في قَولِهم: ﴿رَبَّنَا﴾، وتوسَّلوا إليه بسَعةِ الرَّحمةِ: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً﴾، وبسَعةِ العلمِ: ﴿وَعِلْمًا﴾، والتَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بصِفاتِه هو من أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ، كالتَّوسُّلِ إليه بأسمائِه[3].

١٢- الدُّعاءُ في أكثَرِ الأمرِ مَذكورٌ بلَفظِ (رَبَّنا)، ويدُلُّ عليه أنَّ الملائِكةَ عندَ الدُّعاءِ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، إلى غيرِ ذلك؛ فثَبَت أنَّ من أرضَى الدُّعاءِ أن يُناديَ العَبدُ رَبَّه بقَولِه: (يا رَبِّ)[4]؛ ففيه استِعطافُ العَبدِ لِمَولاه الَّذي ربَّاه وقام بمَصالِحه مِن لَدُنْ نَشأتِه إلى وَقتِ نِدائِه؛ فهو جَديرٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٠).

بألَّا يُناديه إلَّا بلَفظِ الرَّبِّ[١] المُقتضي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤونِنا على الإطلاقِ، أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به. وإنَّما أتى «اللَّهُمَّ» في مواضعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتضَتْها الأحوالُ[٢].

١٣- جَعْلُ الرَّحمةِ عِلَّةً للمَغفرةِ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ظاهِرٌ، أمَّا جَعْلُ العِلمِ عِلَّةً للمَغفرةِ، فمَعناهُ: حقَّقْنا أنَّ رحمتَك وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فاغفِرْ للَّذينَ تابوا، وعرَفْنا أنَّ عِلمَك أحاطَ بكلِّ شَيءٍ فأَنجِحْ مَقاصِدَهم ما عَلِموا وما لم يَعلَموا؛ فإنَّك أَعلَمُ بأحوالِهم ومَصالِحِهم[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ دعاءُ حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه للتَّائبينَ المُتَّبِعينَ سبيلَ اللهِ بالمغفرةِ؛ وفيه دليلٌ على أنَّ التَّائبَ وغيرَ التَّائبِ مُحتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورِضوانِه؛ لا يُنَجِّيه عمَلُه دونَ أنْ يَجودَ عليه مَولاه برحمتِه[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فهذا دعاءُ الملائكةِ للمُؤمِنينَ التَّائبينَ المُتَّبِعينَ لكِتابِه وسُنَّةِ رَسولِه، الَّذين لا سبيلَ لهم غيرُهما؛ فلا يَطمَعْ غيرُ هؤلاء بإجابةِ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).

الدَّعوةِ؛ إذْ لم يَتَّصِفْ بصِفاتِ المَدعُوِّ له بها(١)!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ أنَّ مؤمني الجِنِّ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، ودليلُ ذلك أنَّ كلَّ مؤمنٍ غَفَرَ اللهُ له ووقاه عذابَ الجحيم؛ فقد وَعَده الجَنَّةَ، والجِنُّ قد ثَبَت في حقِّ مؤمنِهم الإيمانُ، ومغفرةُ الذَّنْبِ، ووِقايةُ النَّارِ، كما في قولِه تعالى عن نَفَرٍ مِن الجِنِّ أنَّهم قالوا لقومِهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ فتعَيَّنَ دُخولُهم الجَنَّةَ(٢).

١٧- قولُه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ فيه أنَّ مِن تحقيقِ التَّوبةِ اتِّباعَ سَبيلِ اللهِ؛ ولهذا نَجِدُ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ دائمًا مع التَّوبةِ ذِكْرَ العَمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾(٣) [الفرقان: ٧٠].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أنَّ الشَّيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاءِ المُؤذي، وحُصولِ المطلوبِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم لَمَّا انتَهَوا مِن دُعاءِ اللهِ تعالى بانتِفاءِ المُؤذي، سألوا اللهَ تعالى حُصولَ المطلوبِ، وهو إدخالُ الجنَّاتِ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بإجابةِ الدُّعاءِ، كأنَّهم يقولونَ: أدْخِلْهم هذا؛ لأنَّك وعَدْتَهم إيَّاه؛ فيكونُ مِن بابِ التَّوسُّلِ بوَعدِه

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٢).
(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

إلى تحقُّقِ مَوعودِه[١].

٢٠- قولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه أنَّ مِن تمامِ النَّعيمِ أنْ يَجمَعَ اللهُ بيْنَ الإنسانِ وبيْن قَرابَتِه وزَوجِه، فإنْ قال قائلٌ: هل يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يكونوا في درجةٍ واحدةٍ؟

قُلْنا: لا يَلزَمُ، ولكِنَّ الأزواجَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا في دَرَجةِ أزواجِهم، والذُّرِّيَّةُ ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في سورةِ (الطُّورِ) أنَّها في دَرَجةِ آبائِهم أيضًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّةَ الَّذين لم يَبلُغوا مَنازِلَ آبائِهم أنَّهم يُرفَعونَ حتَّى يَكونوا في مَنازِلِ آبائِهم، وأنَّ ذلك لا يَقتضي نَقْصَ الآباءِ من المَنازِلِ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[٢].

٢١- قَولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه الاحتِرازُ في الدُّعاءِ عن التَّعميمِ؛ حيثُ قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، ولم يَقولوا: (وآباءَهم وأزواجَهم وذُرِّيَّاتِهم)، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ أي: أهلَ المسجدِ الحرام ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ فقال: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ ثم أبدَلَ منها قَولَه: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فاحترَزَ، ولكِنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يعني: أرزُقُ مَن في هذا البلدِ ولو كانوا كُفَّارًا، لكِنْ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فيَنبغي للإنسانِ في الدُّعاءِ أنْ يَحترِزَ مِن التَّعميمِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قد يَتناوَلُ مَن لا يَستحِقُّ الدُّعاءَ، فيَكونُ في دعائِه هذا نَوعٌ مِن الاعتداءِ[(١)].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ أثبَتَ سبحانه الزَّوجيَّةَ لهنَّ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ زَوجةَ الإنسانِ في الدُّنيا تكونُ زوجتَه في الآخرةِ إذا كانت مِن أهلِ الجنَّةِ[(٢)].

٢٣- أخبَرَ سُبحانَه عن ملائكتِه أنَّهم قالوا عَقِيبَ هذه الدَّعوةِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: مَصدَرُ ذلك وسَبَبُه وغايتُه صادِرٌ عن كَمالِ قُدرتِك وكمالِ عِلمِك؛ فإنَّ العِزَّةَ كَمالُ القُدرةِ، والحِكمةَ كَمالُ العِلمِ، وبهاتَينِ الصِّفَتينِ يَقضي سُبحانَه وتعالى ما شاء، ويأمُرُ ويَنهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ؛ فهاتانِ الصِّفتانِ مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ[(٣)].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أنَّ الملائِكةَ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ ومَن حوْلَه يَسألونَ اللهَ تعالى أن يَقِيَ الَّذين آمَنوا السَّيِّئاتِ -أي: عذابَها (على قولٍ في التَّفسيرِ)- حتَّى يَتِمَّ لهمُ المطلوبُ، فإنْ قال قائلٌ: أليس هذا حاصِلًا مِمَّا سبَقَ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؟

قُلْنا: بلى، ولكِنْ مقامُ الدُّعاءِ ينبغي فيه البَسطُ؛ لِعِدَّةِ أسبابٍ:

السَّببُ الأوَّلُ: لأنَّه عِبادةٌ، فكُلَّما بَسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا للهِ.

الثَّاني: أنَّه تفصيلٌ، والتَّفصيلُ خيرٌ مِن الإجمالِ؛ لأنَّه قد يكونُ في التَّفصيلِ ما يَغيبُ عنك عندَ الإجمالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

الثَّالثُ: أنَّه انبساطٌ مع اللهِ الَّذي هو أحَبُّ شَيءٍ إليك، والحَديثُ مع المحبوبِ لا شكَّ أنَّ كلَّ أحدٍ يُحِبُّ أن يَطولَ؛ انظُرْ إلى قَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه؛ دِقَّه وجِلَّه[١]، وأوَّلَه وآخِرَه، وعلانيتَه وسِرَّه))[٢]، ((اللَّهمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنْتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي))[٣]، وكان يَكفي عن هذا كُلِّه أن يَقولَ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنْبي. لكِنَّ البَسط له تأثيرٌ على القَلبِ[٤].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ كما تكونُ في جَلبِ المحبوبِ، تكونُ في دَفعِ المكروهِ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ اقتَضاهُ الانتِقالُ من ذِكرِ الوعيدِ المُؤْذِنِ بذَمِّ الَّذين كَفَروا إلى ذِكرِ الثَّناءِ على المؤمنينَ؛ فإنَّ الكلامَ الجاريَ على ألْسِنةِ المَلائكةِ مِثلُ الكلامِ

---

(١) دِقَّه: أي: دَقيقَه وصَغيرَه. وجِلَّه: أي: جَليلَه وكَبيرَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

الجاري على ألْسِنةِ الرُّسُلِ؛ إذِ الجميعُ مِن وَحيِ اللهِ، والمُناسَبةُ: المُضادَّةُ بيْنَ الحالَينِ والمَقالَينِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن وعيدِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ أنْ يَسألَ سائلٌ عن حالِ الَّذينَ لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ فآمَنوا بها[١]. أو هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ببَيانِ أنَّ أشرافَ المَلائكةِ عليهمُ السَّلامُ مُثابِرونَ على ولايةِ مَن معَه مِنَ المؤمِنينَ، ونُصْرتِهم، واستِدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدَّارَينِ[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسةِ، أيْ: يُسَبِّحونَ اللهَ تَسبيحًا مُصاحِبًا للحمدِ؛ فحُذِف مَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ لدَلالةِ المُتعلِّقِ به عليه[٣].

- قولُه: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فيه وصْفُ حَمَلةِ العرشِ بالإيمانِ -مع أنَّ إيمانَهم به مَعلومٌ لكلِّ أحدٍ-؛ لإظهارِ شَرَفِ الإيمانِ وفَضلِه، والتَّرغيبِ فيه، وتَعظيمًا لأهلِه، كما وُصِف الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ بالإيمانِ والصَّلاحِ، والإشعارِ بعِلَّةِ دُعائِهم للمؤمنينَ، حَسَبَما يَنطِقُ به قَولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فإنَّ المُشارَكةَ في الإيمانِ أقْوى المُناسَباتِ وأتَمُّها، وأدْعى الدَّواعي إلى النُّصحِ والشَّفَقةِ، وللتَّعريضِ بالمُشرِكينَ أنْ لم يَكونوا مِثلَ أشرَفِ أجناسِ المَخلوقاتِ، مِثلُ قَولِه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤] [الأنعام: ١٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

- قولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في نَظْمِ استِغفارِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ في سِلْكِ وظائِفِهم المَفروضةِ عليهم مِن تَسبيحِهم، وتَحميدِهم، وإيمانِهم: إيذانٌ بكمالِ اعتِنائِهم به، وإشعارٌ بوُقوعِه عِندَ اللهِ تعالى في مَوقِعِ القَبولِ(١).

- والإخبارُ عن صِنفَيِ المَلائكةِ بأنَّهم يُسَبِّحونَ ويؤْمِنونَ به تَوطئةٌ وتمهيدٌ للإخبارِ عنهم بأنَّهم يَستغفِرونَ للَّذينَ آمَنوا، فذلك هو المقصودُ مِنَ الخبَرِ، فقُدِّم له ما فيه تحقيقُ استِجابةِ استِغفارِهم؛ لصُدورِه ممَّن دأبُهمُ التَّسبيحُ، وصِفَتُهمُ الإيمانُ(٢).

- وصيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ مُفيدةٌ لتَجدُّدِ ذلك وتَكرُّرِه، وذلك مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ أنَّهم يَفعَلونَ ذلك في الدُّنيا(٣).

- وخُصَّ في هذه الآيةِ طائفةٌ مِنَ المَلائكةِ مَوصوفةٌ بأوصافٍ تَقتَضي رِفْعةَ شأنِهم؛ تَذَرُّعًا مِن ذلك إلى التَّنويهِ بشَأنِ المؤمِنينَ الَّذينَ تَستغفِرُ لهم هذه الطَّائفةُ الشَّريفةُ مِنَ المَلائكة(٤).

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ...﴾ افتُتِح دُعاءُ المَلائكةِ للمؤمِنينَ بالنِّداءِ؛ لأنَّه أدخَلُ في التَّضرُّعِ، وأرْجَى للإجابةِ، وفيها قولٌ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه طريقةُ التَّكلُّمِ، وتقديرُ الكلامِ أنَّهم يَقولونَ: رَبَّنا ...(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩، ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦١).

- وفي قولِهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ تَوجَّهوا إلى اللهِ بالثَّناءِ بسَعةِ رحمتِه وعِلمِه؛ لأنَّ سَعةَ الرَّحمةِ ممَّا يُطمِعُ باستِجابةِ الغُفرانِ، وسَعةَ العِلمِ تَتعلَّقُ بثُبوتِ إيمانِ الَّذينَ آمَنوا. ومعنَى السَّعةِ في الصِّفتَينِ: كَثرةُ تَعلُّقاتِهما، وذِكرُ سَعةِ العِلمِ كِنايةٌ عن يَقينِهم بصِدقِ إيمانِ المؤمِنينَ؛ فهو بمَنزِلةِ قَولِ القائلِ: أنت تَعلَمُ أنَّهم آمَنوا بك ووَحَّدوك[1].

- وجِيءَ في وَصفِه تعالى بالرَّحمةِ الواسِعةِ والعِلمِ الواسِعِ بأُسلوبِ التَّمييزِ المُحَوَّلِ عن النِّسبةِ ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ لِما في تَركيبِه مِنَ المُبالَغةِ بإسنادِ السَّعةِ إلى الذَّاتِ ظاهِرًا، حتَّى كأنَّ ذاتَه رحمةٌ وعِلمٌ واسِعانِ كلَّ شَيءٍ، فهيَ الَّتي وَسِعَتْ، فذلك إجمالٌ يَستَشرِفُ به السَّامِعُ إلى ما يَرِدُ بَعْدَه، فيَجيءُ بَعْدَه التَّمييزُ المُبَيِّنُ لِنسبةِ السَّعةِ أنَّها مِن جانبِ الرَّحمةِ وجانبِ العِلمِ، وهي فائدةُ تَمييزِ النِّسبةِ في كلامِ العربِ؛ لأنَّ للتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ تَمكينًا للصِّفةِ في النَّفْسِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ تقديمُ الرَّحمةِ على العِلمِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ هاهنا؛ لأنَّهم بها يَستَمطِرونَ إحسانَه، ويَتَوسَّلونَ بها إلى حُصولِ مَطلوبِهم مِن سؤالِ المَغفرةِ[3].

- وفائدةُ العُدولِ عن المُضمَرِ وأنَّه لم يُقَلْ: (فاغفِرْ لهم)، بل قيل: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ هي: أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغُفرانَ في حقِّ مُفيضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

الخَيراتِ بالعِلمِ الشَّامِلِ والرَّحمةِ الواسِعةِ، عَلَّلوا قابِلَ الفَيضِ أيضًا بالتَّوبةِ عن الشِّركِ، واتِّباعِ سبيلِ الإسلامِ[١].

- ومَفعولُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ مَحذوفٌ؛ للعِلمِ، أيْ: اغفِرْ لهم ما تابوا منه، أي: ذُنوبَ الَّذينَ تابوا[٢].

- وتفَرَّعَ على التَّوطئةِ بمُناجاةِ اللهِ تعالى ما هو المُتوسَّلُ إليه منها، وهو طَلَبُ المَغفرةِ للَّذينَ تابوا؛ لأنَّه إذا كان قد عَلِم صِدقَ تَوبةِ مَن تابَ منهم، وكانت رحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ؛ فقد استَحَقُّوا أنْ تَشملَهم رَحمتُه؛ لأنَّهم أَحْرياءُ بها[٣].

- قولُه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، فهو مِن جُملةِ التَّفريعِ؛ فإنَّ الغُفرانَ يَقتَضي هذه الوِقايةَ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ هو عدَمُ المؤاخَذةِ به. وعَذابُ الجَحيمِ جعَلَه اللهُ لجَزاءِ المُذْنِبينَ، إلَّا أنَّهم عَضَّدوا دَلالةَ الالتِزامِ بدَلالةِ المُطابَقةِ[٤]؛ إظهارًا للحِرصِ على المَطلوبِ[٥]، وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ؛ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) الدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ الوَضْعيَّةُ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: دَلالةِ المُطابَقة، ودَلالةِ التَّضمُّنِ، ودَلالةِ الالتِزام؛ فدَلالةُ المُطابَقة: هي دَلالةُ اللَّفظِ على تمامِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ الإنسانِ والأسدِ على حقيقتَيْهِما. ودَلالةُ التَّضمُّنِ: دَلالةُ اللَّفظِ على بعضِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ البَيتِ على السَّقفِ أو الحائطِ. ودَلالةُ الالتِزام: دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى آخَرَ خارِجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩، ٣٣٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٢٠٩، ٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠، ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ في خِلالِ جُمَلِ الدُّعاءِ اعتراضٌ؛ للتَّأكيدِ بزِيادةِ التَّضرُّعِ، وهذا ارتِقاءٌ مِن طلَبِ وِقايَتِهمُ العَذابَ إلى طلَبِ إدخالِهم مَكانَ النَّعيمِ[1].

- وجعَلوا هذه الجُملةَ مَعطوفةً على ما سَبَق لا مُستأنَفةً، أي: لم يَقولوا: (ربَّنا أدخِلْهم)، بل قالوا: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾؛ لتحَقُّقِ ما قبْلَها؛ لأنَّ العَطفَ يَقتضي ثُبوتَ المَعطوفِ عليه وكَوْنَه أصلًا، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا واجمَعْ لهم مع ما سبَقَ أن تُدخِلَهم جنَّاتِ عَدْنٍ[2].

- وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ نوعٌ طَريفٌ مِن أنواعِ البَلاغةِ، وهو ما يعرفُ بـ «الإسجالِ بعدَ المُغالَطةِ»، وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ غَرَضًا مِن مَمدوحٍ، فيأتيَ بألفاظٍ تُقرِّرُ بُلوغَه ذلك الغرَضَ؛ إسجالًا منه على المَمدوحِ به، وبيانُ ذلك: أنْ يَشترِطَ شَرطًا يَلزَمُ مِن وُقوعِه وُقوعُ ذلك الغرَضِ، ثمَّ يُخبِرَ بوُقوعِه مُغالَطةً -وإنْ لم يَكُنْ قد وقَعَ بَعْدُ- لِيَقعَ المَشروطُ، وقد يَقَعُ الإسجالُ لغَيرِ مُغالَطةٍ، وهذا القِسْمُ هو الَّذي يأتي في الكتابِ العزيزِ كثيرًا، ومنه هذه الآيةُ الكريمةُ، حيث سجَّلَ المولى سبحانَه على ألْسِنةِ عِبادِه تحقيقَ مَوعودِه على لِسانِ رَسولِه؛ ففي قولِه: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أنَّ هذا الوعدَ قد أصبح مُبرَمًا لا انفكاكَ لإبرامِه، وهذا هو الغرضُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٥).

الحقيقيُّ مِن الدُّعاءِ للمؤمنينَ؛ فبان بذلك تقريرُ هذا الغرضِ وتأكيدُه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه سَيَفي به لعِبادِه المؤمنينَ في الآخِرةِ كما وعَدَهم[1].

- قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطْفٌ على الضَّميرِ (هُم) الأوَّلِ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، أي: أَدخِلْهُم ومعهم هؤلاءِ؛ لِيَتِمَّ سُرورُهم، ويَتضاعَفَ ابتِهاجُهم، وهو دعاءٌ بأنْ يَجعَلَهمُ اللهُ معهم في مَساكِنَ مُتقارِبةٍ، أو يُمكِنُ أنْ يَكونَ مَعطوفًا على الضَّميرِ الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾؛ لبَيانِ عُمومِ الوعدِ. وقيل: هو عطْفٌ على الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، لكنْ لا بِناءً عَلى الوَعدِ العامِّ للكلِّ كما قيلَ؛ إذْ لا يَبقى حينَئذٍ للعَطفِ وَجْهٌ، بلْ بِناءً على الوعدِ الخاصِّ بهم بقولِه تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] بأنْ يَكونُوا أعلى درجةً مِن ذُرِّيَّتِهم[2].

- ورُتِّبَت القَراباتُ في هذه الآيةِ على ترتيبِها الطَّبيعيِّ؛ فإنَّ الآباءَ أسبَقُ عَلاقةً بالأبناءِ، ثمَّ الأزواجُ، ثمَّ الذُّرِّيَّاتُ[3]. وقيل: قدَّموا الآباءَ؛ لأنَّ الآباءَ أحَقُّ النَّاسِ بالإجلالِ، وقدَّموا الأزواجَ في اللَّفظِ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أشَدُّ إلصاقًا بالشَّخصِ[4].

- وجملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ لِما قَبْلَها، وهي اعتِراضٌ بيْن الدَّعَواتِ؛ استِقصاءً للرَّغبةِ في الإجابةِ بداعي مَحبَّةِ المَلائكةِ لأهلِ

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ١٤٢) و(٨/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧١).

الصَّلاحِ؛ لِما بيْن نُفوسِهم والنُّفوسِ المَلَكيَّةِ مِنَ التَّناسُبِ[١].

- واقتِرانُ هذه الجُملةِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بها، و(إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تُغْني غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ، أي: فعِزَّتُك وحِكمتُك هُما اللَّتانِ جَرَّأَتَانا على سؤالِ ذلك مِن جَلالِك؛ فالعِزَّةُ تَقتَضي الاستِغناءَ عن الانتِفاعِ بالأشياءِ النَّفيسةِ، فلمَّا وعَدَ الصَّالحينَ الجَنَّةَ لم يَكُنْ للهِ ما يَضِنُّه بذلك، فلا يَصدُرُ منه مَطْلٌ، والحِكمةُ تَقتَضي مُعامَلةَ المُحسنِ بالإحسانِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾، أي: امنَعْهُم مِنَ الوُقوعِ فيها؛ حتَّى لا يترتَّبَ عليها جَزاؤُها، أو العُقوباتِ؛ لأنَّ جزاءَ السَّيِّئةِ سيِّئةٌ مِثلُها، أو قِهِمْ جَزاءَ السَّيِّئاتِ الَّتي اجترَحوها؛ فحُذِفَ المُضافُ، وهو تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، أو مَخصوصٌ بالأتْباعِ فعلى هذا يكونُ الدعاءُ الأوَّلُ للمَتْبوعينَ، أو المعاصي في الدُّنيا؛ فقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾، أي: ومَن تَقِها في الدُّنيا فقد رَحِمْتَه في الآخِرةِ، كأنَّهم طَلَبوا السَّببَ بعدَ ما سَألوا المُسبَّبَ[٣].

- لا تَكرارَ في قولِه: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ وقولِه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لعدَمِ توافُقِ المَدعُوِّ؛ إذِ الدُّعاءُ الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

للَّذينَ تابوا، والثَّاني لهم ولِمَن صَلَح مِن المَذكورينَ، أو لاختِلافِ الدُّعائين إذا أُريدَ بالسَّيِّئاتِ أنفُسُها؛ فذلك وِقايةُ عَذابِ الجَحيمِ، وهذا وِقايةُ الوُقوعِ في السَّيِّئاتِ[١].

- وصِيغَتْ كَلِمةُ (سَيِّئة) على وَزنِ فَيْعَلة؛ للمُبالَغةِ في قِيامِ الوَصفِ بالمَوصوفِ، أي: وقِهِمْ مِن كلِّ ما يَسوؤُهم؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ للجِنسِ، وهو صالحٌ لإفادةِ الاستِغراقِ، فوُقوعُه في سِياقِ ما هو كالنَّفيِ -وهو فِعلُ الوِقايةِ- يُفيدُ عُمومَ الجِنسِ، على أنَّ بِساطَ الدُّعاءِ يَقتَضي عُمومَ الجِنسِ ولو بدُونِ لامِ نَفيٍ[٢].

- وقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ تَذييلٌ، أي: وكلُّ مَن وُقِيَ السَّيِّئاتِ يَومَ القِيامةِ فقد نالَتْهُ رحمةُ اللهِ، أي: نالَتْهُ الرَّحمةُ كامِلةً، ففِعلُ ﴿رَحِمۡتَهُۥ﴾ مُرادٌ به تَعظيمُ مَصدَرِه[٣].

- والتَّنوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تَنوينُ العِوَضِ، والمَحذوفُ جُملةٌ عُوِّضَ منها التَّنوينُ، ولم تَتقَدَّمْ جُملةٌ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها؛ فلا بدَّ مِنَ تَقديرِ جُملةٍ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها يدُلُّ عليها معنَى الكلامِ، وهي: ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ -أي: جزاءَها- يَومَ إذْ يُؤاخَذُ بها فقد رَحِمْتَهُ، أو يومَ إذْ تُدخِلُهم جنَّاتِ عدْنٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن معنَى

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٢).

البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ دَرجةِ المُشارِ إليه، مع التَّنويهِ والتَّعظيمِ[١].

- ووُصِفَ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ بـ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ لأنَّه فَوْزٌ بالنَّعيمِ خالِصًا مِن الكُدراتِ الَّتي تَنقُصُ حلاوةَ النِّعمةِ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ فيه احتِباكٌ[٣]؛ فذُكِرَ إدخالُ الجنَّاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على حَذفِ النَّجاةِ مِن النَّارِ ثانيًا، ووِقايةُ السَّيِّئاتِ ثانيًا؛ دَليلًا على التَّوفيقِ للصَّالحاتِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: التَّشويقُ إلى المحبوبِ، وهو الجِنانُ، بعَمَلِ المحبوبِ، وهو الصَّالِحُ، والتَّنفيرُ مِن النِّيرانِ باجتنابِ المَمقوتِ مِن الأعمالِ، وهو السَّيِّئُ؛ فذُكِرَ المُسَبَّبُ أوَّلًا، وحُذِفَ السَّبَبُ؛ لأنَّه لا سَبَبَ في الحقيقةِ إلَّا الرَّحمةُ، وذُكِرَ السَّبَبُ ثانيًا في إدخالِ النَّارِ، وحُذِف المُسَبَّبُ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦، ١٧).

الآيات (١٠-١٤)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمَقْتُ﴾: المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ[(١)].

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما يُقالُ للكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ في النَّارِ، فيقولُ: إنَّ الكافِرينَ يُنادَونَ وهم في النَّارِ: لَبُغْضُ اللهِ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم اليومَ لأنفُسِكم!

ثمَّ يَحكي سبحانَه ما يقولُه الكافرونَ بعدَ أنْ أنزَل بهم عِقابَه، فيقولُ: قالوا: يا رَبَّنا أمَتَّنا موتَتَينِ اثنتَينِ -قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، وعندَ انتِهاءِ آجالِهم-، وأحيَيْتَنا إحيائتَينِ اثنتَينِ -بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ-، فأقرَرْنا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

بذُنوبنا، فهل مِن طريقٍ للخُروجِ مِن النَّارِ؟

فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لِخُروجِكم مِنَ النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ؛ فالقَضاءُ العادِلُ للهِ العَليِّ الكبيرِ.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه وكمالِ قُدرتِه، وعلى رحمتِه بعِبادِه، فيقولُ: وهو وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، ويُنزِلُ لكم رِزقًا مِن السَّماءِ، وما يَتذكَّرُ ويَتَّعِظُ إلَّا مَن يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى؛ فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ ولو كَرِهَ الكافِرونَ ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ المؤمِنينَ؛ ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ الكافِرينَ، وما يَجري لهم في الآخِرةِ؛ مِنِ اعترافِهم بذُنوبِهم، واستِحقاقِهمُ العَذابَ، وسؤالِهمُ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سبحانَه حالَ أصحابِ النَّارِ، وأنَّها حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ، وأنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ذَكَر أحوالَهم بعدَ دُخولِ النَّارِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٤).

أي: إنَّ الكافرين يُنادَونَ وهم في النَّارِ يُعذَّبونَ: لَبُغْضُ اللهِ الشَّديدُ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ، فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم الشَّديدِ اليَومَ لأنفُسِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ [فاطر: ٣٩].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

وجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها: أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ بالبعثِ، فلمَّا دخَلوا النَّارَ مقَتوا أنفُسَهم على ذلك، فأقَرُّوا به حينَئذٍ لِيُرضُوا اللهَ بإقرارِهم حينَئذٍ، فقولُهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إقرارٌ بالبعثِ على أكملِ الوُجوهِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨-١٢٠).

والمعنى المذكورُ في قولِه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مبنيٌّ على أنَّه مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لَمَقْتُ الله إيَّاكم في الدُّنيا على كفرِكم، ويحتملُ أيضًا أن يكونَ المعنى: لَمَقْتُ الله إيَّاكم اليومَ حينَ شاهَدْتُم ما وُعِدْتُم به أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهِرُ أنَّ مَقْتَ اللهِ إيَّاهم هو في الدُّنيا، ويَضْعُفُ أنْ يكونَ في الآخرةِ كما قال بعضُهم؛ لبَقاءِ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُفْلَتًا مِن الكلامِ، لِكَونِه ليس له عاملٌ تَقَدَّم، ولا مُفَسِّرٌ لعاملٍ. فإذا كان المَقْتُ السَّابقُ في الدُّنيا أمْكَنَ أنْ يُضْمَرَ له عاملٌ تقديرُه: مَقْتُكم إذْ تُدْعَوْنَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

ويحتملُ أن يكونَ المَقْتُ مُضافًا إلى مفعولِه لا إلى فاعِلِه، ويكونَ المعنى: لَمَقْتُكم اللهَ حينَ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم اليومَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨).

طمعًا منهم أنْ يَخرجوا عن المَقتِ الَّذي مقَتَهم اللهُ؛ إذ كانوا يُدعَونَ إلى الإسلامِ فيَكفرونَ(١).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾.

أي: قال أولئك الكافِرونَ مِن أهلِ النَّارِ: يا رَبَّنا أمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ -حينَ كانوا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، ثمَّ عندَ انتهاءِ آجالِهم في الدُّنيا-، وأحيَيْتَنا إحياءتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٧٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧، ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٤، ٣٧٥).

وممَّن ذهبَ إلى المعنى المذكورِ هنا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابن تيميَّة، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في معنى قَولِهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾؛ فقال ابنُ مَسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ: كانوا أمواتًا في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ أحياهم، ثمَّ أماتهم المَوتةَ الَّتي لا بدَّ منها في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم للبَعثِ والقيامة؛ فهاتان حياتانِ وموتَتانِ... وقال السُّدِّيُّ: أُميتوا في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم في القبورِ للمسألةِ، ثمَّ أُميتوا، ثمَّ أُحيُوا في الآخرةِ... وقال ابنُ زَيدٍ: خلقَهم في ظَهرِ آدَمَ، وأخرَجهم وأحياهم وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ أماتهم، ثمَّ أحياهم في الدُّنيا، ثمَّ أماتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

أي: فأقرَرْنا بما اقترَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

أي: فهل مِن طَريقٍ أو وَسيلةٍ للخُروجِ مِن النَّارِ(٢)؟

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾.

أي: فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لكم للخُروجِ مِن النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإنْ يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٧-١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (الدُّعاءُ: النِّداءُ، والتَّوجُّهُ بالخِطابِ. وكِلا المعنيَينِ يُستعمَلُ فيه الدُّعاءُ، ويُطلَقُ الدُّعاءُ على العبادةِ... فالمعنى: إذا نُوديَ اللهُ بمَسمَعِكم نداءً دالًّا على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، مِثلُ آياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على نداءِ اللهِ بالوَحدانيَّةِ؛ فالدُّعاءُ هنا: الإعلانُ والذِّكرُ؛ ولذلك قُوبِلَ بقَولِه: ﴿كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾، والدُّعاءُ بهذا المعنى أعَمُّ مِن الدُّعاءِ بمعنى سؤالِ الحاجاتِ، ولكِنَّه يَشمَلُه، أو إذا عُبِدَ اللهُ وَحْدَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾.

أي: فالقَضاءُ العادِلُ بيْنَ العِبادِ للهِ وَحْدَه العَليِّ الذَّاتِ والقَدْرِ والصِّفاتِ؛ القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، العَليِّ عن أن يكونَ له شَريكٌ؛ الكبيرِ، ذي الكِبرياءِ والعَظَمةِ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ فكُلُّ شَيءٍ دُونَه مُتصاغِرٌ له[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٩-١٣٥، ١٤٢).

قال ابن عطية: (فالحكمُ اليومَ بعذابِكم وتخليدِكم في النَّارِ للهِ، لا لتلك التي كنتُم تُشركونها معه في الألوهيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣).

وقال ابن عثيمين: (حكمُ اللهِ ينقسمُ إلى قسمينِ: كونيٍّ وشرعيٍّ، فالكونيُّ ما قضَى به على عبادِه كونًا وتقديرًا، والشرعيُّ ما قضَى به على عبادِه شرعًا وتنظيمًا... وقولُه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾ هنا يشملُ الأمرينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يوجِبُ التَّهديدَ الشَّديدَ في حقِّ المُشرِكينَ؛ أَردَفَه بذِكرِ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وحِكمتِه؛ لِيَصيرَ ذلك دليلًا على أنَّه لا يَجوزُ جَعْلُ الأحجارِ المَنحوتةِ والخُشُبِ المَعبودةِ شُركاءَ للهِ[1].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وكَمالِ صِفاتِه وأفعالِه[2].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٦، ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٦).

قيل: هذه الآياتُ تَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ والقرآنيَّةَ والمعجزاتِ الجاريةَ على أيدي الرُّسلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ بها: الآياتُ الكونيَّةُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقيل: هي الآياتُ الكونيَّةُ، وآثارُ العقوباتِ الَّتي حلَّت بالأقوامِ المُهلَكينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، ووافقه الشنقيطيُّ وزاد عليها معجزاتِ الرُّسلِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧).

وقال السعدي: (يذكرُ تعالى نِعَمَه العظيمةَ على عبادِه، بتبيينِ الحقِّ مِن الباطلِ، بما يُري عِبادَه مِن آياتِه النَّفْسيَّةِ والآفاقيَّةِ والقرآنيَّةِ، الدَّالَّةِ على كلِّ مطلوبٍ مقصودٍ، الموضحةِ للهدى مِن الضَّلالِ، بحيث لا يبقَى عندَ النَّاظِرِ فيها والمُتأمِّلِ لها أدنَى شكٍّ في معرفةِ الحقائقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

ﭐلثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ لأجْلِكم -أيُّها النَّاسُ- رِزقًا مِنَ السَّماءِ(١).

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥].

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

المرادُ بالرِّزقِ هنا: المطَرُ الَّذي تخرُجُ به الزُّروعُ والثِّمارُ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

قال ابنُ عاشور: (تنزيلُ الرِّزقِ مِن السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نَفْسِه آيةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿رِزْقًا﴾ أي: ماءً يكونُ به الرِّزقُ، فالَّذي ينزلُ ماءٌ يكونُ به الرِّزقُ، فهو نفْسُه رزقٌ... وبه يكونُ الرِّزقُ... والثَّمراتُ أرزاقٌ تُؤكلُ، والماءُ رزقٌ يُشربُ، فهو رزقٌ بكلِّ حالٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

وقال ابن عطية: (وتنزيلُ الرزقِ: هو في تنزيلِ المطرِ، وفي تنزيلِ القضاءِ والحُكمِ، بنيلِ ما ينالُه المرءُ في تجارةٍ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠).

أي: وما يَتذكَّرُ بالآياتِ فيَعتَبِرُ ويَتَّعِظُ حينَ يُذكَّرُ بها إلَّا مَن يُنيبُ إلى اللهِ تعالى بالرُّجوعِ عن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ، والإقبالِ على مَحبَّتِه وخَشيتِه، والتَّضَرُّعِ إليه[1].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآياتُ تُثمِرُ التَّذَكُّرَ، والتَّذكُّرُ يُوجِبُ الإخلاصَ لله؛ رَتَّب عليه قَولَه[2]:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا في كُلِّ حالٍ، حتَّى في حالِ كَراهةِ الكافِرينَ إفرادَكم العبادةَ للهِ وَحْدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).

قال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالَى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ هو دعاءُ العبادةِ، والمعنَى: اعبُدُوه وحْدَه، وأَخْلِصوا عِبادَتَه، لا تَعْبُدوا معه غيرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٣).

وقال السعدي: (هذا شامِلٌ لدُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وعن أبي الزُّبَيرِ[١]، قال: ((كان ابنُ الزُّبَيرِ[٢] يَقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا نَعبُدُ إلَّا إيَّاه، له النِّعمةُ وله الفَضلُ، وله الثَّناءُ الحَسَنُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصينَ له الدِّينَ، ولو كَرِهَ الكافِرونَ، وقال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُهَلِّلُ[٣] بِهِنَّ دُبُرَ[٤] كُلِّ صَلاةٍ))[٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ما تَتَغذَّى به الرُّوحُ أهمُّ مما يَتغذَّى به البَدَنُ؛ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾؛ وجْهُ الدلالةِ أنَّه قَدَّمَ إراءةَ الآياتِ على الرِّزْقِ الَّذي يَنزِلُ مِن السَّماءِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه أهَمُّ، وهو كذلك، هذا هو الواقِعُ؛ وذلك لأنَّ فَقْدَ الغذاءِ البدَنيِّ لا يكونُ فيه إلَّا شيءٌ لا بُدَّ منه وهو الموتُ، حتَّى لو كان الإنسانُ في أَنْعَمِ ما يكونُ مِن نعيمِ البَدَنِ وأتْرَفِ ما يكونُ فلا بُدَّ أنْ يموتَ، لكنَّ غذاءَ الرُّوحِ هو الَّذي يَحتاجُ إلى مُعاناةٍ ومُعالَجةٍ؛ وبفَقْدِه يكونُ الهلاكُ في الدُّنيا والآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[٦] [الزمر: ١٥].

٢- في قَولِ الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مُراغَمةُ الكُفَّارِ في الإخلاصِ للهِ وفي العَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ويَنبني

(١) هو محمَّدُ بنُ مُسلِمِ بنِ تَدْرُسَ.

(٢) أي: عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ رضي الله عنهما.

(٣) يُهَلِّلُ: أي: يُعلِنُ بذلك، ويَرفَعُ صَوتَه. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قُرْقُول (٦/ ١٢٧).

(٤) دُبُرَ: أي: عَقِبَها وخَلْفَها، أو في آخِرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٥٦).

(٥) رواه مسلم (٥٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

على ذلك أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقومَ بالواجِبِ ولو كَرِهَ ذلك غَيرُه، ولا يُحابيَ أحَدًا في هذا(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ الكافرين تَبَيَّنَ لهم ما هم عليه مِن الضَّلالِ والكُفرِ حينَ رأَوُا العِقابَ؛ وَجْهُه: أنَّهم مَقَتوا أنفُسَهم في ذلك الوَقتِ حينَ رأَوُا العذابَ، وهذا يدُلُّ على أنَّهم تَبَيَّنَ لهمُ الضَّلالُ في ذلك اليَومِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إثباتُ المَقتِ للهِ تعالى، أي: أنَّ اللهَ يُبغِضُ، والمَقْتُ هو أشَدُّ البُغضِ، والبُغضُ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ الَّتي تَتعَلَّقُ بمَشيئتِه وإرادتِه سبحانه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ أنه لا يَجوزُ الحُكْمُ بالقوانينِ المُخالِفةِ للشَّريعةِ، وهذه الجملةُ تُفيدُ الحصرَ؛ أي: الحُكْمُ للهِ لا لغيرِه(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ فيه إثباتُ العُلُوِّ للهِ عزَّ وجلَّ، فالعليُّ: الذي له العلوُّ المطلَقُ مِن جميعِ الوجوهِ: علوُّ الذَّاتِ- فهو نَفْسُه سُبحانَه وتعالى فوقَ كلِّ شَيءٍ-، وعلوُّ القدْرِ، وعلوُّ القَهرِ(٥).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أهَمُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٩).

المُهِمَّاتِ رِعايةُ مَصالحِ الأديانِ، ومَصالحِ الأبدانِ؛ فهو سُبحانَه وتعالى راعَى مَصالِحَ أديانِ العِبادِ بإظهارِ البَيِّناتِ والآياتِ، وراعَى مصالِحَ أبدانِهم بإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ؛ فمَوقِعُ الآياتِ مِن الأديانِ كمَوقِعِ الأرزاقِ مِن الأبدانِ، فالآياتُ لحياةِ الأديانِ، والأرزاقُ لحياةِ الأبدانِ، وعندَ حُصولِهما يَحصُلُ الإنعامُ على أقوى الاعتِباراتِ، وأكمَلِ الجِهاتِ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ جعَلَه تذَكُّرًا؛ لأنَّه مَركوزٌ في العُقولِ دلائِلُ التَّوحيدِ، ثمَّ قد يَعرِضُ الاشتِغالُ بعبادةِ غَيرِ اللهِ، فيَمنَعُ مِن تجلِّي نورِ العَقلِ، فإذا تاب إلى اللهِ تذَكَّرَ(٢).

٧- إنَّ مِن حكمةِ الله إنزالَ المطرِ مِن السَّماءِ، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ لأنَّ المطرَ إذا نَزَلَ مِن أعلى شَمِلَ قِمَمَ الجبالِ؛ فيَشْمَلُ السَّهْلَ والوَعْرَ والنَّازِلَ والعاليَ، وهذه مِن الحكمةِ أنْ يكونَ المطرُ يَنْزِلُ مِن فوقٍ حتَّى يَشملَ الأرضَ كلَّها(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أكثرَ إنابةً إلى اللهِ كان أقوَى تَذَكُّرًا بالآياتِ؛ لأنَّ الحُكمَ المُعلَّقَ على وصْفٍ يَقوَى بقوَّتِه ويَضْعُفُ بضَعفِه، فإذا كان التَّذَكُّرُ لِمَن يُنيبُ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوَى إنابةً كان أقوى تَذَكُّرًا(٤).

٩- في قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

فمَن تَعَبَّدَ لِغيرِ اللهِ استقلالًا؛ فقد صَرَفَ شيئًا مِن أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ؛ فيَكونُ بذلك مشركًا شركًا أكبرَ، وأمَّا إذا فَعَل العبادةَ للهِ لكنْ رائَى فيها أو سَمَّعَ فهذا لا يكونُ مشركًا شركًا أكبرَ؛ ولكنَّه مشركٌ شركًا أصغرَ، وعبادتُه مردودةٌ عليه؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -فيما رواه عن ربِّه-: ((أنا أغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عملًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾

- مُقابَلةُ سُؤالِ الملائكةِ للمؤمِنينَ بالنَّعيمِ الخالصِ يَومَ القِيامةِ بما يُخاطَبُ به المُشرِكونَ يومَئذٍ مِنَ التَّوبيخِ والتَّنديمِ، وما يُراجِعونَ به مِن طلَبِ العَفوِ؛ مؤْذِنةٌ بتَقديرِ معنَى الوعدِ باستِجابةِ دُعاءِ المَلائكةِ للمؤمنينَ، فطَيُّ ذِكرِ ذلك ضَربٌ مِنَ الإيجازِ، والانتِقالُ منه إلى بَيانِ ما سيَحُلُّ بالمُشرِكينَ يومَئذٍ ضَربٌ مِنَ الأُسلوبِ الحكيمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ الآياتِ مُستأنَفٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سَألَ عن تَقبُّلِ دعاءِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ، فأُجيبَ بأنَّ الأهَمَّ أنْ يَسألَ عن ضِدِّ ذلك. وفي هذا الأُسلوبِ إيماءٌ ورمزٌ إلى أنَّ المُهِمَّ مِن هذه الآياتِ كلِّها هو مَوعظةُ أهلِ الشِّركِ، رُجوعًا إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[2] [غافر: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ التَّقديرُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكم، أو لَمَقْتُ اللهِ أنفُسَكم أكبَرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم، وحُذِف المَفعولُ؛ لدَلالةِ ما بعْدَه عليه في قولِه: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ فاستُغنيَ بذِكرِها مرَّةً. وقيل: مَعناهُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكُمُ الآنَ أكبَرُ مِن مَقتِ بعضِكم لبَعضٍ[1].

- وفي ذِكرِ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ ما يدُلُّ على كلامٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: إنَّ الَّذينَ كَفَروا يَمقُتُهمُ اللهُ ويُنادَونَ: لَمَقْتُ اللهِ... إلخ[2].

- وقولُه: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تعليلٌ للحُكمِ لِما بيْن الظَّرفِ والسَّببِ مِن عَلاقةِ اللُّزومِ، وإنَّما جُعِل ﴿إِذْ﴾ تَعليلًا لا ظَرفًا في هذا الوَجهِ؛ لأنَّهم لم يَمقُتوا أنفُسَهم حينَ دُعُوا إلى الإيمانِ، وإنَّما مَقَتُوها في النَّارِ، وعِندَ ذلك لا يُدْعَونَ إلى الإيمانِ[3].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للعِلمِ بالفاعِلِ؛ لظُهورِ أنَّ الداعيَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو الرُّسُلُ عليهِمُ السَّلامُ[4]، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ لِظُهورِ دَلائِله ينبغي أن يُقبَلَ مِن أيِّ داعٍ كان[5].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿تُدْعَوْنَ﴾ و(تَكْفُرُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥، ٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧).

دَعوتِهم إلى الإيمانِ، وتَكرُّرِ كُفرِهم، أي: تَجَدُّدِه[(١)].

- وتَفريعُ ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ بالفاءِ على ﴿تُدْعَوْنَ﴾ يُفيدُ أنَّهم أعقَبوا الدَّعوةَ بالكُفرِ، أيْ: بتَجديدِ كُفرِهمُ السَّابِقِ، وبإعلانِه، أيْ: دُونَ أنْ يَتمَهَّلوا مُهلةَ النَّظرِ والتَّدبُّرِ فيما دُعُوا إليه[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ جوابٌ عن النِّداءِ الَّذي نُودُوا به مِن قِبَلِ اللهِ تعالى؛ فحَكَى مَقالَهم على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ بحَذفِ حرفِ العَطفِ، طَمِعوا أنْ يَكونَ اعترافُهم بذُنوبِهم وَسيلةً إلى مَنحِهم خُروجًا مِنَ العَذابِ خُروجًا ما لِيَستريحوا منه ولو بعضَ الزَّمنِ؛ وذلك لأنَّ النِّداءَ المُوَجَّهَ إليهم مِن قِبَلِ اللهِ أَوْهَمَهم أنَّ فيه إقبالًا عليهم[(٣)].

- وانتصَبَ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمَفعولٍ مُطْلَقٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: مَوتَتَينِ اثنتَينِ، وإحياءَتَينِ اثنتَينِ[(٤)].

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ المقصودُ مِنَ الاعتِرافِ هو اعترافُهم بالحياةِ الثَّانيةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونَها، وأمَّا المَوْتَتان والحياةُ الأُولى فإنَّما ذُكِرْنَ إدماجًا[(٥)]؛ للاستِدلالِ في صُلبِ الاعتِرافِ تَزَلُّفًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٨).

(٥) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن =

منهم، أيْ: أيْقَنَّا أنَّ الحياةَ الثَّانيةَ حَقٌّ، وذلك تَعريضٌ بأنَّ إقرارَهم صِدقٌ لا مُواربةَ فيه ولا تَصَنُّعَ؛ لأنَّه حاصِلٌ عن دليلٍ؛ ولذلك جُعِلَ مُسَبَّبًا على هذا الكلامِ بعطْفِه بفاءِ السَّببيَّةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾؛ فإنَّهم لَمَّا رأَوُا الإماتةَ والإحياءَ قد تَكرَّرَا عليهم، عَلِموا بأنَّ اللهَ قادرٌ على الإعادةِ قُدرتَه على الإنشاءِ، فاعتَرَفوا بذُنوبِهمُ الَّتي اقتَرَفوها مِن إنكارِ البَعثِ وما تَبِعَه مِن مَعاصيهم[1].

- وتَفرَّعَ قَولُهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ على قَولِهم: ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ باعتبار أنَّ إحدى الإحياءتَينِ كانتِ السَّببَ في تَحقُّقِ ذُنوبِهمُ الَّتي مِن أُصولِها إنكارُهمُ البَعثَ، فلمَّا رأَوُا البَعثَ رأْيَ العَينِ أيْقَنوا بأنَّهم مُذنِبونَ إذْ أنْكَروهُ، ومُذنِبونَ بما استَكثَروهُ مِنَ الذُّنوبِ؛ لاغتِرارِهم بالأمنِ مِنَ المؤاخَذةِ عليهم بعدَ الحياةِ العاجِلةِ[2].

- وجُملةُ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ إنشاءُ إقرارٍ بالذُّنوبِ؛ ولذلك جيءَ فيه بالفِعلِ الماضي كما هو غالِبُ صِيَغِ الخَبَرِ المُستعمَلِ في الإنشاءِ، والمعنى: نَعترِفُ

= مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

بذُنوبِنا. وجَعَلوا اعتِرافَهم بذُنوبِهم ضَربًا مِنَ التَّوبةِ، تَوَهُّمًا منهم أنَّ التَّوبةَ تَنفَعُ يَومَئذٍ؛ فلذلك فرَّعوا عليه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العَرضِ والاستِعطافِ كُلِّيًّا لرَفعِ العَذابِ[(١)].

- وفي هذا الاستِفهامِ ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ يَأسٌ مُقنِطٌ، واستِحالةٌ مُفرِطةٌ، كأنَّهم لفَرطِ ما يُكابِدونَه يَتَمَنَّوْنَ الخروجَ مِن هذا الأسى المُطبِقِ مِنَ الهَولِ المُستحكِمِ، ولكنْ أيُّ تَمَنٍّ؟ إنَّه تَمنِّي مَن غلَبَ عليه اليأسُ والقُنوطُ؛ ولهذا جاء الجوابُ على حسَبِ ذلك، وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]، ومَعناهُ: أنَّ السَّببَ يَعودُ إلى كُفرِكم، فلا تَطمَعوا في زَوالِ ما أنتم فيه؛ لأنَّه جَريرتُكم، وعلى أنفُسِكم تَقَعُ المَلامةُ. وقيل: قالوا ذلك على نحوٍ فيه نوعُ استِبعادٍ للخروجِ مِنَ النَّارِ واستِشعارِ يأسٍ منه، لا أنَّهم قالوه بطَريقِ القُنوطِ البَحتِ، وإنَّما يَقولونَ ذلك تَعَلُّلًا وتَحَيُّرًا[(٢)].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ حرفُ (مِنْ) زائدٌ لتَوكيدِ العُمومِ الَّذي في النَّكِرةِ؛ ليُفيدَ تَطَلُّبَهم كلَّ سبيلٍ للخُروجِ[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿خُرُوجٖ﴾ و﴿سَبِيلٖ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ تَلَطُّفًا في السُّؤالِ، أيْ: إلى شَيءٍ مِنَ الخروجِ قليلٍ أو كثيرٍ، سواءٌ أكان سريعًا أمْ بطيئًا. أو التَّنكيرُ للإبهامِ، أيْ: مِن سبيلٍ ما كَيْفَما كان، بحقٍّ أو بعَفْوٍ، بتخفيفٍ أو غَيرِ ذلك؛ لأنَّ كلَّ خروجٍ يَنتفِعونَ به راحةٌ مِنَ العَذابِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ...﴾ جوابٌ لهم باستِحالةِ حُصولِ ما يَرجُونَه، ببَيانِ ما يُوجِبُها مِن أعمالِهمُ السَّيِّئةِ. وعدَلَ عن جَوابِهم بالحِرمانِ مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ إلى ذِكرِ سَبَبِ وُقوعِهم في العَذابِ، وإذْ قد كانوا عالِمينَ به حينَ قالوا: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١]؛ كانت إعادةُ التَّوقيفِ عليه بعْدَ سؤالِ الصَّفحِ عنه كِنايةً عنِ استِدامتِه، وعدَمِ استِجابةِ سُؤالِهمُ الخروجَ منه، على وَجهٍ يُشعِرُ بتَحقيرِهم، وزِيدَ ذلك تحقيقًا بقولِه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾(١).

- والباءُ في ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: بسَببِ كُفرِكم إذا دُعيَ اللهُ وحْدَه، وضميرُ ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو مُفَسَّرٌ بما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ فالسَّببُ هو مَضمونُ القِصَّةِ الَّذي حاصِلُ سَبكِه: بكُفرِكم بالوَحدانيَّةِ وإيمانِكم بالشِّركِ. و﴿إِذَا﴾ مُستعمَلةٌ هنا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ دُعاءَ اللهِ واقِعٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك كُفرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ، فالدُّعاءُ الَّذي مَضى مع كُفرِهم به كان سبَبَ وُقوعِهم في العَذابِ(٢).

- ومَجيءُ ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ مؤوَّلٌ بالماضي، بقَرينةِ ما قَبْلَه. وإيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ؛ لدَلالتِهما

= عاشور)) (٢٤/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

على تكرُّرِ ذلك منهم في الحَياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ لتكرُّرِه أثرًا في مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ جيءَ في الشَّرطِ الأوَّلِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ الَّتي الغالِبُ في شَرطِها تَحقُّقُ وُقوعِه؛ إشارةً إلى أنَّ دُعاءَ اللهِ وحْدَه أمْرٌ مُحقَّقٌ بيْنَ المؤمنينَ لا تَخْلو عنه أيَّامُهم ولا مَجامِعُهم، معَ ما تُفيدُ ﴿إِذَا﴾ مِنَ الرَّغبةِ في حُصولِ مَضمونِ شَرطِها. وجيءَ في الشَّرطِ الثَّاني بحرفِ (إنْ) الَّتي أصْلُها عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ شَرطِها، أو أنَّ شَرْطَها أمرٌ مَفروضٌ، مع أنَّ الإشراكَ مُحقَّقٌ؛ تَنزيلًا للمُحقَّقِ مَنزلةَ المَشكوكِ المَفروضِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ دَلائلَ بُطلانِ الشِّركِ واضِحةٌ بأدْنى تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ، فنُزِّلَ إشراكُهمُ المُحقَّقُ مَنزلةَ المَفروضِ؛ لأنَّ المَقامَ مُشتمِلٌ على ما يَقلَعُ مَضمونَ الشَّرطِ مِن أصْلِه، فلا يَصلُحُ إلَّا لفَرْضِه، على نَحوِ ما يُفرَضُ المَعدومُ مَوجودًا، أو المُحالُ مُمكِنًا[٢].

- وأيضًا في إيرادِ ﴿إِذَا﴾ وصِيغةِ الماضي في الشَّرطيَّةِ الأُولى، و(إنْ) وصِيغةِ المُضارِعِ في الثَّانيةِ ما لا يَخْفى مِنَ الدَّلالةِ على كَمالِ سوءِ حالِهم[٣].

- ومُتعلَّقُ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ و﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَهما، والتَّقديرُ: كَفَرْتُم بتَوحيدِه وتؤمِنوا بالشُّركاءِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الألِفُ واللَّامُ في (الحُكم) للجِنسِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، أي: جِنسُ الحُكمِ مِلكٌ للهِ، وهذا يُفيدُ قَصْرَ هذا الجِنسِ على الكَونِ للهِ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[(١)]؛ إذْ لا حُكمَ يومَ القِيامةِ لغَيرِ اللهِ تعالى[(٢)].

- وإيثارُ صِفتَيِ ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ مَعْناهما مُناسِبٌ لحِرمانِهم مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ، أي: لعدَمِ نَقضِ حُكمِ اللهِ عليهم بالخُلودِ في النَّارِ؛ فهو العَليُّ، ومِن جملةِ ما يَقتَضيه ذلك تَمامُ العِلمِ، وتَمامُ العَدلِ؛ فلذلك لا يَحكُمُ إلَّا بما تَقتَضيه الحِكمةُ والعَدلُ، ووَصْفُ الكبيرِ كذلك[(٣)]، فالكبيرُ: الَّذي له الكبرياءُ والعَظَمةُ والمَجدُ، في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، المُتَنَزِّهُ عن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقصٍ، فإذا كان الحُكمُ له تعالى، وقد حكَم عليكم بالخلودِ الدَّائمِ؛ فحُكمُه لا يُغيَّرُ ولا يُبدَّلُ[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾

---

(١) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على أنَّ الحُكمَ له سبحانه[(١)].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقًا﴾ تَنزيلُ الرِّزقِ مِنَ السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نفْسِه آيةٌ أُدمِجَ معها امتِنانٌ؛ ولذلك عُقِّبَ الأمْرانِ بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[(٢)].

- وإفرادُ إنزالِ الرِّزقِ بالذِّكرِ -مع كَونِه مِن جملةِ الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرتِه تعالى-؛ لتَفرُّدِه بعُنوانِ كَونِه مِن آثارِ رحمتِه وجَلائلِ نِعمتِه الموجِبةِ للشُّكرِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقًا﴾ تقديمُ ﴿لَكُم﴾ على مَفعولِ (يُنَزِّلُ) وهو ﴿رِزۡقًا﴾؛ لكمالِ الامتِنانِ بأنْ جعَلَ تَنزيلَ الرِّزقِ لأجْلِ النَّاسِ، ولو أُخِّرَ المَجرورُ لَصارَ صِفةً لـ ﴿رِزۡقًا﴾؛ فلا يُفيدُ أنَّ التَّنزيلَ لأجْلِ المُخاطَبينَ، بلْ يُفيدُ أنَّ الرِّزقَ صالحٌ للمُخاطَبينَ، وبيْنَ المَعنَيَينِ بَوْنٌ بعيدٌ؛ فكان تَقديمُ المَجرورِ في التَّرتيبِ على مَفعولِ الفِعلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ حقَّ المَفعولِ أنْ يَتقدَّمَ على غَيرِه مِن مُتعلِّقاتِ الفِعلِ، وإنَّما خُولِفَ الظَّاهِرُ لهذه النُّكتةِ اللَّطيفةِ[(٤)].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُرِيكُمۡ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ تدُلُّ على أنَّ المُرادَ إراءَةٌ مُتجدِّدةٌ وتَنزيلٌ مُتجدِّدٌ، وإنَّما يَكونُ ذلك في الدُّنيا؛ فتَعَيَّنَ أنَّ الخِطابَ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

مُستأنَفٌ مُرادٌ به المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وليس مِن بَقيَّةِ خِطابِ المُشرِكينَ في جَهنَّمَ، ويَزيدُ ذلك تأييدًا قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(١) [غافر: ١٤].

- وعُدِّيَ فِعلَا (يُري) (ويُنزِّلُ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ وهُمُ المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّهمُ الَّذينَ انتَفَعوا بالآياتِ فآمَنوا، وانتَفَعوا بالرِّزقِ فشَكَروا بالعملِ بالطَّاعاتِ، فجعَلَ غيرَهم بمَنزِلةِ غَيرِ المَقصودينَ بالآياتِ؛ لأنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ ولذلك ذُيِّلَتْ إراءةُ الآياتِ وإنزالُ الرِّزقِ لهم بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: مَن آمَنَ ونَبَذَ الشِّركَ؛ لأنَّ الشِّركَ يَصُدُّ أهْلَه عن الإنصافِ، وإعمالِ النَّظَرِ في الأدِلَّةِ(٢).

- وفي التَّعبيرِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنابةَ المُحصِّلةَ للمَطلوبِ هي الإنابةُ المُتجدِّدةُ المُتكرِّرةُ، وإذْ قد كان المُخاطَبونَ مُنيبينَ إلى اللهِ كان قولُه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ دالًّا بدَلالةِ الاقتِضاءِ على أنَّهم رأَوُا الآياتِ واطْمأنُّوا بها، وأنَّهم عَرَفوا قَدْرَ النِّعمةِ وشَكَروها؛ فكان بيْنَ الإنابةِ وبيْنَ التَّذكُّرِ تَلازُمٌ عاديٌّ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تَذييلٌ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفَصيحةُ، أي: إذا كان الأمرُ كما ذُكِر

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧، ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فادْعُوا، وهو تَفريعٌ على ما شاهَدوا مِنَ الآياتِ، وما أُفيضَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وعلى أنَّهم المُرْجَونَ للتَّذَكُّرِ، والمعنى: أنَّ اللهَ أَراكُم آياتِه، وأَنزَلَ لكمُ الرِّزقَ، وما يَتذَكَّرُ بذلك إلَّا المُنيبونَ، وأنتم منهم، فادْعُوا اللهَ مُخلِصينَ؛ لتَوَفُّرِ دَواعي تلك العِبادةِ[١].

- والأمرُ بالدُّعاءِ هنا مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ المؤمنينَ قد دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له، فالمَقصودُ: دُوموا على ذلك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك مِنَ المؤمِنينَ تَكونُ سَببًا لِمُحاوَلتِهم صَرْفَهم عن ذلك بكلِّ وَسيلةٍ يَجِدونَ إليها سبيلًا، فيُخشى ذلك أنْ يَفتِنَ فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، فالكراهيةُ كِنايةٌ عن المُقاوَمةِ والصَّدِّ؛ لأنَّهما لازِمانِ للكَراهيةِ؛ لأنَّ شأنَ الكارِهِ ألَّا يَصبِرَ على دَوامِ ما يَكرَهُه[٢].

- قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ الكلامَ تَفريعٌ لاستِجدادِ غَرَضٍ آخَرَ، فجُعِل مُستقِلًّا عمَّا قَبْلَه[٣].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (لَوْ) وَصْليَّةٌ تُفيدُ أنَّ شَرْطَها أقصَى ما يَكونُ مِنَ الأحوالِ الَّتي يُرادُ تَقييدُ عامِلِ الحالِ بها، أيْ: اعْبُدوه في كلِّ حالٍ حتَّى في حالِ كَراهيةِ الكافِرينَ ذلك؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك -والمؤمِنونَ بيْنَ ظَهرانَيْهِم وفي بلدٍ فيه سُلْطانُ الكافِرينَ- مَظِنَّةٌ لأنْ يَصُدَّهم ذلك عن دُعاءِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٥-١٧)

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: أي: العَلِيُّ الأعلَى، مُرتفِعُ الدَّرَجاتِ، وأصلُ (رفع): يدُلُّ على خلافِ الوضعِ. وأصلُ (درج): يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضِيِّ في الشَّيءِ[١].

﴿ٱلرُّوحَ﴾: أي: الوحْيَ، وسُمِّيَ الوحْيُ رُوحًا؛ لأنَّ حياةَ القُلوبِ والأرواحِ به، كما أنَّ حياةَ الأبدانِ بالأرواحِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسْحةٍ واطِّرادٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى مِن جلالِه وكمالِه وعَظَمتِه ما يَقْتضي إخلاصَ العبادةِ له، فيقولُ: اللهُ هو العَليُّ الأعلَى، صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، يُنزِّلُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وهم الرُّسلُ؛ لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ بعضَ أحوالِ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: وهو اليَومُ الَّذي يَبرُزُ فيه

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٣، ٢٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).

النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم في صَعيدٍ واحِدٍ، لا يَخفَى على اللهِ مِنَ النَّاسِ شَيءٌ.

ثُمَّ يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: للهِ الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ، اليَومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَ، لا ظُلْمَ اليَومَ؛ إنَّ اللهَ سَريعٌ حِسابُه لِعبادِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ مِن صِفاتِ كِبريائِه وإكرامِه كَوْنَه مُظهِرًا للآياتِ، مُنزِلًا للأرزاقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ ثَلاثةً أُخرى مِن صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ، وهو قَولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]؛ ذكَرَ مِن جَلالِه وكَمالِه ما يَقتَضي إخلاصَ العِبادةِ له، فقال[2]:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

أي: هو العَلِيُّ الأعلى فَوقَ السَّمَواتِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩، ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلۡمَعَارِجِ ۞ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾.

أي: صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، العالي على جَميعِ المخلوقاتِ، وقد استَوى عليه استواءً يَليقُ بعَظَمتِه وجَلالِه(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: يُنزِّلُ اللهُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه(٢) ....

= قال السعدي: (﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: العَلِيُّ الأعلَى، الَّذي استوى على العرشِ واختصَّ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وقال ابن عثيمين: (وتفسيرُ الآيةِ المُتعيِّنُ أن نقولَ: إنَّه رفيعُ الدَّرَجاتِ، أي: هو نفْسُه عزَّ وجلَّ مُرتفِعٌ، بل رفيعُ الدَّرَجاتِ، أتى بالصِّفةِ المُشَبَّهةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

وقيل: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: رافِعُ السَّمواتِ السَّبْعِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والكَلْبيُّ. وقيل: معناه: عظيمُ الصِّفاتِ، قاله ابنُ زيادٍ. وقيل: هو رَفْعُه دَرَجاتِ أوليائِه، قاله يحيى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٧).

وأنكَر ابنُ عثيمينَ تفسيرَ ذلك بعظيمِ الصِّفاتِ، أو رافِعِ دَرَجاتِ المؤمنينَ، وجعَله مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

(٢) قال السعدي: (﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحيَ الذي للأرواحِ والقلوبِ بمنزلةِ الأرواحِ للأجسادِ، فكما أنَّ الجسَدَ بدونِ الرُّوحِ لا يحيا ولا يعيشُ، فالرُّوحُ والقلبُ بدونِ روحِ الوَحْيِ لا يصلُحُ ولا يُفلِحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). =

على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهم الرُّسُلُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

أي: لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ[(٢)].

= وقال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: مِن قضائِه. قاله ابن عباس. والثاني: بأمْرِه. قاله مقاتل. والثالث: مِن قَولِه تعالى. ذَكَره الثعلبي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢).

قال مقاتلٌ: (بإذنه)، وفي سورةِ (النحل) في قولِه تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾[النحل: ٢] قال: (بأمرِه) وممن اختار أنَّ المرادَ: بأمرِه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٥٩) و(٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: مِن قَولِه وكلامِه تعالى: الثعلبي، والقرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المُنذِرَ هو الرَّسولُ: ابن جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابن عثيمين: (الرَّسولُ لا شَكَّ أنَّه هو المنذرُ مُباشَرةً، ويحتَمِلُ أنَّ الفاعِلَ يعودُ على فاعِلِ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: لِيُنذِرَ اللهُ. والحِكمةُ مِن عَدَمِ ذِكرِ الفاعِلِ -واللهُ أعلَمُ- =

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم ظاهِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

= لِيَصلُحَ الفِعلُ للأمرَينِ، أي: لِيَكونَ صالِحًا لأنْ يعودَ الإنذارُ إلى اللهِ، وأن يعودَ إلى الرَّسولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦١) بتصرف.

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ يوم القيامةِ حَذَّر منه عبادَه. وقال ابنُ جريج: قال ابنُ عبَّاسٍ: يلتقي فيه آدَمُ وآخِرُ ولَدِه. وقال ابنُ زيد: يلتقي فيه العِبادُ. وقال قتادةُ والسُّدِّي، وبلالُ بنُ سعد، وسُفيانُ بن عيينة: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. وقال قتادةُ أيضًا: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرض، والخالِقُ والخَلْقُ. وقال ميمونُ ابنُ مِهرانَ: يلتقي فيه الظَّالمُ والمظلومُ. وقد يُقالُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو يَشمَلُ هذا كُلَّه، ويَشمَلُ أنَّ كُلَّ عاملٍ سيلقى ما عَمِلَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. كما قاله آخَرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥-١٣٦).

وقال ابن عثيمين: (... ولو قلنا بمعنًى أعمَّ: لِتَلاقي الخلائقِ في ذلك اليومِ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُلاقيه الآخَرُ حتى الوحوشَ؛ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ فسُمِّي يومَ التلاقي؛ لِتَلاقي الخلق فيه، يَحشُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ الخلائقَ كلَّها في ذلك اليومِ فيتلاقَونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

أي: لا يَخفَى على اللهِ مِن النَّاسِ شَيءٌ مِن ذَواتِهم وأحوالِهم، وظواهِرِهم وبواطِنِهم[(١)].

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: للهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له في مُلكِه، ولا مِثْلَ له في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ؛ فكُلُّ ما سِواه خاضِعٌ له[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ اتَّفَقوا على أنَّ هذا يقولُه الله عزَّ وجلَّ بعدَ فَناءِ الخلائق). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلَ والمُجيبَ هو اللهُ تعالى: ابنُ جرير، والواحديُّ -ونَسَبَه لجماعةِ المفَسِّرينَ-، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، وعَطاءٌ، وشَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ، ومحمَّدُ ابنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٣٦)، ((الأهوال)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦).

وقيل: إنَّ الخلائقَ كلَّهم يُجيبونَه فيقولونَ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، قاله ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وقال الرازي: (لا يَبعُدُ أن يكونَ... السَّائِلُ جَمعًا مِن الملائكةِ، والمُجيبُ جَمعًا آخَرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٠، ٥٠١).
=

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ! أين مُلوكُ الأرضِ؟!))(١).

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّر الله تعالى أنَّ الملكَ لله وحدَه في ذلك اليومِ؛ عدَّد نتائجَ ذلك، وهي أنَّ كلَّ نفسٍ تجزَى ما كسَبتْ، وأنَّ الظُّلمَ مأمونٌ(٢).

وأيضًا لَمَّا شَرَح الله سُبحانَه صِفاتِ القَهرِ في ذلك اليَومِ؛ أردَفَه ببَيانِ صِفاتِ العَدلِ والفَضلِ في ذلك اليَومِ(٣).

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن إذعانِ كُلِّ نَفْسٍ بانقِطاعِ الأسبابِ؛ أخبَرَهم بما يَزيدُ رُعبَهم، ويَبعَثُ رَغَبَهم ورَهَبَهم، وهو نتيجةُ تفَرُّدِه بالمُلْكِ، فقال(٤):

= وقال النَّحَّاس: (أصَحُّ ما قيل فيه: ما رواه أبو وائلٍ عن ابنِ مَسعودٍ، قال: يُحشَرُ النَّاسُ على أرضٍ بَيضاءَ مِثلِ الفِضَّةِ، لم يُعصَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ عليها، فيُؤمَرُ مُنادٍ أن يُناديَ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ؟ فهذا قَولٌ بيِّنٌ، فأمَّا أن يكونَ هذا والخَلقُ غيرُ موجودينَ فبعيدٌ؛ لأنَّه لا فائدةَ فيه. والقَولُ الأوَّلُ صَحيحٌ عن ابنِ مَسعودٍ، وليس هو ممَّا يُؤخَذُ بالقياسِ، ولا بالتَّأويلِ. والمعنى على قولِه: فيُنادي منادٍ يومَ القيامةِ؛ لِيُقرِّرَ النَّاسَ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيَقولُ العِبادُ مُؤمِنُهم وكافِرُهم: لله الواحِدِ القهَّارِ! فيَقولُ المؤمنونَ هذا سرورًا وتَلْذاذًا، ويقولُ الكافِرونَ هذا رَغمًا وانقيادًا وخُضوعًا). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢١، ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٠).

(١) رواه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

أي: اليومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَه في الدُّنيا جزاءً مُناسِبًا لعَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥].

﴿لَا ظُلْمَ﴾.

أي: لا ظُلْمَ يومَ القيامةِ على أحَدٍ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلا يُعاقَبُ أحَدٌ بذَنْبِ غَيرِه، ولا يُعاقَبُ بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، ولا يُزادُ في سَيِّئاتِه شَيءٌ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارَك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نفْسي، وجعَلْتُه بيْنكم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَموا))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: لا ظُلمَ واقِعٌ مِن الله، ولا ظُلمَ واقِعٌ مِن الخَلقِ بَعضِهم لبَعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو سُرعةٍ بالِغةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه يومَ القيامةِ على ما عَمِلوا في الدُّنيا(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ: إنَّ الله ذو سرعةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه، وأنَّ الحسابَ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه حسابٌ عن حسابٍ، فيُحاسِبُ الخَلْقَ كلَّه في وقتٍ واحدٍ كما يُحاسِبُ نفْسًا واحدةً، وهو أسرَعُ الحاسِبينَ، فلا يَحتاجُ إلى تفكُّرٍ كما يَحتاجُه غيرُه: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).
وقال السعدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لا تَستَبْطِئوا ذلك اليومَ؛ فإنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وهو أيضًا سريعُ المُحاسَبةِ لعِبادِه يومَ القيامةِ؛ لإحاطةِ عِلمِه، وكمالِ قُدرتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).
وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (إبراهيمَ)، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، قال: (يحتملُ أنْ يكونَ كقولِه تعالَى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتملُ أنَّه في حالِ مُحاسَبتِه لعبدِه سريعُ النَّجازِ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه خافيةٌ، وإنَّ جميعَ الخلقِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه كالواحدِ منهم، كقولِه تعالَى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ: سَرِيعُ الْحِسَابِ إحصاءً. ويحتملُ أنْ يكونَ المَعْنَيانِ مُرادَينِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣).
واختار ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (النُّور)، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] أنَّ المعنيَينِ مُرادانِ؛ الأوَّلُ: قُرْبُ وقتِ المُجازاةِ، فتكونُ السُّرعةُ زَمَنيَّةً، أي: أنَّ حسابَه للعِبادِ قَرُبَ، والثَّاني: إنجازُ الحسابِ، فتكونُ السُّرعةُ عمَليَّةً، أي: أنَّه في مُحاسَبتِه سريعٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ التَّحذيرُ مِن خِزْيِ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه يومُ التَّلاقِ، ولا شَكَّ أنَّ العُقوبةَ إذا كانت لا يَطَّلِعُ عليها إلَّا القَليلُ أهْوَنُ ممَّا إذا اطَّلَع عليها الكثيرُ، فكيف إذا اطَّلَع عليها الخَلقُ كُلُّهم؟! تكونُ أشَدَّ وأعظَمَ[(١)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ إثباتُ صِفَتينِ مِن صِفاتِ اللهِ، دَلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وهما الوَحدانيَّةُ والقَهرُ، ويَترتَّبُ على ذلك مِن النَّاحيةِ المَسلَكيَّةِ أنَّ الإنسانَ إذا اعتقَدَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى واحِدٌ، لم يَلتَفِتْ إلى أحَدٍ سِواه، وإذا اعتَقَد أنَّ اللهَ قَهَّارٌ خاف مِن قَهْرِه، واستعان بقَهرِه على عَدُوِّه[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه تَرجيةٌ للفَريقَينِ وتَخويفٌ؛ لأنَّ الظَّالِمَ يَخشى إسراعَ الأخذِ بالعَذابِ، والمؤمِنَ يَرجو إسراعَ البَسطِ بالثَّوابِ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ الذَّاتِ؛ ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٤)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ النُّبُوَّةَ غَيرُ مُكتَسَبةٍ؛ لأنَّه جيءَ بفِعلِ الإلقاءِ، وبكَونِ الرُّوحِ من أمْرِه في قَولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، وبصِلةِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ فآذَنَ بأنَّ ذلك بمَحضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩، ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

اختِيارِه وعِلْمِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١) [الأنعام: ١٢٤]، فهي فَضْلٌ مِن اللهِ سبحانَه وتعالى على مَن يشاءُ مِن عبادِه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إثباتُ الحكمةِ للهِ تعالى؛ وأنَّ أفعالَه سبحانَه مقرونةٌ بالحكمةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾، واللَّامُ لِلتَّعليلِ(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ ذِكْرُ هذا الكَلامِ في هذا الموضِعِ لائِقٌ جِدًّا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّه لا ظُلْمَ؛ بيَّنَ أنَّه سَريعُ الحِسابِ، وذلك يدُلُّ على أنَّه يَصِلُ إليهم ما يَستَحِقُّونَه في الحالِ(٤).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ تأخيرَ القَضاءِ بالحَقِّ بعدَ تَبيُّنِه للقاضي، بدونِ عُذرٍ: ضَربٌ مِن ضُروبِ الجَورِ؛ لأنَّ الحَقَّ إن كان حَقَّ العبادِ فتأخيرُ الحُكم لصاحِبِ الحَقِّ إبقاءٌ لحَقِّه بيَدِ غَيرِه، ففيه تَعطيلُ انتِفاعِه بحَقِّه بُرهةً مِن الزَّمانِ، وذلك ظُلمٌ، ولَعَلَّ صاحِبَ الحَقِّ في حاجةٍ إلى تَعجيلِ حَقِّه لِنَفعٍ مُعَطَّلٍ، أو لِدَفعِ ضُرٍّ جاثمٍ، ولَعَلَّه أن يَهلِكَ في مُدَّةِ تأخيرِ حَقِّه، فلا ينتَفِعَ به، أو لعَلَّ الشَّيءَ المحكومَ به يَتلَفُ بعارِضٍ أو قَصدٍ، فلا يَصِلُ إليه صاحِبُه بَعْدُ. وإن كان الحَقُّ حَقَّ اللهِ كان تأخيرُ القَضاءِ فيه إقرارًا للمُنكَرِ(٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧، ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢، ١١٣).

عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

- قولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خَبَرانِ آخَرانِ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]، وقولُه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ خبرٌ آخَرُ، مُنبِئٌ عن إنزالِ الرِّزقِ الرُّوحانِيِّ -الَّذي هُو الوحيُ- بعدَ بَيانِ إنزالِ الرِّزقِ الجُسمانيِّ -الَّذي هُو المطرُ-، أي: يُنزِلُ الوحيَ الجاريَ مِن القلوبِ مَنزلةَ الرُّوحِ مِنَ الأجسادِ[١].

- والإلقاءُ: حَقيقتُه رمْيُ الشَّيءِ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، ويُعبَّرُ به عن الإعطاءِ إذا كان غيرَ مُترقَّبٍ، وعُبِّرَ به هنا عن الوحْيِ؛ لأنَّه يَجِيءُ فَجأةً على غيرِ تَرقُّبٍ، كإلْقاءِ الشَّيءِ إلى الأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ تَخلُّصٌ مِن ذِكرِ النُّبوَّةِ إلى النِّذارةِ بيَومِ الجزاءِ؛ لِيَعودَ وصْفُ يومِ الجزاءِ الَّذي انقطَعَ الكلامُ عليه مِن قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]... إلخ[٣].

- والضَّميرُ المُستترُ في ﴿لِيُنذِرَ﴾ قيل: إنَّه عائدٌ إلى اسمِ الجلالةِ مِن قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ [غافر: ١٤]، وقيل: الأحسَنُ أنْ يعودَ على ﴿مَن﴾ المَوصولةِ مِن قولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: لِيُنذِرَ مَن أَلْقى عليه الرُّوحَ قومَه، ولأنَّ فيه تَخلُّصًا إلى ذِكرِ الرَّسولِ الأعظَمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي هو بصَددِ الإنذارِ دونَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا؛ إذ لا تُلائمُهم صِيغةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٨).

المضارعِ، ولأنَّه مُرجِّحٌ لإظهارِ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾(١).

- و﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمَّا ظرفٌ للمفعولِ الثَّاني لـ (يُنْذِرَ)، وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِظُهورِه، أي: لِيُنذِرَ النَّاسَ العذابَ يومَ التَّلاقِ، وهو يومُ القِيامةِ؛ لأنَّه يَتلاقَى فيهِ الأرواحُ والأجسامُ وأهلُ السَّمواتِ والأرضِ، أو هو المفعولُ الثَّاني اتِّساعًا، أوْ أصالةً؛ فإنَّه مِن شِدَّةِ هَولِه وفَظاعتِه حَقيقٌ بالإنذارِ أصالةً(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

- جملةُ ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ استئنافٌ لِبَيانِ بُروزِهم، وتَقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يَتوهَّمُه المتوهِّمونَ في الدُّنيا مِن الاستتارِ تَوهُّمًا باطلًا؛ بأنَّهم إذا استَتَروا بالحيطانِ والحُجُبِ: أنَّ اللهَ لا يَراهم ويَخْفى عليه أعمالُهم! فهم اليومَ صائرونَ مِن البُروزِ والانكشافِ إلى حالٍ لا يَتوهَّمون فيها مِثلَ ما كانوا يَتوهَّمونَه، والمعنى: أنَّهم واضحةٌ ظَواهِرُهم وبَواطِنُهم؛ فإنَّ ذلك مُقْتضى قولِه: ﴿مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾(٣).

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ إظهارَه أصرَحُ؛ لِبُعدِ مَعادِه بما عَقِبَه مِن قولِه: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ولأنَّ ضَميرَ ﴿لِيُنذِرَ﴾ عائدٌ إلى ﴿مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

يَشَآءُ﴾[١]. وذلك على قولٍ.

- ومعنى ﴿مِنۡهُمۡ﴾: مِن مَجموعِهم، أي: مِن مَجموعِ أحوالِهم وشُؤونِهم؛ ولهذا أُوثِرَ ضَميرُ الجمْعِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ الصَّالحِ لِتَقديرِ مُضافٍ مُناسِبٍ للمَقامِ. وأُوثِرَ أيضًا لفظُ ﴿شَيۡءٞ﴾؛ لِتَوغُّلِه في العُمومِ، ولم يقُلْ: لا يَخْفى على اللهِ منهم أحدٌ، أو لا يَخْفى على اللهِ مِن أحدٍ شَيءٌ، أي: مِن أجزاءِ جِسْمِه؛ فالمعنى: لا يَخْفى على اللهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم؛ ظاهِرِها وباطِنِها[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إمَّا تَقريريٌّ؛ لِيَشهَدَ الطُّغاةُ مِن أهْلِ المَحشَرِ على أنفُسِهم أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُخطِئينَ فيما يَزْعُمونَه لأنفُسِهم مِن مُلْكٍ لأصنامِهم حينَ يُضيفونَ إليها التَّصرُّفَ في مَمالِكَ مِن الأرضِ والسَّماءِ، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الاستفهامُ كِنايةً عن التَّشويقِ إلى ما يَرِدُ بعْدَه مِن الجوابِ؛ لأنَّ الشَّأْنَ أنَّ الَّذي يَسمَعُ استِفهامًا يَترقَّبُ جَوابَه، فيَتمكَّنُ مِن نفْسِه الجوابُ عندَ سَماعِه فضْلَ تَمكُّنٍ، على أنَّ حُصولَ التَّشويقِ لا يَفوتُ على اعتبارِ الاستفهامِ للتَّقريرِ[٣].

- قولُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إنَّما خُصَّ التَّقريرُ باليومِ، وإنْ كان المُلْكُ له تَعالى في ذلك اليومِ وفي غَيرِه؛ لِظُهورِ ذلك للكَفَرةِ والجَهَلةِ، ووُضوحِه يومَ القيامةِ[٤].

- وجملةُ ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن بقيَّةِ القولِ المُقدَّرِ الصَّادرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥).

مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ بأنْ يَصدُرَ مِن ذلك الجانبِ استِفهامٌ، ويَصدُرَ منه جَوابُه؛ لأنَّه لَمَّا كان الاستِفهامُ مُستعمَلًا في التَّقريرِ أو التَّشويقِ، كان مِن الشَّأنِ أنْ يَتولَّى النَّاطقُ به الجوابَ عنه، ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، أي: فيقولُ المَسؤولونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ؛ إقرارًا منهم بذلك، والتَّقديرُ: فيقولُ البارزونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ، فتَكونَ مُعترِضةً(١).

- وذِكْرُ الصِّفتَينِ ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ دونِ غَيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلَى؛ لأنَّ لِمَعْنَيَيْهِما مَزيدَ مُناسَبةٍ بقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ حيثُ شُوهِدَت دَلائلُ الوَحدانيَّةِ للهِ، وقَهْرُه جميعَ الطُّغاةِ والجبَّارينَ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لَمَّا تَقرَّرَ أنَّ المُلْكَ للهِ وحْدَه في ذلك اليومِ بمَجموعِ الجُملتَينِ السَّابقتَينِ؛ عُدِّدَت آثارُ التَّصرُّفِ بذلك المُلْكِ، وهي الحُكْمُ على العِبادِ بنَتائجِ أعمالِهم، وأنَّه حُكْمٌ عادلٌ لا يَشوبُه ظُلْمٌ، وأنَّه عاجلٌ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه عن إقامةِ الحقِّ شاغلٌ، ولا هو بحاجةٍ إلى التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ في طُرقِ قَضائِه، وعلى هذه النَّتائجِ جاء تَرتيبُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، ثمَّ ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾، ثمَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وجُملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ ...﴾ إلخ واقعةٌ مَوقعَ البَيانِ لِما في جُملةِ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦] وجَوابِها من إجمالٍ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١، ١١٢).

- قولُه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ قيل: إنَّه كأنَّه نَتيجةٌ لِما سبَقَ، وتَحقيقُه أنَّ النُّفوسَ تَكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هَيئاتٍ تُوجِبُ لَذَّتَها وأَلَمَها، لكنَّها لا تَشعُرُ بها في الدُّنيا؛ لِعَوائقَ تَشغَلُها، فإذا قامتْ قِيامتُها زالَتِ العوائقُ، وأدْرَكَت لذَّتَها وألَمَها[١]. وقيل: إنَّه إمَّا مِنْ تَتمَّةِ الجَوابِ؛ لِبَيانِ حُكمِ اختصاصِ المُلكِ بِه تعالَى ونَتيجتِه الَّتي هيَ الحُكْم السَّويُّ والقضاءُ الحقُّ. أوْ هو حِكايةٌ لِمَا سَيقولُه تعالى يَومَئذٍ عَقيبَ السُّؤالِ والجوابِ، أيْ: تُجْزى كلُّ نفْسٍ مِن النُّفوسِ البَرَّةِ والفاجرةِ بما كَسَبَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[٢].

- وقَولُه: ﴿تُجۡزَىٰ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُرغِّبَ المُرَهِّبَ نَفْسُ الجَزاءِ، ولِبَيانِ سُهولتِه عليه سُبحانَه[٣].

- وجُملةُ ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، أي: جزاءً عادلًا لا ظُلْمَ فيه، أي: ليس فيه أقَلُّ شَوبٍ مِن الظُّلمِ، حسَبَما اقتضاهُ وُقوعُ النَّكرةِ بعْدَ (لا) النَّافيةِ للجنْسِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِوُقوعِ الجزاءِ في ذلك اليوم، ولانتِفاءِ الظُّلمِ عن ذلك الجزاءِ. وتأْخيرُها عن تَينِك الجُملتَينِ مُشيرٌ إلى أنَّها عِلَّةٌ لهما؛ فحرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ) واقعٌ مَوقِعَ فاءِ السَّببيَّةِ، كما هو شأْنُ (إنَّ) إذا جاءتْ في غيرِ مَقامِ ردِّ الإنكارِ؛ فسُرْعةُ الحِسابِ تَقْتضي سُرعةَ الحكْمِ، وسُرعةُ الحكْمِ تَقْتضي تَملُّؤَ الحاكمِ مِن العِلْمِ بالحقِّ، ومن

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

تَقديرِ جزاءِ كلِّ عاملٍ على عمَلِه دونَ تردُّدٍ ولا بحْثٍ؛ لأنَّ الحاكمَ علَّامُ الغُيوبِ؛ فكان قولُه: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عِلَّةً لجميعِ ما تَقدَّمَه في هذا الغرَضِ، والمعنى: أنَّ اللهَ مُحاسِبُهم حسابًا سريعًا؛ لأنَّه سريعُ الحسابِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٩).

الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: أي: القيامةِ، سُمِّيت بذلك لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ(١).

﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: الحُلوقِ، جمعُ حَنْجَرةٍ: وهي آخرُ الحَلْقِ ممَّا يَلِي الفَمَ، أو: طَرَفُ المَريءِ ممَّا يَلي الفَمَ، وتَراه ناتِئًا مِنْ خَارِجِ الحَلْقِ(٢).

﴿كَٰظِمِينَ﴾: أي: مَكروبينَ مُمتَلِئينَ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ(٣).

﴿حَمِيمٍ﴾: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٢٣/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٢/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، =

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافعٍ، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، والشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ نُصرةً له، وسُؤالًا عنه، والشَّفعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَينِ(١).

﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: أي: خِيانَتَها، وهي مُسارَقةُ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ، وذلك نُقصانُ الوَفاءِ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُحذِّرَ النَّاسَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ، ليس للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ قَريبٌ مُحِبٌّ أو مُشفِقٌ، وليس لهم شَفيعٌ تُقبَلُ شَفاعتُه فيهم.

ثُمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا سَعةَ عِلمِه سبحانَه، وإحاطتَه بكلِّ شَيءٍ: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ أعيُنِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه صُدورُهم.

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣٠٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ الشَّفاعةِ مُشتقَّةٌ مِن الشَّفعِ، والشَّفعُ ضِدُّ الوترِ، وإنَّما قيل للشَّفيعِ: شفيعٌ؛ لأنَّ صاحِبَ الحاجةِ كان فردًا في حاجتِه، فلمَّا جاء إلى مَن يَشفَعُ له شَفَعَه، فصارا اثنَينِ في حاجتِه). ((العذب النمير)) (١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ الحُكمَ الحقَّ في هذا اليومِ مَرجِعُه إليه وحْدَه، فيقولُ: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. والَّذينَ يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨)﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ[(١)] -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يَومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾.

أي: حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حَناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فعَلِقَت فيها، فلا تَخرُجُ مِن أبدانِهم فيَموتوا، ولا تَرجِعُ إلى مَواضِعِها، قد امتلأَتْ خَوفًا وغَمًّا

---

(١) ممَّن اختارَ المعنَى المذْكورَ: ابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ، والشِّنقيطي، وعبارةُ ابنِ عطيَّةَ (العالَم)، وعبارةُ الشَّوكاني (العِباد). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢).
وقال ابن جرير: (وأنْذِرْ يا محمَّدُ مُشْركي قَومِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠).
وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: أهلُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).

ورُعبًا، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ[1].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾.

أي: ليس للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ يومَ القيامةِ قَريبٌ أو صاحِبٌ مُحِبٌّ مُشفِقٌ يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ، وليس لهم شَفيعٌ يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فيُجابَ فيما سألَ، وتُقبَلَ شَفاعتُه فيهم[2].

كما قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قَولَهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ [الحاقة: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١، ٣٨٢).

وقيل: إنَّ المرادَ بكَونِ القلوبِ لَدى الحناجرِ: بيانُ شِدَّةِ الهَولِ، وفظاعةِ الأمرِ؛ وعليه فالآيةُ كقولِه تعالَى: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، وهو زِلزالُ خوفٍ وفزَعٍ، لا زِلزالُ حركةِ الأرضِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١).

وهذه الحالُ قيل: إنَّها عامَّةٌ للمؤمنينَ وللكافِرين، لكنْ لا يَلْحَقُ المؤمنينَ شَرٌّ من ذلك اليَومِ. واختار ذلك ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).

وقيل: قولُه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ تَخصيصٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ الفزَعَ إنَّما هو للكُفَّارِ، فالظَّالِمون هم الكافِرونَ في هذا الموضِعِ. واختاره القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ أي: يُجابُ إلى الشَّفاعةِ، وسُمِّيت الإجابةُ طاعةً؛ لموافَقتِها إرادةَ المُجابِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ بإنذارِه يومَ الآزفةِ، وما يَعرِضُ فيه مِن شِدَّةِ الكَرْبِ والغَمِّ، وأنَّ الظَّالِمَ لا يَجِدُ مَن يَحميه مِن ذلك، ولا مَن يَشفَعُ له؛ ذكَرَ اطِّلاعَه تعالى على جَميعِ ما يَصدُرُ مِن العبدِ، وأنَّه مُجازًى بما عَمِلَ؛ لِيَكونَ على حذَرٍ مِن ذلك اليومِ إذا علِمَ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أعمالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أيْأَسَهم اللهُ تعالى مِن شَفيعٍ يَسعَى لهم في عدَمِ المُؤاخَذةِ بذُنوبِهم؛ أيأَسَهم مِن أن يَتوهَّموا أنَّهم يَستَطيعونَ إخفاءَ شَيءٍ مِن نيَّاتِهم، أو أدنَى حَركاتِ أعمالِهم على ربِّهم[2].

وأيضًا لَمَّا كانت الشَّفاعةُ إنَّما تَقَعُ وتَنفَعُ بشَرطِ بَراءةِ المشفوعِ له مِن الذَّنْبِ؛ إمَّا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليه والإقلاعِ عنه، وإمَّا بالاعتذارِ عنه، وكان ذلك إنَّما يجري عندَ المخلوقينَ على الظَّاهِرِ؛ ولذلك كانوا رُبَّما وقَع لهم الغَلَطُ فيمَن لو عَلِموا باطِنَه لَما قَبِلوا الشَّفاعةَ فيه- عَلَّل تعالى ما تقَدَّمَ بعِلْمِه أنَّ المشفوعَ له ليس بأهلٍ لِقَبولِ الشَّفاعةِ فيه؛ لإحاطةِ عِلْمِه، فقال[3]:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

أي: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ الأعيُنِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والخائنةُ: مصدرٌ كالخيانةِ، أو اسمُ فاعلٍ فيكونُ مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ لمَوصوفِها، أي: الأعْيُنَ الخائنةَ، أو تكونُ صِفةً لِمَوصوفٍ محذوفٍ دَلَّ عليه الأعينُ، أي: يَعلَمُ نظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ فيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الرَّجُلُ يكونُ في القَومِ، فتَمُرُّ به المرأةُ فيُريهم أنَّه يَغُضُّ بَصَرَه، فإذا رأى منهم غَفلةً لَحَظَ إليها، فإنْ خاف أن يَفطِنوا له غَضَّ بصَرَه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: أنَّه نظَرُ العَينِ إلى ما نُهيَ عنه. قاله مُجاهِدٌ. والثَّالثُ: الغَمزُ بالعَينِ. قاله الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ. قال قَتادةُ: هو الغَمزُ بالعَينِ فيما لا يُحِبُّه اللهُ ولا يَرضاه. والرَّابعُ: النَّظرةُ بعدَ النَّظرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ خائنةَ الأعيُنِ هي مُسارَقتُها النَّظَرَ إلى ما لا يحلُّ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

وممَّن اختار أنَّها الغمزةُ فيما لا يحلُّ بالعَينِ، والنَّظرةُ في المعصيةِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩).

وممَّن اختار أنَّها: النَّظرُ إلى المُحرَّماتِ: الكرمانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

قال ابن عاشور: (ومعنَى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: خيانةَ النَّظَر، أي: مُسارَقَةَ النَّظرِ لشيءٍ بحضرةِ مَن لا يُحِبُّ النَّظَرَ إليه... والمرادُ بـ ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: النَّظرةُ المقصودُ منها إشعارُ المنظورِ إليه بما يَسوءُ غيرَه الحاضرَ؛ استِهزاءً به، أو إغراءً به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

وقال ابن عطيَّة: (وهذه الآيةُ عبارةٌ عن عِلمِ الله تعالى بجميعِ الخَفيَّاتِ، فمِن ذلك كسرُ الجفونِ والغمزُ بالعَينِ أو النَّظرةُ الَّتي تُفهِمُ معنًى، أو يُريدُ بها صاحبُها معنًى، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ جاءه عبدُ الله بنُ أبي سَرْحٍ لِيُسْلِمَ بعدَ رِدَّتِه بشَفاعةِ عُثمانَ، فتَلَكَّأ عليه رسولُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ أخفى أفعالِ الظَّاهِرِ؛ أتْبَعَه أخفَى ما في الباطِنِ، فقال[1]:

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَنطوي عليه صُدورُهم مِنَ الضَّمائِرِ[2].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾.

= الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ بايَعه، ثمَّ قال عليه السَّلامُ لأصحابه: هلَّا قام إليه رجُلٌ حينَ تلكَّأتُ عليه فضرَب عُنُقَه؟ فقالوا: يا رسولَ الله، ألَا أوْمَأْتَ إلينا؟ فقال عليه السَّلامُ: ما يَنبغي لِنَبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعيُنِ [أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٦٧)]. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣).

وقال الألوسي: (﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي: النَّظرةَ الخائنةَ؛ كالنَّظرةِ إلى غيرِ المَحْرَمِ، واستِراقِ النَّظرِ إليه، وغيرِ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: الوَسوسةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما تُضمِرُه عندَما ترَى امرأةً إذا أنت قدرْتَ عليها أتَزْني بها أم لا، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ مِن أمانةٍ أو خيانةٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

أي: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ، ومِن ذلك مُجازاتُه لكُلِّ مَن غَضَّ بَصَرَه وأخفَى الخَيرَ، أو خانت عَينُه وأضمَرَ الشَّرَّ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

أي: والَّذين يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ؛ فهم لا يَعلَمونَ شَيئًا، ولا يَملِكونَ شَيئًا، ولا يَقدِرون على شَيءٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ شَيءٍ(٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ قال

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

في أوَّلِ هاتَينِ الآيتَينِ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾، ثمَّ وصَفَها بهذه الأوصافِ المقتَضيةِ للاستِعدادِ لذلك اليَومِ العَظيمِ؛ لاشتِمالِها على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[1].

٢- يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ يكونَ مُخوِّفًا أحيانًا، ومُبَشِّرًا أحيانًا؛ من أجْلِ أنْ يُحَرِّكَ القلوبَ، ويَنبغي في الإنذارِ أنْ يُذَكِّرَ الدَّاعيةُ النَّاسَ أحوالَ يوم القيامةِ وأهوالَها؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾[2]، أي: أنذِرْهم يومَ القيامةِ، بمعنى: خَوِّفْهم إيَّاه، وهدِّدْهم بما فيه مِن الأهوالِ العِظامِ؛ لِيَستعِدُّوا لذلك في الدُّنيا بالإيمانِ والطاعةِ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ يُخبِرُ تعالَى عن عِلمِه التَّامِّ المُحيطِ بجميعِ الأشياءِ؛ جليلِها وحقيرِها، صغيرِها وكبيرِها، دقيقِها ولطيفِها؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ عِلمَه فيهم، فيَسْتَحْيوا من اللهِ حَقَّ الحَياءِ، ويَتَّقوه حقَّ تَقْواه، ويُراقِبوه مُراقبةَ مَن يَعلَمُ أنَّه يَراه؛ فإنَّه تعالَى يَعلَمُ العَينَ الخائنةَ وإنْ أبدَتْ أمانةً، ويَعلَمُ ما تَنطوي عليه خبايا الصُّدورِ من الضَّمائرِ والسَّرائرِ[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ فيه ذَمُّ النَّظَرِ إلى ما لا يَجوزُ[5]، والزَّجْرُ عن ذلك، وتهديدُ مَن لم يَمتثِلْه، ولم يَغُضَّ بَصَرَه عن الحرامِ، فقد أمَرَ اللهُ تعالى بغضِّ البصرِ فقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾[6] [النور: ٣١].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).
(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

٥- كلُّ عمَلٍ لا يحِلُّ فهو خيانةٌ، وإن كان بأدنَى إشارةٍ، وقد نبَّه الله على هذا بقولِه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، وهي مُسارَقةُ النَّظَرُ إلى ما لا يحلُّ، والإشارةُ بطَرْفِ العَينِ فيما يَحرُمُ، فحقٌّ على المسلمِ أن يَحذَرَ مِن الخيانةِ دقيقِها وجليلِها، وخصوصًا ما اتَّصل بالنَّاسِ منها، ويَتنبَّهَ مِن أقلِّ كلمةٍ، وأدنَى إشارةٍ توقِعُه في خطرِها(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ يُوجِبُ عَظيمَ الخَوفِ؛ لأنَّ الحاكِمَ إذا كان عالِمًا بجَميعِ الأحوالِ، لا يَقضي إلَّا بالحَقِّ فيما دَقَّ وجَلَّ؛ خافه الخَلْقُ غايةً(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ لا حُجَّةَ للمُعتزِلةِ بهذه الآيةِ على نَفْيِ الشَّفاعةِ عن المُذنِبينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى نفَى أن يَحصُلَ للظَّالمينَ شَفيعٌ يُطاعُ، وهذا لا يدُلُّ على نفْيِ الشَّفيعِ، كقَولِك: (ما عندي كتابٌ يُباعُ)، فهذا يَقتضي نفْيَ كِتابٍ يُباعُ، ولا يَقتَضي نفْيَ الكِتابِ؛ فهذا يَنفي أنَّ لهم شَفيعًا يُطيعُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه ليس في الوُجودِ أحَدٌ أعلى حالًا مِن اللهِ تعالى حتَّى يقالَ إنَّ اللهَ يُطيعُه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وأيضًا فلَفظُ الظَّالمينَ إمَّا أن يُفيدَ الاستِغراقَ، وإمَّا ألَّا يُفيدَ: فإنْ أفاد الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالمينَ مَجموعَهم وجُملتَهم، ويَدخُلُ في مجموعِ هذا الكَلامِ الكُفَّارُ، وهذا المجموعُ ليس له شفيعٌ؛ لأنَّ بَعضَ هذا المجموعِ هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨).

الكُفَّارُ، وليس لهم شَفيعٌ؛ فحينَئذٍ لا يكونُ لهذا المجموعِ شَفيعٌ، وإنْ لم يُفِدِ الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالِمينَ بَعضَ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفةِ، فبعضُ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ ممَّنْ ليس لهم شفيعٌ هم الكفَّارُ.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بالظَّالِمينَ في هذه الآيةِ هاهنا الكُفَّارُ؛ لأنَّها ورَدَت في زَجرِ الكُفَّارِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]؛ فوَجَب أن يكونَ مُختَصًّا بهم، فلا شَفاعةَ في حَقِّ الكُفَّارِ[١].

فإنْ قال قائِلٌ: الظُّلمُ أعَمُّ مِن الكُفرِ، فكيف فَسَّرتُم الظُّلمَ هنا بالكُفرِ؟

قُلْنا: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولأنَّ ما دونَ الكُفرِ مِن المعاصي تُمكِنُ فيه الشَّفاعةُ؛ فإنَّ الشَّفاعةَ ثابِتةٌ لأهلِ الكبائِرِ من هذه الأُمَّة[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ تحذيرُ هؤلاء الكُفَّارِ مِن ذلك اليومِ؛ فإنَّهم في الدُّنيا يَجِدونَ مَن يُناصِرُهم ويُواليهم، ويُساعِدُهم ويُعاوِنُهم، ولكنْ في الآخرةِ لا يَجِدونَ شَيئًا مِن ذلك[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ فيه جوازُ المقارَنةِ بيْنَ شيئَينِ لا يَشترِكانِ في المعنى؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ، فما قال سبحانه: (لا يَقضون بالحقِّ)، إنَّما قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾، يعني: ليس لهم أيُّ حُكْمٍ، وليس لهم أيُّ سُلطةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤١).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] وجُملةِ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، والمناسَبةُ أنَّ ذِكرَ الحسابِ به يَقْتضي التَّذكيرَ بالاستِعدادِ ليومِ الحِسابِ، وهو يومُ الآزفةِ(١).

- والآزفةُ في قولِه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، تَقديرُه: يومَ السَّاعةِ الآزفةِ، أو الطَّامةِ الآزفةِ، ونحوَ هذا(٢).

- وقولُه: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ذلك في يومِ القِيامةِ حَقيقةً، ويَبْقَون أحياءً معَ ذلك، بخِلافِ حالةِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَن انتقَلَ قلْبُه إلى حَنْجرتِه مات، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عمَّا يَبْلُغون إليه مِن شِدَّةِ الجزَعِ(٣).

- وإنَّما جمَعَ الكاظِمَ جمْعَ السَّلامةِ فقال: ﴿كَاظِمِينَ﴾؛ لأنَّه وَصَفَ القُلوبَ بالكَظْمِ الَّذي هو مِن أفعالِ العُقلاءِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ التَّعريفُ في (الظَّالمين) للاستِغراقِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ ظالمٍ، أي: مُشرِكٍ، فيَشملَ الظَّالمينَ المُنْذَرين، ومَن مضَى من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١).

أمثالِهم، فيَكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ ولذلك فليس ذِكرُ الظَّالِمينَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ[١].

- وقيل: إنْ كانت الضَّمائرُ للكُفَّارِ -وهو الظَّاهرُ- كان وَضْعُ (الظَّالِمين) مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بهم، وللتَّسجيلِ عليهم بالظُّلمِ، وأنَّ العَذابَ لِظُلْمِهم[٢].

- ووَصْفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ بجُملةِ ﴿يُطَاعُ﴾ وَصْفٌ كاشفٌ؛ إذ ليس المرادُ أنَّ لهم شُفعاءَ لا تُطاعُ شَفاعتُهم؛ لِظُهورِ قِلَّةِ جَدْوى ذلك، ولكنْ لَمَّا كان شأْنُ مَن يَتعرَّضُ للشَّفاعةِ أنْ يَثِقَ بطاعةِ المشفوعِ عِندَه له جِيءَ بهذا الوصْفِ. وأُتبِعَ ﴿شَفِيعٍ﴾ بوَصْفِ ﴿يُطَاعُ﴾؛ لِتَلازُمِهما عُرْفًا؛ فهو مِن إيرادِ نفْيِ الصِّفةِ اللَّازمةِ للموصوفِ، والمقصودُ: نفْيُ الموصوفِ بضَرْبٍ مِن الكِنايةِ التَّلميحيَّةِ، والمعنى: أنَّ الشَّفيعَ إذا لم يُطَعْ فليس بشَفيعٍ، فنَفَى الصِّفةَ والمَوصوفَ، أي: لا شَفيعَ فيُطاع، واللهُ لا يَجتَرِئُ أحدٌ على الشَّفاعةِ عِندَه إلَّا إذا أذِنَ له، فلا يَشفَعُ عندَه إلَّا مَن يُطاعُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ خبرًا عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو ضَميرٌ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٠).

١٧]، ومجموعُ الظَّاهِرِ والمقدَّرِ استِئنافٌ؛ للمُبالَغةِ في الإنذارِ؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بأنَّ اللهَ يَعلَمُ الخَفايا، كان إنذارًا بالغًا يَقْتضي الحذَرَ مِن كلِّ اعتقادٍ أو عمَلٍ نَهاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنه.

ويجوزُ أنْ تكونَ خبَرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ على كِلَا التَّقديرينِ[١].

- وقيل: هو خبَرٌ آخَرُ لقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]؛ للدَّلالةِ على أنَّه ما مِن خَفِيٍّ إلَّا وهو مُتعلَّقُ العِلمِ والجزاءِ[٢].

- فإنْ قيل: لم لا يُجعَلُ قولُه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ علَّةً لقولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكأنَّه قيل: ما للظَّالمينَ مِن شَفيعٍ؛ لِمَا يَعلَمُ اللهُ منهم الخِيانةَ سِرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا؟

والجوابُ: أنَّه إذا جُعِل مِن الأخبارِ المستقِلَّةِ بالدَّلالةِ لإثباتِ وَصفِ العِلمِ، ويَتَّصِلُ به حديثُ العدْلِ والقضاءِ الحقِّ، ويكونُ تَخلُّصًا إلى ذَمِّ آلهتِهم، ولا يَفوتُ تَعليلُ نفْيِ الشَّفاعةِ أيضًا على سَبيلِ الإدماجِ[٣]؛ لاقتِرانِه به- كان أحسَنَ مِن تَعليقِه بنفْيِ الشَّفاعةِ وحْدَه[٤].

- و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه؛ فالخائنةُ مَصدرٌ على وزْنِ اسمِ الفاعلِ، مِثلُ العافيةِ للمُعافاةِ، والعاقبةِ، والكاذبةِ. ويجوزُ إبقاءُ ﴿خَآئِنَةَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩١).

على ظاهرِ اسمِ الفاعلِ؛ فيكونُ صِفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، أي: يَعلَمُ نَظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ[(١)]، فجعَل النَّظرَ بمنزلةِ شَيءٍ يُسرَقُ مِن المنظورِ إليه، ولذا عبَّر فيه بالاستِراقِ. وقيل: هو وصْفٌ مُضافٌ إلى موصوفِه[(٢)].

- ولَمَّا كان السِّياقُ هنا للإبلاغِ في أنَّ عِلمَه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ كُلِّيٍّ وجُزئيٍّ، فكان مِنَ المعلومِ أنَّ الحالَ يَقتَضي جمْعَ الكَثرةِ، وأنَّه ما عَدَل عنه إلى جمعِ القِلَّةِ إلَّا للإشارةِ إلى أنَّ عِلمَه تعالى بالكَثيرِ كعِلْمِه بالقَليلِ، الكُلُّ عليه هَيِّنٌ، فالكثيرُ عِندَه في ذلك قَليلٌ؛ فلذا قال: ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾[(٣)].

- و(مَا تُخْفِي الصُّدُورُ) هي النِّيَّاتُ والعزائمُ الَّتي يُضمِرُها صاحبُها في نفْسِه[(٤)]، وعبَّر عن القلوبِ بالصدورِ؛ لأنَّها مواضعُ القلوبِ[(٥)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾، أي: والَّذي هذه صِفاتُه وأحوالُه لا يَقْضي إلَّا بالحقِّ والعدْلِ؛ لاستِغنائِه عن الظُّلْمِ، وآلهتُكم لا يَقْضون بشَيءٍ؛ فهذا تَهكُّمٌ بالأصنامِ وقدْحٌ فيهم؛ لأنَّ ما لا يُوصَفُ بالقُدرةِ لا يُقال فيه: يَقْضي، أو لا يَقْضي[(٦)]، فلم يَقُلْ سبحانه: (لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

يَقضونَ بالباطلِ)، بل قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ ليَشملَ الباطلَ وغيرَ الباطلِ، يعني: ليس لهم قضاءٌ إطلاقًا؛ لأنهم مَرْبوبون مَملوكونَ، فلا يَقضونَ بشيءٍ[١]. و(شيء) نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فتَعُمُّ كلَّ شَيءٍ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُ عابديها إطلاقًا[٢].

- وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُؤتَى بجُملةِ ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ مَعطوفةً بالواوِ على جُملةِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، فيُقال: (ويَقْضي بالحقِّ)، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِما في الاسمِ العَلَمِ للهِ تعالى مِن الإشعارِ بما يَقْتضيهِ المُسمَّى به مِن صِفاتِ الكمالِ، الَّتي منها العدْلُ في القضاءِ، ولِيَحصُلَ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ تَقَوِّي المعنى، أي: أنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ، والجُملةُ مِن تَمامِ الغَرَضِ الَّذي سِيقَت إليه جملةُ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، وكِلْتاهما ناظرةٌ إلى قولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: ١٨]، أي: إنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ ناظرةٌ إلى جُملةِ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ [غافر: ١٨]؛ فبَعْدَ أنْ نُفِيَ عن أصنامِهم الشَّفاعةُ، نُفِيَ عنها القضاءُ بشَيءٍ ما بالحقِّ أو بالباطلِ؛ وذلك إظهارٌ لِعَجْزِها. ولا تَحسبَنَّ جُملةَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ مَسوقةً ضَميمةً إلى جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِيُفيدَ مَجموعُ الجُملتَينِ قصْرَ القضاءِ بالحقِّ على اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧).

تعالى قَصرَ قلْبٍ[١]، أي: دونَ الأصنام؛ لأنَّ المنفيَّ عن آلهتِهم أعمُّ مِن المُثبَتِ للهِ تعالى، وليس مِثلُ ذلك ممَّا يُضادُّ صِيغةَ القصْرِ؛ فكَفَى في إفادتِه تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بحَمْلِه على إرادةِ الاختِصاصِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ فالمرادُ من قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ التَّذكيرُ بعَجْزِ الَّذين يَدْعونهم، وأنَّهم غيرُ أهلٍ للإلهيَّةِ، وهذه طريقةٌ في إثباتِ صِفةٍ لموصوفٍ، ثمَّ تعقيبُ ذلك بإظهارِ نَقيضِه فيما يُعَدُّ مُساويًا له[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ على قراءةِ ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتَّاءِ[٣]، فيكون فيها التِفاتٌ؛ لِقَرْعِ أسماعِ المشركينَ بذلك. أو على إضمارِ (قُل)، أي: قُلْ لهم يا محمَّدُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ مُقرِّرةٌ لِجُملِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]؛ فتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ مُفيدٌ للقصْرِ، وهو تَعريضٌ بأنَّ آلهتَهم لا تَسمَعُ ولا

---

(١) قصرُ القلبِ: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).
ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧، ١١٨).
(٣) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالتَّاءِ، والباقون بالياء. يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٠٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

تُبصِرُ، فكيف يَنسِبون إليها الإلهيَّةَ؟! وإثباتُ المُبالَغةِ في السَّمعِ والبصَرِ للهِ تعالى يُقرِّرُ معنى ﴿يَقۡضِى بِٱلۡحَقِّ﴾، وتأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ تَحقيقٌ للقَصْرِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

الآيتان (٢١-٢٢)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَآثَارًا﴾: أي: ما تُرِكَ في الأرضِ مِنَ البِناياتِ والمَعالِمِ والحُصونِ، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[١].

﴿وَاقٍ﴾: أي: حافِظٍ ونافعٍ، والوِقايةُ: حِفظُ الشَّيءِ مِمَّا يُؤذيه ويَضُرُّه، وأصلُ (وقي): يدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى: أوَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ من قُريشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ كيف كانتْ نهايةُ مَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ؛ كانوا أشَدَّ قُوَّةً منهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ مِنهم، فعاقَبَهمُ اللهُ بذُنوبِهم فأهلَكَهم، ولم يكُنْ لهم مَن يَقيهم مِنَ اللهِ تعالَى.

ثُمَّ يَذكُرُ تعالَى عِلَّةَ أخْذِه إيَّاهم، وذُنوبَهمُ الَّتي ارْتَكَبوها، فيقولُ: ذلك العَذابُ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالبَيِّناتِ على توحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكَفَروا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

فأخَذَهمُ اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم؛ إنَّ اللهَ قَويٌّ شَديدُ العِقابِ.

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بعَذابِ الآخِرةِ؛ أردَفَه ببَيانِ تَخويفِهم بأحوالِ الدُّنيا[(١)].

وأيضًا لَمَّا وعَظَهمُ اللهُ سُبحانَه بصادِقِ الأخبارِ عن قَومِ نُوحٍ ومَن تَبِعَهم، وختَمَه بالإنذارِ بما يقَعُ في دارِ القَرارِ للظَّالِمينَ؛ أتْبَعَه الوَعظَ والتَّخويفَ بالمُشاهَدةِ مِن تتَبُّعِ الدِّيارِ والاعتبارِ[(٢)].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ نهايةَ أمْرِ مَن كان قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ[(٣)]؟

﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ أشَدَّ قوَّةً مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ منهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).
=

كما قال تعالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الروم: ٩].

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

أي: فلمْ تنفَعْهم شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا آثارُهم في الأرضِ؛ حيثُ عاقَبَهمُ اللهُ فأهلَكَهم بسَبَبِ ذُنوبِهم[١].

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

أي: ولم يَكُنْ لهم حِينَ جاءَهم عذابُ اللهِ أحدٌ يَقيهم منه، ويدفعُه عنهم[٢].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

= قال ابنُ تيميَّةَ: (القُوَّةُ تعُمُّ قُوَّةَ الإدراكِ النَّظريَّةَ، وقُوَّةَ الحَركةِ العَمَليَّةَ، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٨٢]، فأخبَرَ بفَضلِهم في الكَمِّ والكَيفِ، وأنَّهم أشَدُّ في أنفُسِهم، وفي آثارِهم في الأرض). ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٤٠).

قال الماورديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني بطشًا، قاله يحيى. الثاني: قدرةً، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

وقال السعديُّ: (كانوا أشدَّ قوةً من هؤلاء في العَدَدِ والعُدَدِ وكِبَرِ الأجسام). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والآثارُ في الأَرض؛ قيل: هي الأبنيةُ والمساكنُ وسائِرُ العِماراتِ. وقيل: هي المباني والمآثرُ والصِّيتُ الدُّنياوي. وقيل: حُصونُهم وقصورُهم وعساكِرُهم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه أخْذَهم؛ ذكَرَ سبَبَه بما حاصِلُه أنَّ الاستِهانةَ بالرَّسولِ استِهانةٌ بمَن أرسَلَه[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾.

أي: إنَّما نَزَل ذلك العَذابُ بهم؛ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالدَّلالاتِ الواضِحاتِ على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكفَروا، وجَحَدوا توحيدَ اللهِ، وكَذَّبوا رسُلَه؛ فعاقَبَهم اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم[٢].

﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قُوَّةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وعِقابُه شَديدٌ على مَن يَستَحِقُّه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ المعنى: أنَّ العاقِلَ مَن اعتبَرَ بغَيرِه؛ فإنَّ الذين مضَوْا مِنَ الكُفَّارِ كانوا أشَدَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١١-٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

قُوَّةً مِن هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ، وأقْوى آثارًا في الأرضِ مِنهم، فلمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم أهلكَهمُ اللهُ بضُروبِ الهلاكِ مُعَجِّلًا، حتى إنَّ هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ يُشاهِدونَ تلك الآثارَ؛ فحَذَّرهمُ اللهُ تعالَى مِن مِثلِ ذلك بهذا القَولِ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١] أنَّه لَمَّا نَزَل العذابُ بهم عِندَ أخْذِه تعالَى لهم لم يَجِدوا مَن يُعينُهم ويُخَلِّصُهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك نَزَل بهم؛ لأجْلِ أنَّهم كَفَروا وكَذَّبوا الرُّسلَ، فحَذَّر قَومَ الرَّسولِ مِن مِثلِه، وخَتَم الكَلامَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ والتَّخويفِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنَّ السَّيرَ في أرضِ المُكَذِّبين، وتَبَيُّنَ ما أحَلَّ اللهُ بهم مِنَ النَّكالِ، إذا كان على سَبيلِ العِبرةِ بما جرَى لهم مِنَ الهَلاكِ؛ فلا بأسَ به، وبِناءً على ذلك نَعرِفُ أنَّ الذين يَذهَبونَ الآنَ إلى دِيارِ ثمودَ للاطِّلاعِ على قُوَّتِهم والاعتِبارِ بصَنعَتِهم: هُمْ على خَطأٍ عَظيمٍ؛ لأنَّهم لم يَسيروا في الأرضِ السَّيرَ الذي أمَرَ اللهُ به، بل ساروا في الأرضِ السَّيرَ الذي نهَى عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ القَومِ المُعَذَّبينَ، إلَّا أنْ تَكونوا باكِينَ، فإنْ لَمْ تَكونوا باكِينَ فلا تَدْخُلوا عليهم؛ أنْ يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم))(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نَبَّه على آثارِهم؛ لأنَّ آثارَهم لم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).
والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٣٣)، ومُسلِم (٢٩٨٠) من حديثِ عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما.

يَندَرِسْ بَعضُها إلى هذا الزَّمانِ، وقد مضَى عليها أُلوفٌ مِنَ السِّنينَ، وأمَّا المتأخِّرونَ فتَنطَمِسُ آثارُهم في أقَلَّ مِن قَرنٍ[1].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنَّ هؤلاء الذين كانوا مِن قَبلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً في الأبْدانِ، وقوةً في الصِّناعةِ، وقوةً في الآثارِ؛ ومع هذا لم تمنَعْهم قوَّتُهم هذه مِن أخْذِ اللهِ لهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ فلا يقي دونَ ما أرادَ اللهُ؛ لا قصورٌ ولا مدافعُ، ولا طائراتٌ ولا أيُّ شيءٍ، فإذا أرادَ بقومٍ سُوءًا فلا مَرَدَّ له، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[2] [الرعد: ١١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيه إثباتُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بدونِ ذنْبٍ[3].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ تعالى ربطَ المُسَبَّباتِ بأسبابِها، وهذا يدُلُّ على تمامِ حِكمةِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ لم يَفعَلْ شيئًا عَبَثًا، ولا لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، خِلافًا لِمَن قال مِن الجَبريَّةِ وغيرِهم: إنَّ اللهَ تعالى يَفعَلُ ما يَشاءُ لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، وليس لحِكمةٍ، وأنكَروا حِكمةَ اللهِ! فيُقالُ لهم: الحِكمةُ هي غايةُ الحُكمِ، أي: أنَّ الحِكمةَ أكبَرُ ما يَدُلُّ على البُعدِ عن السَّفَهِ واللَّعِبِ، والحِكمةُ التي يَشرَعُ اللهُ الشَّرائعَ مِن أجْلِها لا تعودُ إلى نَفسِها إلَّا مِن حيثُ الكَمالُ فقط، أمَّا المَصلحةُ فالذي يَنتَفِعُ بها هم الخَلقُ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّ حِكمتَه لا تعودُ إليه بشَيءٍ سِوى

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١٣).

بيانِ كَمالِ صِفاتِه عزَّ وجَلَّ[(١)].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هذا انتقالٌ مِن إنذارِهم بعَذابِ الآخِرةِ على كُفْرِهم، إلى مَوعظتِهم وتَحذيرِهم مِن أنْ يَحُلَّ بهم عذابُ الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ كما حَلَّ بأُمَمٍ أمثالِهم[(٢)].

- والواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطفةٌ جُملةَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾ على جُمْلةِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ ...﴾ إلخ [غافر: ١٨]. والاستفهامُ تَقريريٌّ، والتَّقريرُ مُوجَّهٌ للَّذين ساروا مِن قُرَيشٍ ونَظَروا آثارَ الأُمَمِ الذين أبادَهم اللهُ جَزاءَ تَكذيبِهم رُسلَهم؛ فهُمْ شاهَدوا ذلك في رِحلتَيْهم رِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، وإنَّهم حَدَّثوا بما شاهَدوه مَن تَضُمُّهم نَواديهم ومَجالِسُهم؛ فقد صار مَعلومًا للجميعِ، فبهذا الاعتبارِ أُسنِدَ الفِعلُ المقرَّرُ به إلى ضَميرِ الجمْعِ على الجُملةِ[(٣)]. أو تكونُ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ أنكَرَ عليهم عدَمَ الاعتبارِ بأحوالِ غَيرِهم، والواوُ عاطفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أَغَفُلُوا ولم يَسيروا[(٤)].

- وجُملةُ: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَفصيلِ الإجمالِ الذي في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّ العِبرةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٣).

بالتَّفريعِ بعْدَها بقولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في جُملةِ ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾؛ لِتَوكيدِ الحُكْمِ وتَقويتِه، وليسَ مُرادًا به قَصرُ المُسْنَدِ على المُسْنَدِ إليه؛ إذْ ليسَ للقَصْرِ معنًى هنا[٢].

- والفاءُ في ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لِتَفريعِ الأخْذِ على كَونِهم أشدَّ قوَّةً مِن قُريشٍ؛ لأنَّ القوَّةَ أُرِيدَ بها هنا الكِنايةُ عن الإباءِ مِن الحَقِّ والنُّفورِ مِن الدَّعوةِ؛ فالتَّقديرُ: فأعْرَضوا، أو فكَفَروا فأخَذَهم اللهُ، والأخْذُ: الاستِئصالُ والإهلاكُ؛ كُنِّيَ عن العِقابِ بالأخْذِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ (مِن) الأُولى مُتعلِّقةٌ بلَفظِ ﴿وَاقٖ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ للاهتمامِ بالمجرورِ، و(مِن) الثَّانيةُ صِلةٌ؛ لِتَأكيدِ النَّفْيِ بحرْفِ (ما)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ (ذلك) إشارةٌ إلى المذكورِ، وهو أخْذُ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: ذلك الأخْذُ بسَببِ أنَّهم كانتْ تأْتِيهم رُسلُهم بالبيِّناتِ فكَفَروا بهم، وفي هذا تَفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، والجُملةُ بعْدَ (أنَّ) المفتوحةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢١).

تأويلِ مَصدرٍ؛ فالتَّقديرُ: ذلك بسَببِ تَحقُّقِ مَجيءِ الرُّسلِ إليهم فكُفرِهم بهم[١].

- وأفادَ المضارعُ في قولِه: ﴿تَّأۡتِيهِمۡ﴾ تجدُّدَ الإتيانِ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ لِمَجموعِ تلك الأُمَمِ، أي: يأْتي لكلِّ أُمَّةٍ منهم رسولٌ؛ فجَمْعُ الضَّميرِ في ﴿تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم﴾، وجمْعُ الرُّسلِ في قولِه: ﴿رُسُلُهُم﴾ مِن مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ؛ فالمعنى: أنَّ كلَّ أُمَّةٍ منهم أتاها رسولٌ. ولم يُؤتَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك الأُمَمِ واحِدٌ، وهو الإشراكُ، وتكذيبُ الرُّسلِ[٢].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعْدَ أنْ تَقدَّمَ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ ...﴾ إلخ [غافر: ٢١]؛ إطنابًا لِتَقريرِ أخْذِ اللهِ إيَّاهم بكُفْرِهم برُسلِهم، وتَهويلًا على المنذَرينَ بهم أنْ يُساوُوهم في عاقِبتِهم كما ساوَوْهم في أسْبابِها[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تَعليلٌ وتَبْيينٌ لأخْذِ اللهِ إيَّاهم، وكيفيَّتِه، وسُرعةِ أخْذِه المُستفادةِ مِن فاءِ التَّعقيبِ؛ فالقويُّ لا يُعجِزُه شَيءٌ، فلا يُعطِّلُ مُرادَه ولا يَتريَّثُ، و﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بيانٌ لذلك الأخْذِ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾[٤] [القمر: ٤٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بجمْعِ الضَّميرِ ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾، وقال في سُورةِ (التَّغابُن): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [التغابن: ٦] بإفرادِه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ وذلك مُوافقةٌ هنا لِما قبْلَه في قولِه: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ إلى آخِرِه، وأفْرَدَه هناك؛ لأنَّه ضَميرُ الشَّأنِ زِيدَ توصُّلًا إلى دُخولِ «أنَّ» على «كان»(١).



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠١).

الآيات (٢٣-٢٧)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ
فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي
الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[١].

﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾: أي: استَبقُوهنَّ أحياءً، والاستحياءُ: الإبقاءُ حَيًّا، واستَفعَلَ فيه بمعنى أفعَلَ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[٢].

﴿ذَرُونِي﴾: أي: اتْرُكوني، ودَعُوني، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يَرْميه لِقلَّةِ اعتِدادِه به[٣].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجأْتُ واعتَصَمْتُ واستَجَرْتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الغَيرِ، والتعَلُّقُ به[١].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السلامُ معَ فرعونَ، مُسَلِّيًا لنبيِّه صلَّى اللَّه عليه وسَلَّم، بذِكرِ نموذجٍ مِن أحوالِ المكذِّبينَ بالرُّسلِ، فيقولُ: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُوضِّحةٍ للحَقِّ، إلى فِرعَونَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ، فقالوا: إنَّ موسى ساحِرٌ كَذَّابٌ! فلمَّا جاءَهم موسَى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ قالوا: اقتُلوا أبناءَ الَّذين آمَنوا معَ موسى، واستَبقُوا نِساءَهم أحياءً. وما كَيدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطِلٌ زائِلٌ!

وقال فِرعَونُ: اترُكوني أقتُلْ موسى، ولْيَدْعُ رَبَّه فيَمنَعَه مِنِّي؛ إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ موسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم بسِحْرِه، أو أنْ يُظهِرَ في أرضِ مِصرَ الفَسادَ! وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي ورَبِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذِكرِ الكُفَّارِ الذين كذَّبوا الأنبياءَ قَبْلَه، وبمُشاهَدةِ آثارِهم؛ سلَّاه أيضًا بذِكرِ موسَى عليه السَّلامُ، وأنَّه معَ قوَّةِ مُعجِزاتِه بعَثَه إلى فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، فكَذَّبوه، وقالوا: هو ساحِرٌ كذَّابٌ[٢]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦).

أي: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا، وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُظهِرةٍ للحَقِّ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ الذي كان مِن قَومِ مُوسَى فبغَى عليهم؛ فقالوا عن مُوسَى: هو ساحِرٌ فيما يُرينا مِن آياتٍ، كذَّابٌ في زَعْمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٦-٢٢٠).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: المعجزاتُ: السمعاني، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

وممَّن قال: المرادُ بها الآياتُ التسعُ؛ أي: المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]: السمرقندي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

وممن قال: إنَّ المرادَ بالسلطانِ: الحجةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٥).

قال البقاعيُّ: (﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ أي: أمرٍ قاهِرٍ عَظيمٍ جِدًّا، لا حِيلةَ لهم في مُدافَعةِ شَيءٍ منه ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ في نَفسِه، مُنادٍ لكُلِّ مَن يُمكِنُ اطِّلاعُه عليه أنَّه ظاهِرٌ جِدًّا، وذلك الأمرُ هو الذي كان يمنَعُ فِرعَونَ مِن الوُصولِ إلى أذاه مع ما له مِن القُوَّةِ والسُّلطانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨).

أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾.

أي: فلمَّا جاءَهم مُوسى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ، لم يُذعِنوا له، وقالوا: اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا مع مُوسى، واستَبْقُوا نِساءَهم أحياءً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).
قال ابنُ كثير: (هذا أمرٌ ثانٍ مِن فِرعَونَ بقَتلِ ذُكورِ بني إسرائيلَ؛ أمَّا الأوَّلُ: فكان لأجْلِ الاحترازِ مِن وُجودِ موسى، أو لإذلالِ هذا الشَّعبِ وتَقليلِ عَدَدِهم، أو لِمَجموعِ الأمْرَينِ. وأمَّا الأمرُ الثَّاني: فلِلعلَّةِ الثَّانيةِ: لإهانةِ هذا الشَّعبِ، ولكي يَتشاءَموا بمُوسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨).
ممَّن اختار أنَّ الأمرَ بالقتلِ مِن فرعونَ: مقاتلُ بنُ سليمان، والماتريدي، ومكي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩، ٦٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَالُواْ﴾: فرعونُ وقومُه: الثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

أي: كادُوا هذه المَكيدةَ زاعِمينَ أنَّهم إذا قَتَلوا أبناءَهم واستَحْيَوا نِساءَهم، لم يَقْوَوا، وبَقُوا تحتَ عُبُوديَّتِهم؛ فما كيْدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطِلٌ مُضمَحِلٌّ؛ فلا يَتمُّ لهم ما قَصَدوه به(١).

كما قال الله سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

وقال تعالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

وقال سُبحانَه عن أصحابِ الفيلِ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالَى بفِعلِ فِرعَونَ بمَن تابَعَ موسى عليه السَّلامُ؛ أخبَرَ عن

= وقال ابنُ عطية وأبو حيان: إنَّ المرادَ: فرعونُ، وهامانُ، وقارونُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

فِعلِه معه بما عُلِمَ به أنَّه عاجِزٌ؛ فقال(١):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: دَعوني أقتُلْ مُوسى، ولْيَدْعُ رَبَّه الذي يَزعُمُ أنَّه أرسَلَه إلينا؛ فيَمنَعَه منِّي(٢)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما قال فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّهم كانوا يكُفُّونَه عن قتلِه، ويمنعونَه منه، وممن اختار هذا المعنى: السَّمرقندي، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما منَعوه عن قتلِه؛ لأنَّه كان فيهم مَن يعتقِدُ بقلبِه أنَّه كان صادِقًا، وقيل: كان في خاصةِ قوم فرعونَ مَن يمنعُه مِن قتلِه خوفًا مِن الهلاكِ، وقيل: قالوا: لا تقتُلْه؛ فإنَّه هو ساحرٌ ضعيفٌ، فلا يقدِرُ أنْ يغلبَ سحرَنا، وإن قتلته قالت العامَّةُ: كان محقًّا صادقًا، وعجزوا عن جوابِه فقتلوه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢).

وقال السمرقندي: (وذلك أنَّ قومَه كانوا يقولونَ: أرجِئْه وأخاه، ولا تقتُلْه حتَّى لا يُفسدوا عليك الملكَ. فقال لهم فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ فإنِّي أعلمُ أنَّ صلاحَ مُلكي في قتلِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٥٢٦).

وقيل: إنَّ فرعونَ كانَ قد استيقنَ أنَّ موسَى عليه السلامُ نبيٌّ، وأنَّ ما جاءَ به آياتٌ باهرةٌ، وما هو بسحرٍ ولكنْ كان يخافُ إنْ همَّ بقتلِه أنْ يُعاجَلَ بالهلاكِ، وكانَ قولُه هذا تمويهًا على قومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الكافُونَ له عن قتلِه، وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦). =

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُعَلِّلًا إرادتَه قَتْلَ موسى: إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ مُوسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتُم عليه بسِحْرِه[1]!

﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

أي: أو أنْ يُظهِرَ مُوسى في أرضِ مِصرَ الفَسادَ[2].

= وقال ابنُ عطيةَ: (الظاهرُ مِن أمرِ فرعونَ أنَّه لما بهَرتْ آياتُ موسَى عليه السلامُ انهدَّ ركنُه، واضْطَربتْ معتقداتُ أصحابِه، ولم يفقِدْ منهم مَن يجاذبُه الخلافَ في أمرِه، وذلك بيِّنٌ مِن غيرِ ما موضعٍ مِن قصتِهما، وفي هذه الآيةِ على ذلك دليلان: أحدهما: قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فليسَتْ هذه مِن ألفاظِ الجبابرةِ المتمكِّنينَ مِن إنفاذِ أوامرِهم. والدليلُ الثاني: مقالةُ المؤمنِ وما صدَع به، وأنَّ مكاشفتَه لفرعونَ أكثرُ مِن مساترتِه، وحكمَه بنُبوَّةِ موسَى أظهرُ مِن توريتِه في أمرِه. وأمَّا فرعونُ فإنَّما لجأ إلى المخرقةِ والاضطرابِ والتَّعاطي، ومِن ذلك قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: إنِّي لا أُبالي عن ربِّ موسَى، ثمَّ رجَع إلى قومِه يُريهم النَّصيحةَ والحمايةَ لهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال الواحديُّ: (معنى «أو» وقوعُ أحدِ الشَّيئَينِ، المعنى: أخافُ أن يُبدِّلَ دِينَكم، وإنْ لم يُبَدِّلْه أوقَعَ فيه الفَسادَ). ((الوسيط)) (٤/ ٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأرضِ هنا: أرضُ مِصرَ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

قال ابن عاشور: (الأرضُ: هي المعهودةُ عِندَهم، وهي مملكةُ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

وقيل: المرادُ بقَولِ فِرعَونَ: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: هو إظهارُ موسى عِبادةَ رَبِّه، وتغييرُ دِينِهم وتبديلُه. وممَّن قال بذلك في الجُملة: ابن جرير، والثعلبي، البَغوي، والرَّسْعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير =

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾.

أي: وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي وربِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ مُتعاظِمٍ عن الحَقِّ، لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ الَّذي يحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم[1].

= البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال قتادة: (والفسادُ عِندَه أنْ يُعمَلَ بطاعةِ اللهِ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

وقيل: هو أنْ يُقَتِّلَ أبناءَكم ويَستحْيِيَ نساءَكم، كما فعَلْتُم بقَومِه يفعَلُ بكم. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُريجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٤).

وقيل: المرادُ أنَّه يَقَعُ بينَ النَّاسِ خِلافٌ بسبَبِ موسى. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

وقيل: الفسادُ: هو ما يُفسدُ دُنياهم مِن التحارُبِ والتهارُجِ، وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

وقيل: المرادُ: فَسادُ المعايِشِ؛ فإنَّه إذا غَلَب قَوِيَ على مَن سِواه، فسَفَك الدِّماءَ وسَبَى الذُّرِّيَّةَ، وانتهَبَ الأموالَ؛ ففَسَدت الدُّنيا مع فسادِ الدِّينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (يَعني: فَسادَ أحْوالِهم في الدُّنْيا). ((تفسير ابن جُزَيٍّ)) (٢/ ٢٣٠).

وقال الرازيُّ: (المَقصودُ من هذا الكَلامِ بيانُ السَّببِ الموجِبِ لقَتلِه، وهو أنَّ وُجودَه يُوجِبُ إمَّا فَسادَ الدِّينِ أو فَسادَ الدُّنيا، أمَّا فَسادُ الدِّينِ؛ فلأنَّ القومَ اعتَقَدوا أنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ هو الَّذي كانوا عليه، فلمَّا كان موسى ساعيًا في إفْسادِه كان في اعْتِقادِهم أنَّه ساعٍ في إفْسادِ الدِّينِ الحقِّ، وأمَّا فَسادُ الدُّنيا؛ فهو أنَّه لا بدَّ وأنْ يجتَمِعَ عليه قومٌ، ويَصيرَ ذلك سَببًا لوُقوعِ الخُصوماتِ، وإثارةِ الفِتَنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تعالَى حاكيًا قولَ موسى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وعن أبي مُوسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا خاف قَومًا قال: ((اللهُمَّ إنَّا نَجعَلُك في نُحورِهم، ونَعوذُ بك مِن شُرورِهم))[1].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الطَّريقَ المؤكَّدَ المُعتبَرَ في دَفعِ الشُّرورِ والآفاتِ عن النَّفسِ: الاعتِمادُ على اللهِ، والتوكُّلُ على عِصمةِ اللهِ تعالَى[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ جاء بذِكرِ الرَّبِّ

= كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣).

قيل: هذا الخِطابُ من موسى لفِرعَونَ ومَلَئِه. وممَّن قال بهذا القول: ابن جرير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: هذا الخِطابُ مِن موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ. وممَّن قال بهذا القول: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦، ١٢٧).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٧)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٣١)، وأحمد (١٩٧٢٠).

صحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٤٧٦٥)، والحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٢٦٢٩)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٦)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٢٩)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٢٧): (حسنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٧)، وحَسَّنه شُعَيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

مُضافًا إلى ضَميرِ نفْسِه مُبتدأً به، ثمَّ إلى ضَميرِ قوْمِه ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ علَى عادةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن البَداءةِ بأنفُسِهم في الدُّعاءِ، وإشارةً إلى أنَّ الاجتماعَ على الدُّعاءِ واتِّفاقَ الأرواحِ على التَّوجُّهِ والطَّلبِ؛ أبلَغُ في إنجاحِ الحاجاتِ؛ ولذلك شُرِعَت الجماعةُ في الصَّلواتِ. وصِفةُ الرُّبوبيَّةِ المشْعِرة بالحِفظِ والتَّربيةِ للتَّوسُّلِ بها إلى اللهِ تعالَى خُصوصيَّةٌ عَظيمةٌ في إنجاحِ المطالبِ؛ لِما فيها مِن التَّملُّقِ والتَّعطُّفِ، والانضيافِ إلى اللهِ تعالَى بأخصِّ أنواعِ التَّقرُّبِ، على أنَّه أتى بها مُتحقِّقًا بالتَّعلُّقِ بها مِن حيث أطْلَقَها فِرعونُ في قولِه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] على وجْهِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، فاستَظهَرَ بتَعلُّقِه بها وثِقتِه بها على عكْسِ ما ظَنَّه فِرعونُ(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ قدْ أراد مُوسى عليه السَّلامُ بتَشريكِه قوْمَه معه في إضافةِ الرَّبِّ أنْ يُشارِكوه في هذا الخيْرِ؛ إذ كَمالُ إيمانِ العبْدِ أنْ يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه، وبهذا يَتخلَّقُ العبدُ بالوَدوديَّةِ، وليس في العبادِ أوَدُّ لهم مِن الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

٤- في قولِه: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لم يَأْتِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دفْعِ الشِّدَّةِ إلَّا بأنِ استعاذَ باللهِ واعتَمَدَ عليه؛ فلا جرَمَ أنْ صانَه اللهُ عن كلِّ بَلِيَّةٍ، وأوْصَلَه إلى كلِّ أُمنيَّةٍ؛ فكما أنَّ عِندَ القِراءةِ يقولُ المسلمُ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فاللهُ تعالَى يَصونُ دِينَه وإخلاصَه عن وَساوسِ شَياطينِ الجِنِّ، فكذلك عندَ تَوجُّهِ الآفاتِ والمخافاتِ مِن شَياطينِ الإنسِ؛ إذا قال المسلمُ: (أعوذُ باللهِ) فاللهُ يَصونُه عن كلِّ الآفاتِ والمخافاتِ؛ فمعنَى قولِه: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ كأنَّ

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩، ٢٨٠).

العبْدَ يقولُ: إنَّ اللهَ سُبحانه هو الذي رَبَّاني، وإلى دَرَجاتِ الخيْرِ رَقَّاني، ومِن الآفاتِ وَقَّاني، وأعْطاني نِعَمًا لا حدَّ لها ولا حصْرَ، فلمَّا كان المولى ليْس إلَّا اللهَ وجَبَ ألَّا يَرجِعَ العاقلُ في دفْعِ كلِّ الآفاتِ إلَّا إلى حِفظِ اللهِ تعالَى[(١)].

٥- قولُه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ الاستقراءُ يدُلُّ على أنَّه كلَّما كان الرَّجلُ أعظَمَ استكبارًا عن عِبادةِ اللهِ، كان أعظَمَ إشراكًا باللهِ؛ لأنَّه كلَّما استكبَرَ عن عِبادةِ اللهِ ازدادَ فقْرُه وحاجتُه إلى المرادِ المحبوبِ الذي هو المقصودُ؛ مَقصودُ القلْبِ بالقصْدِ الأوَّلِ، فيكونُ مُشرِكًا بما استعبَدَه مِن ذلك، ولنْ يَستغنِيَ القلْبُ عن جَميعِ المخلوقاتِ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ هو مَوْلاهُ الذي لا يَعبُدُ إلَّا إيَّاه، ولا يَستعينُ إلَّا به، ولا يَتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يَفرَحُ إلَّا بما يُحِبُّه ويَرْضاه، ولا يَكرَهُ إلَّا ما يُبغِضُه الرَّبُّ ويَكرَهُه، ولا يُوالي إلَّا مَن والاهُ اللهُ، ولا يُعادي إلَّا مَن عاداهُ اللهُ، ولا يُحِبُّ إلَّا للهِ، ولا يُبغِضُ شيئًا إلَّا للهِ، ولا يُعْطي إلَّا للهِ، ولا يَمنَعُ إلَّا للهِ، فكلَّما قَوِيَ إخلاصُ دِينِه للهِ كمَلَت عُبوديَّتُه واستِغْناؤه عن المخلوقاتِ، وبكَمالِ عُبوديَّتِه للهِ يُبرِّئُه مِن الكِبرِ والشِّركِ[(٢)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لَعلَّك تَعلَمُ وتفهَمُ مِن دُعاءِ مُوسى هذا في مُقابَلةِ قوْلِ فِرعونَ، وهو يَعلَمُ أنَّه مَحفوظٌ منه -لقولِه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]- أنَّ العبْدَ لا يَنْبغي له أنْ يَغفُلَ عن ذِكرِ اللهِ تعالَى عندَ كلِّ قَليلٍ وكثيرٍ، واللَّجاءِ إليه في كلِّ خطْبٍ حَقيرٍ وجَليلٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى لا يُرسِلُ رَسولًا إلَّا بآيةٍ بَيِّنةٍ تَدُلُّ على صِدقِه، وقدْ أكَّدَ ذلك الحَديثُ الثَّابتُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ))[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ أنَّ الزُّعماءَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ؛ لأنَّ الرِّسالةَ ليستْ إلى هؤلاءِ الثَّلاثةِ فقط، بلْ إلى آلِ فِرعَونَ كلِّهم، لكِنَّ الأسيادَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ[٢].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾ أنَّ العُتاةَ المُعانِدينَ للرُّسُلِ تتنَوَّعُ أسبابُ عِنادِهم ومُعارضتِهم للرُّسُلِ؛ قد تكونُ السُّلطةَ، وقد تكونُ الوَزارةَ، وقد يكونُ المالَ، وقدْ تكونُ القُوَّةَ البَدنيَّةَ؛ ففي هذه الآيةِ ثلاثةُ أسبابٍ: المُلْكُ. والثَّاني: الوَزارةُ. والثَّالثُ: المالُ. وفي عادٍ القُوَّةُ البَدنيَّةُ، قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣] [فصلت: ١٥].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ ما قالوه في رَدِّ الدَّعوةِ مُجرَّدُ دَعوى؛ لأنَّهم لم يُقيموا على دَعواهم أيَّ دليلٍ، بل قالوا: «ساحِرٌ كذَّابٌ»، وهذا يَلجَأُ إليه الضُّعَفاءُ العاجِزونَ؛ إذا عَجَزوا عن مُدافعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ذهَبوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢١).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) مطوَّلًا، واللفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرَةَ رَضيَ اللهُ عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى السَّبِّ والشَّتمِ، وما أشبهَ ذلك[١]!

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قدْ يُسَلِّطُ أعداءَه على المؤمِنينَ امتِحانًا وابتِلاءً، والواقِعُ كذلك، وقد يكونُ الإنسانُ كُلَّما اشتدَّ إيمانُه اشتَدَّ إيذاءُ أعداءِ اللهِ له[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: إلَّا في مُجانَبةٍ للسَّدادِ المُوصِلِ إلى الظَّفَرِ والفَوزِ، وكذا أفعالُ الفَجَرةِ مع أولياءِ اللهِ؛ ما حَفَر أحَدٌ منهم لأحَدٍ منهم حُفرةَ مَكرٍ إلَّا أرْكَسَه اللهُ فيها[٣].

٧- قولُه: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فيه البُشرى التَّامَّةُ للمُؤمنينَ بأنَّ الكُفَّارَ مهْما كادوا فإنَّ كيْدَهم ضائعٌ وهالكٌ، لنْ يَنفَعَهم، ولنْ يَسْتفيدوا منه شيئًا، وإنِ استفادوا فإنَّما يَسْتفيدون فائدةً مُؤقَّتةً؛ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤] [الأعراف: ١٢٨].

٨- في قولِه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] خوْفُ الكفَّارِ مِن سِلاحِ المؤمنينَ بالدُّعاءِ، وإنْ كان المقصودُ التَّحدِّيَ، لكنْ لا شَكَّ أنَّه قدْ فَهِم أنَّ الدُّعاءَ سِلاحٌ لمُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

٩- في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أنَّ الموجِبَ للإقدامِ على إيذاءِ النَّاسِ أمرانِ؛ أحدُهما: كوْنُ الإنسانِ مُتكبِّرًا قاسيَ القلْبِ، والثَّاني: كونُه مُنكِرًا للبعثِ والقيامةِ؛ وذلك لأنَّ المُتكبِّرَ القاسيَ قدْ يَحمِلُه طبْعُه على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص ٢٣٥).

إيذاءِ النَّاسِ، إلَّا أنَّه إذا كان مُقِرًّا بالبعثِ والحسابِ صار خوْفُه مِن الحسابِ مانعًا له مِن الجرْيِ على مُوجِبِ تَكبُّرِه، فإذا لم يَحصُلْ عنده الإيمانُ بالبعثِ والقيامةِ كانت الطَّبيعةُ داعيةً له إلى الإيذاءِ، والمانعُ -وهو الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ- زائلًا، وإذا كان الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ زائلًا، فلا جَرَمَ تَحصُلُ القسْوةُ والإيذاءُ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في قِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ[2].

- وفيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه القِصَّةُ تَزيدُ على ما أُجمِلَ مِن قَصصِ أُمَمٍ أُخرى أنَّ فيها عِبرتَينِ: عِبرةً بكَيدِ المكذِّبينَ وعِنادِهم ثمَّ هَلاكِهم، وعِبرةً بصَبْرِ المؤمنينَ وثَباتِهم ثم نَصْرِهم، وفي كِلْتا العِبرتَينِ وَعيدٌ لِقُريشٍ أنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بفِرْعونَ وقَومِه مِن نِقْماتِ اللهِ، ووَعدٌ للمؤمنينَ بالظَّفَرِ والنَّصْرِ وحُسْنِ العاقبةِ[3].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لِتَغايُرِ الوَصفَينِ، أو لإِفرادِ بعضِ المُعجزاتِ كالعَصا؛ تَفْخيمًا لِشأْنِه[4].

وقيل: إنَّ الآياتِ سُلطانٌ وحُجَّةٌ للرُّسُلِ على مَن أُرسِلوا إليهم، وعلى هذا فيكونُ عَطفُ «سلطان» على «آيات» مِن بابِ عَطْفِ الشَّيءِ على نَفسِه؛ لبيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

فائدِته وثَمرتِه؛ فالآياتُ هي السُّلطانُ، ويُستفادُ مِن الآيةِ كذلك أنَّ الآياتِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُبينةً مُظهِرةً للحَقِّ[1].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ نصَّ على هامانَ وقارونَ؛ لِمَكانتِهما في الكُفرِ، ولأنَّهما أشهَرُ أتْباعِ فِرعَونَ[2].

- قولُه: ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لم يَقولوا: سَحَّارٌ، كما قالوا: ﴿كَذَّابٌ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّه ساحرٌ، وأنَّ سَحرَتَهم أسْحَرُ منه، كما قالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧][3]، ولئَلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّه يمدَحُه بالبَراعةِ في عِلمِ السِّحرِ، فتتحَرَّكَ الهِمَمُ للإقبالِ عليه للاستِفادةِ منه[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾، أي: أظهَرَ لهم الآياتِ الحقَّ، أي: الواضحةَ، فأطلَقَ ﴿جَاءَهُم﴾ على ظُهورِ الحقِّ[5].

- وقولُه: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وَصفٌ للحقِّ؛ لإفادةِ أنَّه حقٌّ خارقٌ للعادةِ لا يكونُ إلَّا مِن تَسخيرِ اللهِ وتأْييدِه، وهو آياتُ نُبوَّتِه التِّسعُ[6].

- ووَجهُ وُقوعِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ [غافر: ٢٣] مع اتِّحادِ مُفادِ الجُملتَينِ؛ فإنَّ مُفادَ جُملةِ ﴿جَاءَهُم﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُساوٍ لِمُفادِ جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ومُفادَ قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُساوٍ لِمُفادِ قولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]-: أنَّ الأوَّلَ للتَّنويهِ برِسالةِ مُوسى وعَظَمةِ مَوقِفِه أمامَ أعظَمِ مُلوكِ الأرضِ يَومئذٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ فهو بَيانٌ لِدَعوتِه إيَّاهم وما نشَأَ عنها، وتَقديرُ الكلامِ: أرسَلْنا مُوسى بآياتِنا إلى فِرْعونَ، فلمَّا جاءهُم بالحقِّ، فسُلِكَت في هذا النَّظْمِ طَريقةُ الإطنابِ؛ للتَّنويهِ والتَّشريفِ، وجُملةُ ﴿فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ مُعترِضةٌ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ اعتِراضٌ جِيءَ به في تَضاعيفِ ما حُكِيَ عنهم مِن الأباطيلِ؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ بُطلانِ ما أظْهَروه مِن الإبراقِ والإرعادِ واضمِحْلالِه بالمرَّةِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ سُمِّيَ هذا الرَّأيُ كَيدًا؛ لأنَّهم تَشاوَروا فيه فيما بيْنهم دونَ أنْ يَعلَمَ بذلك مُوسى والذين آمَنوا معه، وأنَّهم أضْمَروه ولم يُعْلِنوه، ثُمَّ شغَلَهم عن إنفاذِه ما حَلَّ بهم مِن المصائبِ التي ذُكِرت في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ...﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٠]، ثُمَّ بقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآيةَ[٣].

- واللَّامُ في ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ للعهْدِ، والإظهارُ في مَوضعِ الإضمارِ فلمْ يقُلْ: (وما كيدُهم)؛ لِذمِّهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ وتَعميمِه، أو تكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

للجِنْسِ، وهم داخِلون فيه دُخولًا أوَّليًّا[(١)]؛ فتدبَّرْ هذه النُّكتةَ التي يَكثُرُ مُرورُها في كِتابِ اللهِ تعالَى: إذا كان السِّياقُ في قِصَّةٍ مُعَيَّنةٍ أو على شَيءٍ مُعَيَّنٍ، وأرادَ اللهُ أن يحكُمَ على ذلك المُعَيَّنِ بحُكمٍ لا يختَصُّ به، ذكَرَ الحُكْمَ وعلَّقَه على الوَصفِ العامِّ؛ لِيَكونَ أعَمَّ، وتندَرِجَ فيه الصُّورةُ التي سِيقَ الكلامُ لأجْلِها، ولِيَندفِعَ الإيهامُ باختِصاصِ الحُكم بذلك المعَيَّنِ؛ فلهذا لم يَقُلْ: (وما كيدُهم إلَّا في ضَلالٍ)، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

- ومعنى ﴿ذَرُونِىٓ﴾ إعْلامُهم بعَزْمِه بضَرْبٍ مِن إظْهارِ مَيلِه لذلك، وانتظارِه الموافَقةَ عليه، بحيث يُمثِّلُ حالَه وحالَ المخاطَبينَ بحالِ مَن يُريدُ فِعلَ شَيءٍ فيُصَدُّ عنه، فلِرَغبتِه فيه يقولُ لِمَن يَصُدُّه: دَعْني أفعَلْ كذا؛ لأنَّ ذلك التَّركيبَ ممَّا يُخاطَبُ به الممانِعُ والملائِمُ، ثمَّ استُعْمِلَ هذا في التَّعبيرِ عن الرَّغبةِ ولم يكُنْ ثَمةَ مُعارِضٌ أو مُمانِعٌ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في هذا وما يُرادِفُه، مِثلُ: دَعْني وخَلِّني، وذلك يَستتبِعُ كِنايةً عن خَطَرِ ذلك العمَلِ وصُعوبةِ تَحصيلِه؛ لأنَّ مِثلَه ممَّا يَمنَعُ المستَشارُ مُستشيرَه مِن الإقدامِ عليه، وكان قولُه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تَمويهًا على قَومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الذين يَكُفُّونه، وما كان يَكُفُّه إلَّا ما في نفْسِه مِن هَولِ الفزَعِ -وذلك على قولٍ-؛ ولذلك عطَفَ عليه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾؛ لأنَّ موسى خوَّفَهم عذابَ اللهِ، وتحدَّاهم بالآياتِ التِّسعِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ويُنظر أيضًا: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) =

- ولامُ الأمْرِ في ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، وإظهارِ التَّجلُّدِ، وعدَمِ الاكتراثِ بدُعاءِ مُوسى ربَّه. وقيل: المقصودُ بالأمْرِ هنا التَّعجيزُ، بزَعْمِه(١).

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ تَعليلٌ للعزْمِ على قتْلِ مُوسى، والإضافةُ في قولِه: ﴿دِينَكُمْ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم أَولى بالذَّبِّ عن الدِّينِ، وإنْ كان هو دِينَه أيضًا، لكنَّه تَجرَّدَ في مُشاوَرتِهم عن أنْ يكونَ فيه مُراعاةٌ لِحَظِّ نفْسِه، كما قالوا همْ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ وذلك كلُّه إلهابٌ وتَحضيضٌ(٢).

- قولُه: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ معنى إظهارِ مُوسى الفَسادَ عِندَهم أنَّه يَتسبَّبُ في ظُهورِه بدَعوتِه إلى تَغييرِ ما همْ عليه مِن الدِّيانةِ والعوائدِ، وعُبِّرَ بالإظهارِ عن الفُشُوِّ والانتشارِ(٣).

- ولَمَّا كان حُبُّ النَّاسِ لأديانِهم فَوقَ حُبِّهم لأموالِهم، لا جَرَمَ بدأ فِرعَونُ بذِكرِ الدِّينِ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قيل: هذا حِكايةُ كَلامٍ صَدَرَ مِن مُوسى في غَيرِ حَضْرةِ فِرعونَ؛ لأنَّ مُوسَى لم يكُنْ ممَّن يَضُمُّه مَلأُ استشارةِ فِرعونَ حين قال لِقَومِه: ﴿ذَرُونِيٓ

= (٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٤، ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، ولكنَّ مُوسى لَمَّا بلَغَه ما قالَه فِرعونُ في مَلَئِه، قال مُوسى في قُومِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ ولذلك حُكِيَ فِعلُ قولِه مَعطوفًا بالواوِ؛ لأنَّ ذلك القولَ لم يقَعْ في مُحاوَرةٍ مع مَقالِ فِرعونَ، بخِلافِ الأقوالِ المحكيَّةِ في سُورةِ (الشُّعراءِ) مِن قولِه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، إلى قولِه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٨ - ٣١].

- قولُه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بـ(إنَّ) تأْكيدًا، وإظْهارًا لِمَزيدِ الاعتناءِ بمَضمونِه، وفرْطِ الرَّغبةِ فيهِ، وإشْعارًا أنَّ السَّببَ المؤكِّدَ في دفْعِ الشَّرِّ هو العِياذُ باللهِ[2]. وأيضًا تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) مُتوجِّهٌ إلى لازِمِ الخبَرِ؛ وهو أنَّ اللهَ ضمِنَ له السَّلامةَ، وأكَّدَ ذلك؛ لِتَنزيلِ بعْضِ قَومِه -أو جُلِّهم- مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك لِما رَأى مِن إشفاقِهم عليه[3].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ خَصَّ اسمَ الرَّبِّ؛ لأنَّ المطلوبَ هو الحِفظُ والتَّربيةُ، وأضافَه إليه وإليهم؛ حثًّا لهم علَى مُوافَقتِه؛ لِما في تَظاهُرِ الأرواحِ مِن استِجلابِ الإجابةِ. وللإيماءِ إلى أنَّ عليهم ألَّا يَجْزَعوا مِن مُناوأةِ فِرْعونَ لهم، وأنَّ عليهم أنْ يَعوذوا باللهِ مِن كلِّ ما يُفْظِعُهم؛ ففيه إيماءٌ إلى تَوجيهِ العَوذِ به؛ لأنَّ العبْدَ يَعوذُ بمَولاهُ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

- وقولُه: ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَشمَلُ فِرْعونَ وغيرَه مِن الجَبابرةِ، ولكنَّه قال ذلك على طَريقِ التَّعريضِ؛ فكان أبلَغَ، وجُعِلَت صِفةُ ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ مُغنيةً عن صِفةِ الكُفْرِ أو الإشراكِ؛ لأنَّها تَتضمَّنُ الإشراكَ وزِيادةً؛ لأنَّه إذا اجتمَعَ في الرَّجلِ التَّجبُّرُ والتَّكذيبُ بالجزاءِ، قلَّت مُبالاتُه بعواقبِ أعمالِه؛ فكمَلَتْ فيه أسبابُ القسْوةِ والجُرأةِ على اللهِ وعِبادِه، ولم يَترُكْ عَظيمةً إلَّا ارْتكَبَها[١]. وقيل: لم يَذكُرْ فِرعَونَ في هذا الدُّعاءِ؛ لأنَّه كان قد سَبَق له حَقُّ تَربيةٍ على موسى مِن بَعضِ الوُجوهِ، فتَرَكَ التَّعيينَ رِعايةً لذلك الحَقِّ[٢].

- قولُه: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَعْني يوْمَ القِيامةِ، وعدَلَ عن (يوْم القيامةِ) إلى (يوْم الحسابِ)؛ لأنَّ الحسابَ أشدُّ خوْفًا مِن (يوْم القيامةِ)، إذا قِيل للإنسانِ: إنَّك سوْفَ تُحاسَبُ على ما عَمِلْتَ مِن خيْرٍ وشَرٍّ؛ فإنَّه سوْفُ يَخافُ ويَوجَلُ، ويَستقيمُ؛ فيَرتدِعُ عن المعاصي، ويَقومُ بالأوامرِ[٣].

- ومِن بَلاغةِ القُرآنِ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى يُكرِّرُ ذِكرَ قِصَّةِ مُوسى، ويَبسُطُها تارةً، ويَختصِرُها تارةً، ويُنوِّعُها؛ فقدْ جَمَعت بيْن الكثرةِ والتَّنويعِ مِن حيث الأسلوبُ والتَّنويعُ مِن حيث البسْطُ والاختصارُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عاش في قومٍ مُشركين أوَّلَ الرِّسالةِ، وفي قوْمٍ يَهودَ بعْدَ الهجرةِ، ولهذا جاءت السُّوَرُ المكِّيَّةُ يُذكَرُ فيها قِصَّةُ مُوسى ببسْطٍ واختصارٍ تارةً؛ لأجْلِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٣٧).

يَتهيَّأَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمجادَلةِ اليهودِ الذين سَتكونُ الهجرةُ إلى بلدٍ همْ ساكنونَ فيه، ولهذا لا تَجِدُ قِصَّةَ نَبيٍّ مِثلَ قِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لا في تَنوُّعِها، ولا في تَكرارِها، ولا في أُسلوبِها[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٠).

الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

غريبُ الكلماتِ:

﴿مُسْرِفٌ﴾: السَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُ (سرف): تعدِّي الحَدِّ[1].

﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: أي: عذابِه، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما شابَهها[2].

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: وقال رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُسِرُّ إيمانَه باللهِ: أتَقتُلونَ موسى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ، وقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحةِ مِن رَبِّكم؟! وإنْ كان كاذِبًا في دَعواه فعليه ضَرَرُ كَذِبِه، وإنْ كان صادِقًا في دَعواه فكَذَّبتُموه يُصِبْكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويُهدِّدُكم به مِنَ العُقوباتِ، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو مُتجاوِزٌ للحَدِّ، كذَّابٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ؛ فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم إلَّا بما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحقُّ والصوابُ، وما أدعوكم إلَّا إلى طريقِ الحَقِّ والسَّدادِ!

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا حكَى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه ما زاد في دَفْعِ مَكْرِ فِرعَونَ وشَرِّه على الاستِعاذةِ باللهِ؛ بيَّنَ أنَّه تعالَى قيَّضَ إنسانًا آخَرَ غيرَ موسى حتى ذَبَّ عنه على أحسَنِ الوُجوهِ، وبالغَ في تَسكينِ تلك الفِتنةِ، واجتهَدَ في إزالةِ ذلك الشَّرِّ(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وقال رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُخفي عنهم إيمانَه باللهِ وبنُبُوَّةِ موسى: كيفَ تستَحِلُّون قتْلَ موسَى من أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ؟! فاقبَلوا قَولَه أو ارفُضوه؛ فإنَّه لا ذنْبَ له يَستحِقُّ به القتلَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣، ٣٨٤).

عن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرٍو عن أشَدِّ ما صنَعَ المُشرِكونَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ جاء إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُصَلِّي، فوضَعَ رِداءَه في عُنُقِه فخَنَقَه به خَنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتَّى دفَعَه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟!))[١].

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: ولم يكُنْ قولُه أيضًا مجرَّدًا عن البيِّناتِ؛ فقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ، فلِمَ تَستحِلُّونَ قَتْلَه[٢]؟!

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾.

أي: وإنْ كان موسى كاذِبًا في دعواه فإنَّما يَعودُ ضَرَرُ كَذِبِه عليه، وليسَ عليكم في ذلِك ضَرَرٌ[٣].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

أي: وإنْ كان موسى صادِقًا في دعواه فكذَّبتُموه، فلا بُدَّ أن يُصيبَكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويَتهدَّدُكم به مِن العُقوباتِ؛ فلا حاجةَ لكم -إذَنْ- إلى قَتْلِه[٤]!

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).
=

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَهدي للحَقِّ مَن هو مُظهِرٌ للفَسادِ، مُتجاوِزٌ للحَدِّ، مُفترٍ للكَذِبِ(١).

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا أقام أنواعَ الدَّلائِلِ على أنَّه لا يجوزُ الإقدامُ على قَتلِ موسى؛ خوَّفَهم في ذلك بعَذابِ اللهِ(٢).

وأيضًا لَمَّا توسَّمَ نُهوضَ حُجَّتِه بيْنَهم، وأنَّها داخَلَت نُفوسَهم، أَمِن بأْسَهم، وانتهَزَ فُرصةَ انكسارِ قُلوبِهم، فصارَحَهم بمَقصودِه مِن الإيمانِ بمُوسى؛ على سَنَنِ الخُطباءِ وأهْلِ الجدَلِ بعْدَ تَقريرِ المقدِّماتِ والحُجَجِ أنْ يَهْجُموا على الغرَضِ المقصودِ، فوعَظَهم بهذه الموعظةِ(٣).

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿يَعِدُكُمْ﴾: العذابُ الذي توعَّدهم به موسى عليه السَّلامُ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فهو يَشمَلُ ما وعَدَهم مِن الخيرِ إنْ وافَقوه، وما وعدَهم مِنَ الشَّرِّ إنْ خالَفوه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال الشوكانيُّ: (هذا مِن تمام كلام الرَّجُلِ المؤمِنِ، وهو احتِجاجٌ آخَرُ ذو وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّه لو كان مُسرِفًا كذَّابًا لَما هداه اللهُ إلى البيِّناتِ، ولا أيَّده بالمُعجِزاتِ. وثانيهما: أنَّه إذا كان كذلك خذَلَه اللهُ وأهلَكَه، فلا حاجةَ لكم إلى قَتْلِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١-١٣٢).

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ، والعُلُوُّ على أهلِها(١).

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

أي: فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! فقُوَّتُنا لنْ تنفَعَنا شَيئًا إنْ جاءَتْنا عُقوبةُ اللهِ(٢).

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

أي: قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم ولا أقولُ لكم إلَّا ما أعتقِدُه، وأرَى أنَّه هو الحَقُّ والصَّوابُ، فلا أُظهِرُ لكم شيئًا خِلافَ ما أُبطِنُه(٣)!

﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

أي: وما أدْعوكم إلَّا إلى طَريقِ الحَقِّ والسَّدادِ(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال القُرطبي: (﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: مِن عذابِ اللهِ؛ تحذيرًا لهم مِن نِقَمِه إنْ كان موسى صادقًا، فذكَّر وحذَّر، فعلِم فِرعَونُ ظُهورَ حُجَّتِه، فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ مُراعاةُ الخَصمِ فيما يُؤَلِّفُه ويُقَرِّبُه؛ لأنَّه بدَأَ بما كانوا يَعتَقِدونَ، وهو كَذِبُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فبدَأَ بالكَذِبِ قبلَ أنْ يَبدَأَ بالصِّدقِ؛ مِن أجْلِ تأليفِهم؛ ولم يَبدَأْ بالصِّدقِ الذي هو أحدُ الاحتِمالَينِ[1]، تلَطُّفًا في الاستِكفافِ -أي: طلَبِ الكَفِّ عن موسى عليه السَّلامُ-، واستِنزالًا عن الأذَى، فلمْ يكُنْ ذلك لشَكٍّ منه في رِسالتِه وصِدقِه[2].

٢- في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] إشارةٌ إلى أنَّ الإصرارَ على المعاصي، والكَذِبَ، والارتيابَ في الدِّين قدْ يكونُ سببًا لسَدِّ أبوابِ الهِدايةِ عن العَبدِ، بخِلافِ الطَّاعةِ فإنَّها تَفتَحُ بابَ الهُدَى؛ لأنَّها شُكرٌ، وقدْ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، والنِّعمةُ قَيْدُها شُكرُها، وفي كُفرانِها تعريضٌ لها للزَّوالِ، وذلك إنَّما أورده مؤمنُ آلِ فِرعونَ على سَبيلِ النَّصيحةِ لهم والتَّحذيرِ، وهو مِن الحِكَمِ البالِغةِ، وفيه أنَّ مِن أحوالِ الصِّدِّيقينَ النُّطقَ بالحِكمةِ[3].

٣- قولُه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فيه حُسْنُ احترازِ هذا الرَّجُلِ المؤمنِ؛ فقال: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: وأمَّا في المستقبلِ فقد يَزُولُ مُلْكُكم؛ لكنِ اشكُروا

= كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٠).

قال الشنقيطيُّ: (كان غَرَضُ فِرعَونَ بهذا الكَذِبِ التَّدليسَ والتَّمويهَ؛ لِيَظُنَّ جَهَلةُ قَومِه أنَّ معه الحَقَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠٢).

النِّعمةَ الحاضِرةَ، وذِكْرُ حُسْنِ خَطابةِ هذا الرَّجُلِ أو احترازاتِه أو ما أشبهَ ذلك؛ ليس معناه الإخبارَ عن قِصَّةٍ مَضَتْ وتاريخٍ مَضَى! لا، وإنَّما مِن أجْلِ أخْذِ العِبرةِ والسَّيْرِ عليها؛ لأنَّ الثَّناءَ على هذا الرَّجُلِ بخِطابِه ومُعالجتِه للأُمورِ يعني الحَثَّ على اتِّباعِ طريقِه[١].

٤- قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فيه التَّلَطُّفُ بالخِطابِ حتى يُشعِرَ الإنسانَ المخاطَبَ وكأنَّه هو أوَّلُ مَن يُرادُ بهذا الأمرِ أو بهذا الخِطابِ؛ فقال: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ ولم يَقُلْ: فمَن يَنصرُكم مِن بأسِ اللهِ إنْ جاءَكم! كلُّ هذا مِن بابِ التَّنَزُّلِ مع هؤلاء؛ وإشعارِهم بأنَّه واحدٌ منهم[٢]، فأدرَجَ نَفْسَه فيهم عندَ ذِكرِ الشَّرِّ بعدَ إفرادِه لهم بالمُلْكِ؛ إبعادًا للتُّهمةِ[٣]، وتَطْييبًا لِقُلوبِهم، وإيذانًا بأنَّه مُناصِحٌ لهم، ساعٍ في تَحصيلِ ما يُجْديهم، ودَفْعِ ما يُرْديهم سَعْيَه في حَقِّ نفْسِه؛ لِيتأثَّروا بنُصْحِه، ولِيُرِيَهم أنَّه يأبَى لِقَومِه ما يَأْباه لِنَفسِه، وأنَّ المصيبةَ إنْ حلَّتْ لا تُصِيبُ بعْضَهم دونَ بعضٍ[٤].

٥- في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] إشارةٌ إلى أنَّ من شأنِ الصِّدِّيقينَ التَّذكرةَ بالنِّعمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص:٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).
ذكَر ابنُ عثيمين أنَّه قد يُقالُ: إنَّ في هذا إشارةً إلى أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ الصالحَ والفاسدَ؛ ويكونُ قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُرادُ به حقيقتُه، أي: أنَّه هو سيُصيبُه ما أصابَهم، وشاهِدُه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ثم قال: (وهذا ليس ببعيدٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص:٢٥٥).

وأنَّها يَنبغي أنْ تُعرَفَ وتُشكَرَ، ولا تُكفَرَ؛ لتدومَ، أو لتُحمدَ عواقِبُها، والتحذيرَ مِن الاغترارِ بالمُلكِ، والحولِ والقوَّةِ، والظهورِ والغَلَبةِ حَذرًا مِن غِبِّ ذلك[١].

٦- في خِطابِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: أنَّ مِن شأنِ الصِّدِّيقينَ النَّصيحةَ، والنُّصرةَ للدِّينِ والحقِّ، ولأولياءِ اللهِ تعالَى، والأمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المُنكَرِ، والأخْذَ بيَدِ المظلومِ، والتَّلطُّفَ في الإنكارِ على الظالمِ إذا كان ذا شَوكةٍ وغَلبةٍ، والتأنُّقَ في الاحتِيالِ للتخليصِ منه، ومُناظرتَه في أثناءِ ذلك على ألْطَفِ الوُجوهِ وأوْضَحِها في بَيانِ الحقِّ والإلزامِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فيه أنَّ اللهَ يُقيِّضُ لِعبادِه الصَّالحينَ حُماةً عِندَ الشَّدائدِ[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ فيه جَوازُ إخفاءِ الإيمانِ إذا خاف الإنسانُ على نَفسِه؛ لِقولِه: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ولكنْ إذا كان الإنسانُ لا يَستطيعُ أن يَعيشَ مُؤمِنًا إلَّا بالكِتمانِ؛ فإنَّه في دِينِ الإسلامِ تَجِبُ عليه الهِجرةُ، ولكنْ بشَرطِ أنْ يكونَ قادِرًا عليها، فإنْ كان عاجِزًا فإنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾[٤] [النساء: ٩٨، ٩٩].

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ... ﴾ فيه استِدراجُ المُخاطَبِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا رأى فِرعَونَ قد عزَمَ على قَتلِ موسى، والقَومَ على تَكذيبِه؛ أراد الانتِصارَ له بطَريقٍ يُخفي عليهم بها أنَّه مِن أتْباعِه، فجاءَهم مِن طَريقِ النُّصحِ والملاطَفةِ، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾، ولم يذكُرِ اسمَه، بلْ قال: ﴿رَجُلًا ﴾ يُوهِمُ أنَّه لا يَعرِفُه ولا يُدافِعُ عنه، ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾، ولم يَقُلْ: (رجُلًا مُؤمِنًا باللهِ)، أو (هو نَبيُّ اللهِ)؛ إذ لو قال شيئًا مِن ذلك لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، ولم يَقبَلوا قَولَه؛ ثمَّ أتْبَعَه بما بعدَ ذلك، فقَدَّمَ قَولَه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾؛ مُوافَقةً لِرَأيِهم فيه، ثمَّ تلاه بقَولِه: ﴿وَإِن يَكُ صَٰدِقًا ﴾، ولو قال: هو صادِقٌ في كُلِّ ما يَعِدُكم لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، وأنَّه يَزعُمُ أنَّه نبيٌّ، وأنَّه يُصَدِّقُه؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُخِلُّ بشَيءٍ ممَّا يَقولونَه؛ ثمَّ أتبَعَه بكَلامٍ يُفهَمُ منه أنَّه ليس بمُصَدِّقٍ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[١].

٤- قولُه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ فيه الإنكارُ على مَن عَمِلَ عمَلًا بدونِ سَببٍ يَقتضيه؛ وقولُ الإنسانِ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ ليس سَببًا للقتْلِ! بلْ على الأقلِّ يُترَكُ وشأنَه، أمَّا أنْ يُقتَلَ لهذا السَّببِ، فإنَّ هذا مُنكَرٌ، ولا يجوزُ إقرارُه[٢].

٥- قَولُه: ﴿وَإِن يَكُ صَٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: يَسبِقُ إلى الذِّهنِ في هذه الآيةِ تَوهُّمُ المنافاةِ بيْنَ الشَّرطِ والجزاءِ في البَعضِ؛ لأنَّ المناسِبَ لاشتراطِ الصِّدقِ هو أنْ يُصيبَهم جَميعُ الذي يَعِدُهم لا بَعضُه، مع أنَّه تعالَى لم يَقُل: (وإن يكُ صادِقًا يُصِبْكم كلُّ الذي يَعِدُكم)!

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٤).

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالبَعضِ الذي يُصيبُهم هو: البَعضُ العاجِلُ الذي هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّهم أشَدُّ خَوفًا مِن العذابِ العاجِلِ، ولأنَّهم أقرَبُ إلى التَّصديقِ بعذابِ الدُّنيا منهم بعذابِ الآخِرةِ(١)، وتكونُ (بعض) باقيةً على مَعناها؛ لأنَّه وعَدَهم على كُفرِهم الهلاكَ في الدُّنيا، والعذابَ في الآخرةِ؛ فهلاكُهم في الدُّنيا بعضُ ما وعَدَهم به(٢).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: إنْ يكُ صادِقًا فلا أقَلَّ مِن أن يُصيبَكم بعضُ الذي يَعِدُكم، وعلى هذا فالنُّكتةُ هي المُبالَغةُ في التَّحذيرِ؛ لأنَّه إذا حَذَّرهم مِن إصابةِ البَعضِ أفاد أنَّه مُهلِكٌ مَخُوفٌ، فما بالُ الكُلِّ؟! وفيه إظهارٌ لكَمالِ الإنصافِ، وعدَمِ التعَصُّبِ؛ ولذا قدَّم احتِمالَ كَونِه كاذِبًا.

الوَجهُ الثَّالِثُ: أنَّ لَفظةَ (البعض) يُرادُ بها الكُلُّ؛ وعليه فمعنَى ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾: كُلُّ الذي يَعِدُكم(٣).

الوَجهُ الرَّابعُ: أنَّ المعنى: وإنْ تَبيَّنَ لكم صِدقُه يُصِبْكم بعضُ ما توعَّدَكم به، أي: تُصِبْكم بوارِقُه، فتَعلَموا صِدقَه فتتَّبِعوه، وهذا وَجهُ التَّعبيرِ بـ(بعض) دونَ أن يقولَ: (يُصِبْكم الَّذي يَعِدُكم به)(٤).

الوَجهُ الخامس: أنَّه أثبَتَ أنَّه صادِقٌ في جَميعِ ما يَعِدُ، ولكنَّه أرْدَفَه ﴿يُصِبۡكُم

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠، ٥٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠).

﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾؛ لِيَهضِمَه بعضَ حَقِّه في ظاهِرِ الكلامِ، فيُريهم أنَّه ليس بكلامِ مَن أعطاه حَقَّه وافيًا، فضلًا أنْ يَتعصَّبَ له، أو فضْلًا عن أنْ يَذُبَّ عنه[1].

٦- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ فيه أنَّ الذي وَصْفُه السَّرَفُ والكَذِبُ لا يَنفَكُّ عنهما: لا يَهدِيه اللهُ، ولا يُوَفِّقُه للخيرِ؛ لأنَّه رَدَّ الحَقَّ بعْدَ أنْ وَصَل إليه وعَرَفه، فجزاؤُه أن يُعاقِبَه اللهُ بأنْ يمنَعَه الهُدى، كما قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] [البقرة: ٢٥٨].

٧- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أدخَلَ قَومَه في الخِطابِ فناداهم؛ لِيَستهويَهم إلى تَعضيدِه أمامَ فِرعَونَ، فلا يَجِدَ فِرعَونُ بُدًّا من الانصياعِ إلى اتِّفاقِهم وتَظاهُرِهم، وأيضًا فإنَّ تَشريكَ قَومِه في الموعظةِ أدخَلُ في بابِ النَّصيحةِ[3].

٨- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ المقصودُ: تخويفُ فِرعَونَ مِن زَوالِ مُلكِه، ولكِنَّه جعَلَ المُلْكَ لِقَومِه؛ لِتَجنُّبِ مُواجَهةِ فِرعَونَ بفَرضِ زَوالِ مُلكِه[4]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المُلكَ إنْ لم يَحُطْه صاحبُه بالعدلِ والإنصافِ، والكفِّ عن الجَورِ والانكفافِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتعرِّضٌ لزوالِ مُلكِه، بلْ لنزولِ هُلْكِه[١].

٩- قال تعالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ تفطَّنَ فِرْعونُ إلى أنَّه المعرَّضُ به في خِطابِ الرَّجلِ المؤمِنِ قومَه، فقاطَعَه كلامَه، وبيَّن سبَبَ عَزْمِه على قتْلِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ بأنَّه ما عرَضَ عليهم ذلك إلَّا لأنَّه لا يَرى نفْعًا إلَّا في قتْلِ مُوسى، ولا يَستصوبُ غيرَ ذلك، ويَرى ذلك هو سَبيلَ الرَّشادِ، وكأنَّه أراد ألَّا يَترُكَ لِنَصيحةِ مُؤمنِهم مَدْخلًا إلى نُفوسِ مَلَئِه؛ خِيفةَ أنْ يَتأثَّروا بنُصْحِه، فلا يُساعِدوا فِرْعونَ على قتْلِ مُوسى[٢].

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ...﴾ قيل: عَطْفُ قولِ هذا الرَّجلِ يَقْتضي أنَّه قال قولَه هذا في غيرِ مَجلِسِ شُورى فِرعونَ؛ لأنَّه لو كان قولُه جاريًا مَجرَى المحاوَرةِ مع فِرعونَ في مَجلِسِ استشارتِه، أو كان أجابَ به عن قولِ فِرْعونَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]؛ لكانتْ حِكايةُ قَولِه بدونِ عطْفٍ على طَريقةِ المُحاوراتِ[٣].

- وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتَى بـ﴿رَجُلًا﴾ النَّكرةِ؛ إبهامًا للأمْرِ، وشِدَّةً في إخفائِه، وإبعادًا للتُّهمةِ عن نفْسِه؛ لئلَّا يظُنَّ أحدٌ أنَّه كان يَعرِفُ مُوسى، وأنَّه

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢٧، ١٢٨).

يُدافِعُ عنه عن مَعرفةٍ[(١)].

- وأرادَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ...﴾ إلى آخرِه أنْ يَسْعى لحِفْظِ مُوسى مِن القتْلِ بفَتْحِ بابِ المجادَلةِ في شأنِه؛ لِتَشكيكِ فِرْعونَ في تَكذيبِه بمُوسى[(٢)].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتَبكيتٍ لهم، أي: يَقبُحُ بكم أنْ تَقتُلوا رجُلًا لأنَّه يقولُ: ربِّيَ اللهُ، أي: ولم يُجبِرْكم على أنْ تُؤمنوا به، ولكنَّه قال لكم قولًا، فاقْبَلوه أو ارْفُضوه، فهذا مَحمَلُ قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الذي يَدلُّ على حصْرِ الرُّبوبيَّةِ في اللهِ سُبحانه[(٣)].

- وقولُه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ المُقدَّرةِ، والتقديرُ: لِأنْ يقولَ. وذكَرَ اسمَ (اللهِ)؛ لأنَّه الذي ذكَرَه مُوسى ولم يكُنْ مِن أسماءِ آلهةِ القِبْطِ[(٤)].

- قولُه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ارْتقاءٌ في الحِجاجِ بعْدَ أنِ استأْنَسَ في خِطابِ قَومِه بالكلامِ الموجَّهِ، فارْتَقى إلى التَّصريحِ بتَصديقِ مُوسى بعِلَّةِ أنَّه جاء بالبيِّناتِ، أي: الحُجَجِ الواضحةِ بصِدْقِه، وإلى التَّصريحِ بأنَّ الذي سمَّاه اللهُ في قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هو ربُّ المخاطَبينَ فقال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَ الربَّ إليهم بعدَ ذِكرِ البيِّناتِ احتجاجًا عليهم، واستنزالًا لَهمُ عن رُتبةِ المكابرةِ، واستدراجًا لهم إلى الاعتِرافِ به، ثمَّ أخذَهُم بالاحتجاجِ مِن بابِ الاحتياطِ فقالَ: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾[١].

- قولُه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ...﴾ الآيَةَ، كلامٌ مُنصِفٌ؛ فقدِ استَدْرَجَهم هذا الرَّجلُ المؤمِنُ باستشهادِه على صِدْقِ مُوسى عليه السَّلامُ مِن عِندِ مَن تُنسَبُ إليه الرُّبوبيَّةُ ببيِّناتٍ عدَّةٍ لا ببيِّنةٍ واحدةٍ، وأتَى بها مَعرِفةً؛ لِيُليِّنَ بذلك جِماحَهم[٢]، ويَكسِرَ مِن سَوْرتِهم -أي: سَطوتِهم واعتدائِهم-، ثم أخَذَهم بالاحتِجاجِ بطَريقِ التَّقسيمِ، فقال: لا يَخْلو أنْ يكونَ صادقًا أو كاذبًا؛ فإنْ يَكُ كاذبًا فضَرَرُ كِذبِه عائدٌ عليه، أو صادِقًا فأنتم مُستهْدَفون لإصابتِكم ببَعضِ ما يَعِدُكم به، وهذا فيه مُبالَغةٌ في التَّحذيرِ، وإظهارٌ للإنصافِ وعدَمِ التَّعصُّبِ. وكذلك قدَّمَ الكاذِبَ على الصَّادقِ لهذا الغرَضِ، وزيادةً في التَّباعُدِ عن ظنِّهم به الانتصارَ لِمُوسى، فأرادَ أنْ يَظهَرَ في مَظهَرِ المهتَمِّ بأمْرِ قَومِه ابتداءً[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يجوزُ أنَّها مِن قولِ مُؤمنِ آلِ فِرْعونَ، فالمقصودُ منها تَعليلُ قولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) الجَموحُ مِن الرِّجال: الذي يركَبُ هواه فلا يُمكِن رَدُّه. ويُقَالُ: جَمَحَ وطَمَحَ: إذا أَسْرَع ولَمْ يَرُدَّ وجهَه شيءٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٦٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٠، ٤٨١).

يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، أي: لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّه على كذِبِه؛ فإنْ كان كاذبًا على اللهِ، فلا يَلبَثُ أنْ يَفتضِحَ أمْرُه أو يُهلِكَه؛ لأنَّ اللهَ لا يُمهِلُ الكاذبَ عليه، ولأنَّه إذا جاءَكم بخَوارقِ العاداتِ فقدْ تبيَّنَ صِدْقُه؛ لأنَّ اللهَ لا يَخرِقُ العادةَ بعْدَ تَحدِّي المتحدِّي بها إلَّا لِيَجعَلَها أمارةً على أنَّه مُرسَلٌ منه؛ لأنَّ تَصديقَ الكاذبِ مُحالٌ على اللهِ تعالَى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن كلاميْ مُؤمنِ آلِ فِرعونَ ليستْ مِن حِكايةِ كلامِه، وإنَّما هي قولٌ مِن جانبِ اللهِ في قُرآنِه، يُقصَدُ منها تَزكيةُ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ إذ هداهُ اللهُ للحقِّ، وأنَّه تقِيٌّ صادقٌ؛ فيكونُ نفْيُ الهِدايةِ عن المسرِفِ الكذَّابِ كِنايةً عن تقْوى هذا الرَّجلِ وصِدْقِه؛ لأنَّه نطَقَ عن هدًى، واللهُ لا يُعْطي الهدَى مَن هو مُسرِفٌ كذَّابٌ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى عُلوِّ شأْنِ مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّ مَن اصطفاهُ اللهُ للنُّبوَّةِ لا يُمكِنُ أنْ يقعَ منه إسرافٌ ولا كذِبٌ، وفيه تَعريضٌ بفِرْعونَ؛ إذ هو غايةُ الإسرافِ على نفْسِه بقتْلِ أبناءِ المؤمنينَ، وفي غايةِ الكذِبِ؛ إذ ادَّعى الإلهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، ومَن هذا شأْنُه لا يَهْديه اللهُ[(٢)].

- والمسْرِفُ: مُتجاوزُ المعروفِ في شَيءٍ؛ قيل: المُرادُ هنا مُسرِفٌ في الكذِبِ؛ لأنَّ أعظَمَ الكذِبِ أنْ يكونَ على اللهِ. وإذا كان المرادُ الإسرافَ في الكذِبِ، تعيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿كَذَّابٌ﴾ عطْفُ بَيانٍ وليس خبَرًا ثانيًا؛ إذ ليس ثَمَّةَ إسرافٌ هنا غيرَ إسرافِ الكذِبِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ ابتدَأَ بنُصْحِ فِرعونَ لأنَّه الذي بيَدِه الأمْرُ والنَّهيُ، وثنَّى بنَصيحةِ الحاضرينَ مِن قَومِه؛ تَحذيرًا لهم مِن مَصائبَ تُصيبُهم مِن جرَّاءِ امتثالِهم أمْرَ فِرْعونَ بقتْلِ مُوسى؛ فإنَّ ذلك يُهِمُّهم كما يُهِمُّ فِرْعونَ، ولا يَخْفى ما في نِدائهم بعُنوانِ أنَّهم قومُه مِن الاستصغاءِ لِنُصْحِه، وتَرقيقِ قُلوبِهم لِقَولِه[١].

- وابتدَأَ الموعظةَ بقولِه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فناداهمْ بالمُلْكِ الذي هو أعظَمُ مَراتبِ الدُّنيا، ونسَبَ ما يسُرُّهم مِن المُلكِ والظُّهورِ في الأرضِ إليهم خاصَّةً، وهذا خِطابٌ مِن جهةِ شَهواتِهم، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ عليهم، وتَمهيدٌ لِتَخويفِهم من غضَبِ اللهِ، يعني: لا تَغُرَّنَّكم عظَمَتُكم ومُلْكُكم؛ فإنَّهما مُعرَّضانِ للزَّوالِ إنْ غضِبَ اللهُ عليكم[٢].

- و(مَن) في قولِه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن كلِّ ناصرٍ؛ فالمعنَى: فلا نصْرَ لنا مِن بأْسِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لكونِ كلامِ فِرْعونَ صدَرَ مَصدرَ المقاطَعةِ لِكلامِ المؤمِنِ، جاء فِعلُ قَولِ فِرْعونَ مَفصولًا غيرَ مَعطوفٍ، وهي طريقةُ حِكايةِ المقاوَلاتِ والمحاوَرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إضافةُ السَّبيلِ إلى الرَّشادِ معناه أي: ما أَهْدِيكم وأُشِيرُ عليكم إلَّا بعمَلٍ فيه رَشادٌ، وكأنَّه يُعرِّضُ بأنَّ كلامَ مُؤمِنِهم سَفاهةُ رأْيٍ، وأتَى بـ(ما - وإلَّا) للحصْرِ والتَّأكيدِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

الآيات (٣٠-٣٥)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ
نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ
يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ
٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ
مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿دَأۡبِ﴾: أي: عادةِ وشَأنٍ، وأمْرٍ، وفِعلٍ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على ملازَمةٍ ودوامٍ، يُقالُ: دأبْتُ في الأمرِ دأبًا: إذا أدمنْتَ العملَ والتَّعبَ فيه(١).

﴿تُوَلُّونَ﴾: أي: تهرُبونَ، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ(٢).

﴿مُدۡبِرِينَ﴾: أي: هاربينَ، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ(٣).

﴿مُّرۡتَابٌ﴾: أي: شاكٌّ، والرَّيبُ: الشَّكُّ(٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، =

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمنْ تراه تعاطى القَبيحَ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّه في مَحَلِّ نَصبٍ، بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ في قَولِه: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وإنَّما جُمِع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اعتبارًا بمعنَى ﴿مَنْ﴾. **الثاني**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، ويكونُ فاعلُ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرًا عائدًا على جِدالِهم المفهومِ مِن قَولِه: ﴿يُجَـٰدِلُونَ﴾، والتَّقديرُ: كَبُرَ جِدالُهم مَقْتًا. **الثَّالِثُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، والعائِدُ من جُملةِ الخَبرِ على المبتَدأِ محذوفٌ، أي: على كُلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ منهم، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ أيضًا، أي: الأمرُ كذلك. **الرَّابعُ**: أنْ يكونَ خبَرَ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هم الذين. **الخامسُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ، أي: مُعانِدون ونَحوُه. **السَّادِسُ**: أنْ يكونَ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ بإضْمارِ (أعني). وقيل: غيرُ ذلك[(٢)].

= ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٧٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٠٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قَتَلْتُم موسى- يومًا مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ الذين تحَزَّبوا على رُسُلِهم فأهلَكهم اللهُ؛ مِثلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والذين جاؤُوا بَعدَهم؛ حيثُ كَذَّبوا رسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ، وما يُريدُ اللهُ ظُلمًا لِعبادِه!

ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ؛ يومَ تَفِرُّون هاربينَ مِن عَذابِ اللهِ، ما لكم مِنَ اللهِ مَن يَمنَعُكم مِن عَذابِه، ومَن يُضلِّه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهْديه.

ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسْلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ، فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- في شَكٍّ مِمَّا جاءَكم به يوسُفُ، حتى إذا مات يوسُفُ قال أسلافُكم: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يوسُفَ رَسولًا غيرَه، مثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه، شاكٌّ مُرتابٌ في الحَقِّ!

الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ أتاهم، عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم، كذلك يَختِمُ اللهُ على كُلِّ قَلبِ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، جَبَّارٍ على الخَلقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا المؤمِنَ لَمَّا رأى ما لَحِقَ فِرعَونَ مِن الخَوَرِ -أي: الضَّعْف- والخَوفِ، أتى بنَوعٍ آخَرَ مِن التَّهديدِ، وخَوَّفَهم أنْ يُصيبَهم ما أصابَ الأُمَمَ السَّابقةَ مِن استِئصالِ الهَلاكِ حين كَذَّبوا رسُلَهم، وقَوِيَت نَفْسُه حتَّى سَرَد عليه ما سَرَد، ولم

يَهَبْ فِرعَونَ[١].

وأيضًا لَمَّا نصَحَ المؤمِنُ القومَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وأثبَتَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ نَبيٌّ صادِقٌ ثابتةٌ نُبوَّتُه، واجِبٌ اتِّباعُه، وما قصَّرَ في النُّصحِ، وما زاد فِرعونُ اللَّعينُ على ما بدَأَ أوَّلًا: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، فحينئذٍ أيِسَ المؤمِنُ واستشْعَرَ الخوفَ، وأيقَنَ أنَّ حُجَّةَ اللهِ لَزِمَتْهم؛ قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ لأنَّه تعالى بعَثَ إليهم الرُّسلَ بالبيِّناتِ كرَسولِكم فلمْ يُؤمِنوا، فدَمَّرَهم اللهُ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ٣٠﴾.

أي: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا يَحُلُّ فيه هلاكُكم مِثلَ أيَّامِ الأُمَمِ التي تحَزَّبَتْ على رُسُلِها، واجتَمَعَتْ على تَكذيبِهم؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالى[٣].

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: مِثْلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والأُمَمِ الذين جاؤُوا بَعْدَهم، كقَومِ لُوطٍ وشُعَيبٍ؛ الذين لَزِموا تَكذيبَ رُسُلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي: ولا يُريدُ اللهُ أيَّ ظُلمٍ لعِبادِه، وإنَّما أهلَكَ أحزابَ الكُفرِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم به، ومُخالفتِهم أمْرَه، وتَكذيبِهم رُسُلَه؛ فأهلَكَهم بذُنوبِهم[(١)].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢].

وقال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خوَّفَهم أنْ يَحُلَّ بهم في الدُّنيا ما حَلَّ بالأحزابِ، خَوَّفَهم أمْرَ الآخِرةِ[(٢)].

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾.

أي: ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٦، ٣١٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

قال الرازي: (أجمع المفسِّرون على أنَّ يومَ التَّنادِ يومُ القِيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وقال ابن عطية: (يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ التَّذكيرَ بكلِّ نِداءٍ في القِيامةِ فيه مَشقَّةٌ على الكُفَّارِ =

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ عادةُ المتنادِينَ الإقبالَ؛ وصَفَ ذلك اليومَ بضِدِّ ذلك لشِدَّةِ الأهوالِ[1].

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾.

أي: يومَ تَفِرُّونَ هاربينَ مِن عَذابِ اللهِ[2].

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

= والعُصاة). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يومُ الحِسابِ والحَشرِ، سُمِّي يومَ التَّنادِ؛ لأنَّ الخلقَ يَتَنادونَ يومئِذٍ: فمِن مُسْتَشْفِعٍ ومِن مُتَضَرِّعٍ، ومِن مسلِّمٍ ومُهَنِّئٍ، ومِن مُوَبِّخٍ ومن مُعتذِرٍ، ومن آمِرٍ ومن مُعلِنٍ بالطَّاعةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [فصلت: ٤٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ونحوَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦) بتصرُّف.

وقال الشوكاني: (المعنَى: يومَ يُنادي بعضُهم بعضًا، أو يُنادي أهلُ النَّارِ أهلَ الجنَّةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، أو يُنادَى فيه بسعادَةِ السُّعداءِ، وشقاوةِ الأشقياءِ، أو يومَ يُنادَى فيه كلُّ أُناسٍ بإمامِهم، ولا مانعَ مِن الحمْلِ على جميعِ هذه المعاني). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أنْ ذكَر عددًا من النِّداءاتِ يومَ القيامةِ: (اختار البغويُّ وغيرُه: أنَّه سُمِّي بذلك لمجموعِ ذلك، وهو قولٌ حسنٌ جيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧١).

أي: ما لكم مِنَ اللهِ أيُّ مانعٍ يَمنَعُكم مِن عَذابِه[١].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[٢].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٣] ذكَرَ لهذا مَثَلًا، وهو أنَّ يُوسُفَ لَمَّا جاءهم بالبَيِّناتِ الباهِرةِ فأصَرُّوا على الشَّكِّ والشُّبهةِ، ولم يَنتَفِعوا بتلك الدَّلائِلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن أضَلَّه اللهُ فما له مِن هادٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى مِن حالِهم في أمْرِ مُوسى عليه السَّلامُ: أنَّه جاءَهم بالبَيِّناتِ فشَكُّوا فيها، وخَتَم بتَحذيرِهم مِن عَذابِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ عَطَف عليه شَكَّ آبائِهم في مِثلِ ذلك(١).

وأيضًا لَمَّا توسَّمَ فيهم قِلَّةَ جَدوى النُّصحِ لهم، وأنَّهم مُصمِّمون على تَكذيبِ مُوسى؛ ارتَقى في موعظتِهم إلى اللَّومِ على ما مَضى، ولِتَذكيرِهم بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ قَومٍ كذَّبوا يُوسُفَ لَمَّا جاءَهم بالبيِّناتِ؛ فتَكذيبُ المُرشِدين إلى الحقِّ شِنْشِنةٌ (عادةٌ وطبيعةٌ) مَعروفةٌ في أسلافِهم، فتكونُ سَجِيَّةً فيهم(٢).

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على تَوحيدِ اللهِ، وصِدقِ نُبُوَّته(٣).

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال ابنُ عاشور: (البَيِّناتُ: إخبارُه بما هو مَغيبٌ عنهم من أحوالِهم بطريقِ الوَحيِ في تعبيرِ الرُّؤى، وكذلك آيةُ العِصمةِ التي انفرد بها مِن بينهم، وشَهِدَت له بها امرأةُ العزيزِ، وشاهِدُ أهلِها، حتى قال المَلِكُ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، فكانت دلائِلُ نُبُوَّةِ يُوسُفَ واضِحةً، ولكِنَّهم لم يَستخلِصوا منها استِدلالًا يَقتَفونَ به أثَرَه في صلاحِ آخِرتِهم، وحَرَصوا على الانتِفاعِ به في تدبيرِ أمورِ دُنياهم؛ فأودَعوه خزائِنَ أموالِهم، وتدبيرَ مملكتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٣).

وقال ابن عطية: (البَيِّناتُ التي جاء بها يوسُفُ لم تُعَيَّنْ لنا حتى نَقِفَ على مُعجِزاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣١).

أي: فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- تَشُكُّونَ فيما جاء به يوسُفُ مِن البَيِّناتِ، فلم تُؤمِنوا الإيمانَ الواجِبَ الخاليَ مِن الشَّكِّ[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾.

أي: حتَّى إذا مات يُوسُفُ قال أسلافُكم بالظَّنِّ الباطِلِ: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يُوسُفَ رَسولًا غَيرَه[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: كما أضَلَّكم اللهُ حِينَ لم تَقبَلوا ما جاءَكم به يُوسُفُ؛ لإسرافِكم وارتيابِكم، يُضِلُّ اللهُ كُلَّ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه بالكُفرِ أو الظُّلمِ أو العِصيانِ، ذو شَكٍّ ورِيبةٍ واضطِرابٍ في شأنِ الحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

قال البقاعيُّ: (هذا ليس إقرارًا منهم برسالتِه، بل هو ضَمٌّ منهم إلى الشَّكِّ في رِسالتِه التَّكذيبَ برِسالةِ مَن بَعدَه، والحَجْرَ على المَلِكِ الأعظَمِ في عِبادِه وبلادِه، والإخبارَ عنه بما يُنافي كمالَه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: قال أسلافُكم في وَقتِ وفاة يُوسُفَ: لا يَبعَثُ اللهُ في المستقبَلِ أبدًا رَسولًا بعدَ يُوسُفَ، يعنون: أنَّا كُنَّا مُتردِّدين في الإيمانِ بيُوسُفَ، فقدِ استرَحْنا من التَرَدُّدِ؛ فإنَّه لا يَجيءُ مَن يدَّعي الرِّسالةَ عن اللهِ من بَعدِه، وهذا قَولٌ جرَى منهم على عادةِ المعانِدينَ والمقاوِمينَ لأهلِ الإصلاحِ والفَضلِ: أنْ يَعترِفوا بفَضلِهم بعد الموتِ تندُّمًا على ما فاتهم من خيرٍ كانوا يَدعُونَهم إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ظهَر ظُهورًا لا يحتَمِلُ شَكًّا بما أتَى به موسى عليه السَّلامُ مِن البيِّناتِ: أنَّ شَكَّهم في رِسالةِ الماضي، وجزْمَهم في الحُكمِ بنَفيِ رِسالةِ الآتي: أعظَمُ ضَلالٍ، وأنَّه مِن الجِدالِ الذي لا معنى له إلَّا صرْفُ المحِقِّ عَمَّا هو عليه مِن الحَقِّ إلى ما عليه المجادِلُ مِن الضَّلالِ؛ وَصَل بذلك قَولَه على سَبيلِ الاستِنتاجِ ذَمًّا لهم بعبارةٍ تَعُمُّ غيرَهم(١):

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي: الذين(٢) يُجادِلون بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه التي جاءَتْ بها الرُّسُلُ

= ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

استظهر ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَه: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ إلى قولِه: ﴿جَبَّارٍ﴾. كُلُّه مِنْ كلامِ اللهِ تعالَى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦).

(٢) قيل: هذا وَصفٌ لِمن سَبَق ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ =

بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِنَ اللهِ[1]: عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم ولجِدالِهم[2].

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

أي: كما طبَع اللهُ على قُلوبِ هؤلاءِ المجادلينَ[3] يَختِمُ اللهُ على قَلبِ كُلِّ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، مُتعاظِمٍ على الخَلقِ، مُبالِغٍ في الظُّلمِ والعُدوانِ[4].

= مُّرۡتَابٌ﴾. وممَّن قال بهذا: ابن جرير، والسمرقندي، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقيل: الجُملةُ هنا مُنفَصِلةٌ عمَّا قَبلَها، وليستْ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا مِن (مَنْ) في قَولِه: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾. ومِمَّن قال بهذا القول: ابن تَيميَّة. يُنظر: ((الاستقامة)) (١/ ١٩).

(١) عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (كلُّ سُلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ). رواه البخاري في ((صَحيحِه)) مُعَلَّقًا (٦/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨، ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٥-٢٨٧).

قال القُرطبي: (قيل: هذا مِن كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. وقيل: ابتداءُ خِطابٍ مِنَ الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال ابن كثير: (مَن كانت هذه صفتَه، يطبعُ الله على قلبه، فلا يعرفُ بعدَ ذلك معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ﴾ أي: على اتباعِ الحقِّ ﴿جَبَّارٖ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الفرَّاء: (المعنى في تقدُّمِ القَلبِ وتأخُّرِه واحِدٌ، واللهُ أعلم. قال: سَمِعتُ بعضَ العَرَبِ: يُرَجِّلُ شَعْرَه يومَ كُلِّ جُمعةٍ، يريدُ: كُلَّ يومِ جُمُعةٍ، والمعنى واحِدٌ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٩). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كرَّر ذلك الرَّجُلُ الذي آمَن دَعوةَ قَومِه، غيرَ آيِسٍ مِن هِدايتِهم، كما هي حالةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالَى؛ لا يزالون يَدعُونَ إلى رَبِّهم، ولا يَرُدُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يَثنيهم عُتُوُّ مَن دَعوه عن تَكرارِ الدَّعوةِ[1].

٢- قولُه: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ * مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ فيه تحذيرُ اللَّاحِقِ أنْ يُصيبَه ما أصاب السابقَ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى سُنَّتُه في خَلْقِه واحدةٌ، هو لا يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكرهُ أشخاصَهم! بلْ يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكْرَهُ عمَلَهم، فإذا وُجِدَ عمَلُهم في آخَرينَ؛ فالكراهةُ حاصلةٌ، وهو كقولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وحَذَّرَ شُعيبٌ قومَه أنْ يُصيبَهم ما أصاب مَن قَبْلَهم؛ فالحاصلُ أنَّ الأمرَ لا بُدَّ أنْ يَتَّعِظَ اللاحِقُ بالسابقِ بِناءً على أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ[2].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ لديه عِلْمٌ بما سَبَقَ؛ فإنَّ التاريخَ عِبَرٌ سواءٌ في هذه المسألةِ الكبيرةِ أو في المسائلِ الصَّغيرةِ؛ اقرأِ التاريخَ يَتبيَّنْ لك ما قَدَّرَه اللهُ على العِبادِ، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ سُبحانَه

= ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٢٣).

وقال ابن عطية: (ويتَّجِهُ أن يكونَ المرادُ عمومَ قلبِ المتكبرِ الجبَّارِ بالطَّبْعِ، أي: لا ذرةَ فيه من إيمانٍ ولا مقاربة، فهي عبارةٌ عن شدةِ إظلامِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩).

وممَّن رجح أن المراد: الطبع على عمومِ القلوبِ لكلِّ متكبرٍ جبارٍ، وليس عمومَ القلبِ الواحدِ: القرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٩٦-٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

وتعالَى في السَّابِقينَ ستكونُ في اللَّاحِقينَ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنَّ ما يَكرهُه اللهُ فإنَّ المؤمنينَ يَكرهونَه، وهذه علامةُ الإيمانِ، فلتُؤخَذْ قياسًا وميزانَ عَدْلٍ؛ متَى رأَى الإنسانُ مِن نفسِه أنَّه يَكرَهُ ما يَكرهُه اللهُ، ويُحِبُّ ما يُحِبُّه اللهُ فذلك الإيمانُ، دلَّ عليه هذه الآيةُ وغيرُها مِن الآياتِ والأحاديثِ، ودلَّ عليها العقلُ أيضًا؛ لأنَّ مِن كَمالِ المحبةِ محبَّةَ ما يُحِبُّه المحبوبُ، وكراهةَ ما يَكرهُه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ إلى قولِه سبحانَه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الظُّلمُ -المنفيُّ عنِ اللهِ- شيئًا ممتنِعًا غيرَ مَقدورٍ عليه! يُبيِّنُ هذا أنَّ ذلك العِقابَ لم يكنْ ظلمًا! لاستحقاقِهم ذلك، وأنَّ اللهَ لا يريدُ الظلمَ، والأمرُ الذي لا يُمكِنُ القُدرةُ عليه لا يَصْلُحُ أنْ يُمْدَحَ الممدوحُ بعدمِ إرادتِه! وإنَّما يكونُ المدحُ بتركِ الأفعالِ إذا كان الممدوحُ قادرًا عليها، فعُلِمَ أنَّ اللهَ قادرٌ على ما نَزَّه نَفْسَه عنه مِن الظلمِ، وأنَّه لا يَفعَلُه، وبذلك يَصِحُّ قولُه في الحديثِ القدسيِّ: ((إني حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي))[٣]، وأنَّ التحريمَ هو المنعُ؛ وهذا لا يجوزُ أنْ يكونَ فيما هو ممتنِعٌ لذاتِه[٤].

٢- في قَولِه: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أنَّ أخبارَ الأنبياءِ مِن عَجائبَ وآياتٍ كانتْ مُنتَشِرةً مُتواتِرةً في العالَم، وقد عَلِمَ النَّاسُ أنَّها آياتٌ للأنبياءِ وعُقوبةٌ لمُكذِّبيهم؛ ولهذا كانوا يَذكُرونَها عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٤).

نَظائِرِها للاعتبارِ(١).

٣- في قَولِه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أنَّ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ كانوا أوَّلَ الأحزابِ(٢).

٤- قال اللهُ تعالى حِكايةً لِقَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ وهذا يَقْتضي أنَّ القِبطَ كانوا على عِلمٍ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ؛ فأمَّا قَومُ نُوحٍ فكان طُوفانُهم مَشهورًا، وأمَّا عادٌ وثمودُ فلِقُربِ بلادِهم مِن البِلادِ المِصريَّةِ، وكان عظيمًا لا يَخفَى على مُجاوِريهم(٣).

٥- في قَولِه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أنَّ اللهَ يَتَّصِفُ بالصِّفاتِ المنفيَّةِ التي يُعَبِّرُ عنها بَعضُ العُلَماءِ بالصِّفاتِ السَّلبيَّةِ؛ لأنَّ النَّفيَ سَلْبٌ(٤).

٦- قولُه تعالَى حِكايةً لِقَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ زادَ مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ في الوَعظِ والتَّخويفِ، وأفصَحَ عن إيمانِه؛ إمَّا مُستَسلِمًا مُوَطِّنًا نَفسَه على القَتلِ، أو واثِقًا بأنَّهم لا يَقصِدونَه بسُوءٍ، وقدْ وقاه اللهُ شَرَّهم بِقَولِه الحَقِّ: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾(٥) [غافر: ٤٥].

٧- في قَولِه: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أنَّ يومَ القِيامةِ له أحوالٌ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى في

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٦٤).

واللهُ تعالَى يُمدَحُ بالنَّفيِ إذا تَضَمَّنَ أمرًا وُجوديًّا، كمدحِه بنَفْيِ الظُّلمِ، المتضمِّنِ كمالَ عدلِه وعِلْمِه وغِناه. يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠).

سورةِ (طه): ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وهنا يَذكُرُ أنَّه يومُ تَنادٍ -والنِّداءُ هو الصَّوتُ الرَّفيعُ- وعلى هذا فيكونُ الجمعُ بينَ هذه الآيةِ وبينَ قولِه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ هو أنَّ يومَ القيامةِ له أحوالٌ؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسون ألفَ سَنَةٍ؛ فلا بُدَّ أنْ تتغيَّرَ أحوالُ النَّاسِ[١].

٨- في قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نفْسَه ويُضِلُّ نَفسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه[٢]!

٩- في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أنَّ مَلِكَ مِصرَ وقَومَه زمَنَ يُوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا كُفَّارًا[٣].

١٠- في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أنَّ أولئك الَّذين بُعِثَ إليهم يُوسُفُ كانوا يُقِرُّونَ باللهِ[٤]، ومع ذلك لم يَنْفَعْهم إقرارُهم باللهِ؛ لأنَّ الإيمانَ بوُجودِ اللهِ لا يَكْفي في التَّوحيدِ والخَلاصِ مِن عَذابِ اللهِ[٥].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أنَّ إضلالَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يكونُ إلَّا في مَحَلِّ مَن هو أهلٌ للإضلالِ[٦].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أنَّ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٨٣).

لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ بما يجِبُ الإيقانُ به، فإنَّه أبعدُ النَّاسِ عن الإضلالِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن المفهومِ، فإذا كان اللهُ يُضِلُّ مَن هو مُسرِفٌ مرتابٌ فإنَّه يَهدي مَن لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ في أمْرِه وآمَنَ بذلك[١].

١٣- قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وكذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، فذكَرَ ضَلالَ الأوَّلِ، وذكَرَ تَجبُّرَ الثاني؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ مُرْتابٌ، ففاتَه العِلمُ حيثُ ابْتَغى الهُدى في غَيرِه، والثانيَ جبَّارٌ عمِلَ بخِلافِ ما فيه، فقصَمَه اللهُ، وهذان الوَصْفانِ يَجمَعانِ العِلمَ والعَملَ. وفي ذلك بَيانُ أنَّ كلَّ عِلمِ دِينٍ لا يُطلَبُ مِنَ القُرآنِ فهو ضَلالٌ، كفاسِدِ كَلامِ الفَلاسِفةِ والمُتكَلِّمةِ والمتَصوِّفةِ والمُتفقِّهةِ، وكلُّ عاقلٍ يَترُكُ كتابَ اللهِ مُريدًا للعُلوِّ في الأرضِ والفسادِ؛ فإنَّ اللهَ يَقصِمُه، فالضَّالُّ لم يَحصُلْ له المَطلوبُ، بل يُعذَّبُ بالعمَلِ الَّذي لا فائدةَ فيه، والجبَّارُ حصَّلَ لذَّةً فقصَمَه اللهُ عليها، فهذا عَذابٌ بإزاءِ لذَّاتِه الَّتي طلَبَها بالباطِلِ، وذلك يُعذَّبُ بسَعيِه الباطِلِ الَّذي لم يُفِدْه[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذَمُّه لهم بأنَّهم يُجادِلونَ بغيرِ سُلطانٍ: فيه دَلالةٌ على أنَّ الجِدالَ بالحُجَّةِ حَسَنٌ وحَقٌّ، وفيه إبطالٌ للتَّقليدِ[٣].

١٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا يَجوزُ لأحَدٍ أن يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

فمَن عارَضَ كِتابَ اللهِ وجادَلَ فيه بما يُسَمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقيسةً، أو ما يُسَمِّيه مُكاشَفاتٍ ومَواجيدَ وأذواقًا، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بِكِتابٍ مُنَزَّلٍ- فقدْ جادَلَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ. ومُعارضةُ القُرآنِ بمَعقولٍ أو قِياسٍ: هذا لم يكُنْ يَستَحِلُّه أحَدٌ مِن السَّلَفِ، وإنَّما ابتُدِعَ ذلك لَمَّا ظهَرَت الجَهميَّةُ والمُعتَزِلةُ ونَحوُهم ممَّن بَنَوا أُصولَ دِينِهم على ما سَمَّوه مَعقولًا، ورَدُّوا القُرآنَ إليه، وقالوا: إذا تعارَضَ العَقلُ والشَّرعُ إمَّا أنْ يُفَوَّضَ أو يُتأَوَّلَ؛ فهؤلاء مِن أعظَمِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم(١).

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مِن أعظَمِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ جِدالُ مَن يُعارِضُ النَّقلَ بالعَقلِ، ثمَّ يُقَدِّمُه عليه؛ فإنَّ جِدالَه يَتضَمَّنُ أربَعةَ مَقاماتٍ:

أحدُها: أنَّه يُبيِّنُ أنَّ الأدِلَّةَ النَّقليَّةَ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ لا تُفيدُ عِلمًا ولا يقينًا.

الثَّاني: أنَّ ظاهِرَها يدُلُّ على الباطِلِ والتَّشبيهِ والتَّمثيلِ.

الثَّالِثُ: أنَّ صَريحَ العَقلِ يُخالِفُها.

الرَّابعُ: أنَّه يتعَيَّنُ تقديمُه عليها، ولا يَصِلُ إلى هذه المقاماتِ إلَّا بأعظَمِ الجِدالِ.

فهو مُرادٌ بهذه الآياتِ قَطعًا، وأعمالُهم شاهِدةٌ عليهم لِمَن لم يَطَّلِعْ على حَقيقةِ أقوالِهم، وهي التكَبُّرُ والتجَبُّرُ، والفَرَحُ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، والمرَحُ، وطَلَبُ العُلُوِّ في الأرضِ والفَسادِ، ولا تَجِدُ من يُعارِضُ الوَحيَ بالعَقلِ ويُقَدِّمُه عليه إلَّا بهذه المنزلةِ؛ فهذه عُلومُهم وعقائِدُهم، وهذه إرادتُهم وأعمالُهم(٢).

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢-٢٣).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٣٠-١١٣١).

١٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنَّه ليس لأحَدٍ مِن خَلْقِ اللهِ كائنًا مَن كان أنْ يُبطِلَ قَولًا، أو يُحَرِّمَ فِعلًا إلَّا بسُلطانِ الحُجَّةِ، وإلَّا كان ممَّن قال اللهُ فيه ذلك[١].

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾، أي: بغيرِ حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وهذا وَصفٌ لازِمٌ لكُلِّ مَن جادَلَ في آياتِ اللهِ؛ فإنَّه مِن المُحالِ أنْ يُجادِلَ بسُلطانٍ؛ لأنَّ الحَقَّ لا يُعارِضُه مُعارِضٌ، فلا يُمكِنُ أن يُعارَضَ بدَليلٍ شَرعيٍّ أو عقليٍّ أصلًا[٢]؛ فقَولُه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ فيه أنَّه لا سُلطانَ لكلِّ إنسانٍ جادَلَ لإدحاضِ الحَقِّ وإظهارِ الباطِلِ، يُؤخَذُ مِن قَولِه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾؛ فهذا الوَصفُ وَصفٌ لبيانِ الواقِعِ، وليس وَصفًا مُقَيِّدًا، والفَرقُ أنَّنا لو قُلْنا: إنَّه وَصفٌ مُقَيِّدٌ صارَ الذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ لإبطالِها: أحيانًا يكونُ معهم سُلطانٌ، وأحيانًا لا يكونُ معهم سُلطانٌ! والواقِعُ أنَّه ليس لهم سُلطانٌ، والقَيدُ المُبيِّنُ للواقِعِ ليس له مَفهومٌ، وهذا آتٍ في القُرآنِ كَثيرًا، وإنَّما المَقصودُ به -أي: بالقَيدِ المُبيِّنِ للواقِعِ- الاستِدلالُ، يعني: فكأنَّه تعليلٌ للمَوصوفِ[٣].

١٩- قَولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيه إثباتُ المَقْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَتفاضَلُ، فيكونُ مَقْتُه على شَخصٍ أو طائفةٍ أكبرَ مِن مَقْتِه على شَخصٍ أو طائفةٍ أُخرَى[٤].

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ العِنْديَّةِ للهِ تعالَى، ثمَّ العِنْديَّةُ نوعانِ: عِنديَّةُ وَصفٍ، وعِنديَّةُ قُربٍ؛ فقَولُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩١).

﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] هذه عِنْديَّة قُربٍ، وقولُه هنا: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِنديَّةُ وَصفٍ؛ لأنَّ المَقْتَ ليس شَيئًا مُنفَصِلًا بائنًا عن اللهِ حتى يَكونَ عِنديَّةَ قُرْبٍ، بل هذا عِنديَّةُ وَصفٍ، كما يُقالُ: فلانٌ عندي عزيزٌ، أي: إنَّ عِزَّتَه قائمةٌ به، فهذه عِنديَّةُ وصفٍ، لا قُربٍ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ لَمَّا كان هذا تَكملةً لكلامِ الذي آمَنَ، ولم يكُنْ فيه تَعريجٌ على مُحاوَرةِ فِرعونَ على قولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ...﴾ [غافر: ٢٩] إلخ، وكان الَّذي آمَنَ قد جعَلَ كلامَ فِرعونَ في البَينِ، واسترْسَلَ يُكمِلُ مَقالَتَه؛ عُطِفَ فِعلُ قولِه بـ(الواو)؛ لِيَتَّصِلَ كلامُه بالكَلامِ الذي قبْلَه، ولئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه قَصَدَ به مُراجعةَ فِرعونَ، ولكنَّه قَصَدَ إكمالَ خِطابِه، وعُبِّرَ عنه بـ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمَضمونِ الصِّلةِ بعْدَ ما تقدَّمَ[2].

- وإعادَتُه نِداءَ قَومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تأْكيدٌ لِما قصَدَه مِن النِّداءِ الأوَّلِ[3].

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يومُ الأحزابِ مُرادٌ به الجنسُ لا يومٌ مُعيَّنٌ؛ بقَرينةِ إضافتِه إلى جمْعٍ أزمانُهُم مُتباعِدةٌ؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ؛ فإفرادُ (يوم) للإيجازِ؛ لأنَّه لَمَّا أضافَه إلى الأحزابِ، وفسَّرَهم بقَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ومعلومٌ أنَّ كلَّ حِزبٍ كان له يَومُ دَمارٍ؛ اقتَصَرَ على الواحِدِ مِن الجمْعِ؛ لأنَّ المُضافَ إليه أغْنى عن ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي =

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان أقَلُّ ما يُخشَى يَكفي العاقِلَ، وكانتْ قُدرةُ اللهِ سُبحانَه عليهم كُلِّهم على حَدٍّ سَواءٍ لا تفاوُتَ فيها، فكان هلاكُهم كُلِّهم كهَلاكِ نَفْسٍ واحِدةٍ- أفردَ فقال: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، مع أنَّ إفرادَه أروعُ وأقوى في التَّخويفِ وأفظَعُ؛ للإشارةِ إلى قُوَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه قادِرٌ على إهلاكِهم في أقَلِّ زَمانٍ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾

- لَمَّا كان قولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بَيانًا لقولِه: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، كان ما يُضافانِ إليه مُتَّحِدًا لا مَحالةَ، فصارَ الأحزابُ والدَّأْبُ في معنًى واحِدٍ، وإنَّما يتِمُّ ذلك بتَقديرِ مُضافٍ مُتَّحدٍ فيهما؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ يوم جَزاءِ الأحزابِ، مِثلَ يومِ جَزاءِ دَأْبِ قومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ، أي: جَزاءِ عَمَلِهم(٢).

- قَولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لَمَّا كان هؤلاء أقوَى الأُمَمِ اكتفَى بهم، وأجمَلَ مَن بَعدَهم(٣).

- وجُملةُ ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهي اعتراضٌ بيْن كلامَيه المُتعاطفَينِ، أي: أخافُ عليكم جَزاءً عادلًا من اللهِ، وهو جَزاءُ الإشراكِ(٤).

- قَولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في نَفيِ الظُّلمِ؛ حيثُ عَلَّقَه بالإرادةِ،

= حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٩-٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

فإذا نفاه عن الإرادةِ كان نفيُه عن الوُقوعِ أَوْلَى وأَحْرَى[١].

- قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ الظُّلمُ يُطلَقُ على الشِّركِ، ويُطلَقُ على المُعامَلةِ بغيرِ الحقِّ، وقدْ جمَع قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ نفْيَ الظُّلمِ بمَعنَيَيهِ على طَريقةِ استِعمالِ المشترَكِ في مَعنَيَيهِ. وفيه تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ لإفادةِ قَصرِ مَدلولِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وإذ كان المُسنَدُ واقعًا في سِياقِ النَّفيِ، فالمعنى: قَصْرُ نفْيِ إرادةِ الظُّلمِ على اللهِ تعالى قصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: اللهُ لا يُريدُ ظُلْمًا للعِبادِ، بلْ غيرُه يُريدونه لهم، وهم قادةُ الشِّركِ وأئمَّتُه؛ إذ يَدْعُونهم إليه، ويَزْعُمون أنَّ اللهَ أمَرَهم به؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ هذا على المعنى الأوَّلِ للظُّلمِ، وأمَّا على المعنى الثَّاني، فالمعنى: ما اللهُ يُريدُ أنْ يَظلِمَ عِبادَه، ولكنَّهم يَظلِمون أنفُسَهم باتِّباعِ أئمَّتِهم على غيرِ بَصيرةٍ؛ فلمْ يَخرُجْ تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في سِياقِ النَّفيِ في هذه الآيةِ عن مَهْيَعِ[٣] استِعمالِه في إفادةِ قَصرِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أعقَبَ تَخويفَهم بعِقابِ الدُّنيا الذي حَلَّ مِثلُه بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذين مِن بعْدِهم؛ بأنْ خوَّفَهم وأنْذَرَهم عذابَ الآخِرةِ، عاطِفًا جُملتَه على جُملةِ عذابِ الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٣) المهيع: الطَّريقُ الواسِعُ الواضِحُ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٧٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٦).

- وأقْحَمَ بيْن حرْفِ العَطْفِ والمعطوفِ نِداءَ قَومِه ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ تأْكيدًا لِما قصَدَه من النِّداءِ الأوَّلِ(١).

- ومن بَديعِ البَلاغةِ: ذِكْرُ وَصفِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لليومِ في هذا المقامِ؛ لِيُذكِّرَهم أنَّه في مَوقفِه بيْنهم يُناديهم بـ(يا قوم) ناصِحًا، ومُريدًا خَلاصَهم مِن كلِّ نِداءٍ مُفزِعٍ يومَ القِيامةِ، وتأْهيلَهم لكُلِّ نِداءٍ سارٍّ فيه(٢).

- وعلى قِراءةِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بدُونِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وهو غيرُ مُنوَّنٍ، ولكنْ عُومِلَ مُعامَلةِ المُنوَّنِ؛ فهو لقَصْدِ الرِّعايةِ على الفواصلِ. وقُرِئَ ﴿يَوْمَ التَّنَادِي﴾ بإثْباتِ الياءِ على الأصْلِ(٣)؛ اعتبارًا بأنَّ الفاصلةَ هي قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

- (مِن) الدَّاخلةُ على ﴿عَاصِمٍ﴾ صِلةٌ لِتأكيدِ النَّفيِ(٥).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ لِتَضمُّنِها معنى: إنِّي أرْشَدْتُكم إلى الحَذَرِ من يوم التَّنادي. وفي الكلامِ إيجازٌ بحَذْفِ جُمَلٍ تَدلُّ عليها الجُملةُ المعطوفةُ، والتَّقديرُ: هذا إرشادٌ لكمْ؛ فإنْ هَداكم اللهُ عمِلْتُم به، وإنْ أعرَضْتُم عنه فذلك لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ ﴿التَّنَادِي﴾ بإثباتِ الياءِ: ابنُ كثير ويَعقوبُ، وأثبتَهما في الوصلِ: ورش وابْن وردان، وقرأ الباقون بحذْفها ﴿ٱلتَّنَادِ﴾. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦، ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٧).

أضَلَّكم، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما له مِن هادٍ، وفي هذه الجُملةِ معنَى التَّذييلِ[(١)].

- والمرادُ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ العمومُ الشَّاملُ لكلِّ مَن حرَمَه اللهُ التَّوفيقَ. وفيه تَعريضٌ بتَوقُّعِه أنْ يكونَ فِرعونُ وقومُه مِن جُملةِ هذا العُمومِ، وآثَرَ لهم هذا هنا دونَ أنْ يقولَ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ لأنَّه أحسَّ منهم الإعراضَ، ولمْ يَتوسَّمْ فيهم مَخائلَ الانتفاعِ بنُصْحِه ومَوعظتِه[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تَوبيخٌ مُوجَّهٌ لهم مِن المؤمِنِ؛ بأنَّ يُوسفَ عليه السَّلامُ أتاكمْ بالمُعجِزاتِ فشَكَكْتُم فيها، ولم تَزالوا شاكِّينَ كافرينَ...[(٣)].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (قدْ) ولامِ القسَمِ لِتَحقيقِه؛ لأنَّهم مَظِنَّةُ أنْ يُنكِروه لِبُعدِ عَهْدِهم به[(٤)].

- قولُه: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ عُدِّيَ فِعلُ ﴿جَآءَكُم﴾ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وأُسنِدَ ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ﴾ و﴿قُلۡتُمۡ﴾ إلى ضَميرِهم أيضًا، وهمْ ما كانوا مَوجودينَ حِينئذٍ؛ قصْدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

لِحَمْلِ تَبِعةِ أسلافِهم عليهم، وتَسجيلًا عليهم بأنَّ التَّكذيبَ للنَّاصحينَ، واضطرابَ عُقولِهم في الانتفاعِ بدَلائلِ الصِّدقِ؛ قد وَرِثوه عن أسلافِهم في جِبلَّتِهم، وتَقرَّرَ في نُفوسِهم، فانتقالُه إليهم جِيلًا بعْدَ جِيلٍ[1].

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ كأنَّه عبَّرَ بالهَلاكِ؛ إيهامًا لهم أنَّه غيرُ مُعظِّمٍ له، وأنَّه إنَّما يقولُ ما يُشعِرُ بالتَّعظيمِ؛ لأجْلِ مَحْضِ النَّصيحةِ والنَّظرِ في العاقبةِ[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى -على قولٍ- مُعترِضٌ بيْن كَلامِ المؤمنِ وكلامِ فِرعونَ؛ فإنَّ هذا مِن المعاني الإسلاميَّةِ، قُصِدَ منه العِبرةُ بحالِ المُكذِّبينَ بمُوسى تَعريضًا بمُشْركي قُريشٍ، أي: كضَلالِ قَومِ فِرعونَ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ مُرتابٌ أمْثالُكم، فكذلك يكونُ جَزاؤُكم[3].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلى الضَّلالِ المأْخوذِ مِن قولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ المُسرِفين المُرتابين، أي: أنَّ ضَلالَ المُشرِكين في تَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثلُ ضَلالِ قَومِ فِرعونَ في تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٢).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ فيه اختيارُ التعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مُجادلَتِهم وتَكرُّرِها، وأنَّهم لا يَنفَكُّون عنها، وهذا صَريحٌ في ذَمِّهم، وكِنايةٌ عن ذَمِّ جِدالِهم الذي أوجَبَ ضَلالَهم. وفي الموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ...﴾ إيماءٌ إلى عِلَّةِ إضلالِهم، وهو تَكرُّرُ مُجادلَتِهم قَصْدًا للباطِلِ[1].

- وهذه الصِّفةُ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ مَوجودةٌ في فِرعونَ وقومِه، وقد عدَلَ الواعظُ عن مُخاطَبتِهم إلى الاسمِ الغائِبِ؛ لِحُسْنِ مُحاوَرتِه لهم، واستِجلابِ قُلوبِهم، وأبرَزَ ذلك في صُورةٍ تُذكِّرُهم، فلم يَخُصَّهم بالخِطابِ[2].

- وجُملةُ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ خبَرٌ، مِن بابِ الإخبارِ بالإنشاءِ، وهي إنشاءُ ذَمِّ جِدالِهم المقصودِ منه كَمُّ (أي: تَغطيةُ وسَدُّ) فَمِ الحقِّ، أي: كبُرَ جِدالُهم مَقتًا عندَ اللهِ، وفي هذا تَفظيعٌ صَريحٌ لِجِدالِهم بعْدَ أنِ استُفيدَ من صِلَةِ الموصولِ أنَّ جِدالَهم هو سبَبُ إضلالِهم ذلك الإضلالَ المَكينَ؛ فحصَلَ بهذا الاستِئنافِ تَقريرُ فَظاعةِ جِدالِهم بطريقَيِ الكِنايةِ والتَّصريحِ[3].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ قيل: لأنَّ كونَه مقْتًا عِندَ اللهِ لا يَحصُلُ في عِلمِ الناسِ إلَّا بالخبَرِ، فزِيدَ الخبَرُ تأْييدًا بالمُشاهَدةِ؛ فإنَّ الذين آمَنوا -على قِلَّتِهم يَومئذٍ- يَظهَرُ بيْنَهم بُغضُ مُجادَلةِ المشركينَ. والأظهرُ: أنَّ اللهَ أرادَ التَّنويهَ بالمؤمنينَ، ولم يُرِدْ إقْناعَ المشركينَ؛ فإنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

لا يَعْبَؤون ببُعْضِ المؤمنِينَ، ولا يُصدِّقون ببُغضِ اللهِ إيَّاهم؛ فالمقصودُ الثَّناءُ على المؤمنينَ بأنَّهم يَكرَهون الباطِلَ، مع الإشارةِ إلى تَبْجيلِ مَكانتِهم بأنْ ضُمَّتْ عِنديَّتُهم إلى عِنديَّةِ اللهِ تعالى[(١)].

- وفي إسنادِ كَراهيةِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ في قولِه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للمُؤمنينَ: تَلقينٌ للمُؤمنينَ بالإعراضِ عن مُجادَلةِ المشركينَ، على نحْوِ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾[(٢)] [القصص: ٥٥].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ استِئنافٌ للدَّلالةِ على المُوجِبِ لِجِدالِهم[(٣)].

- وقُرِئَ ﴿قَلْبٍ﴾ بالتَّنوينِ[(٤)] على وَصْفِه بالتَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ؛ لأنَّه مَركَزُهما ومَنبَعُهما، كما تقولُ: رأَتِ العينُ، وسمِعَت الأُذُنُ[(٥)].

- والمُتكبِّرُ: ذو الكِبْرِ المبالَغِ فيه؛ ولذلك عُبِّرَ بصِيغةِ التَّكلُّفِ (مُتفعِّل)[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧).

(٤) قرأ أبو عَمرو وابنُ ذَكوان بالتنوينِ، والباقون بدون تَنوينٍ. يُنظر: ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن البَاذِش (ص: ٣٧١)، ((تحبير التيسير في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

الآيات (٣٦-٤٠)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ
عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ
دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿صَرْحًا﴾: أي: بِناءً وقَصرًا عاليًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[1].

﴿تَبَابٍ﴾: أي: بُطلانٍ وخَسارٍ وذَهابٍ، والتَّبابُ: الاستِمرارُ في الخُسرانِ[2].

﴿مَتَٰعٌ﴾: أي: مَنفعةٌ ومُتعةٌ قليلةٌ غيرُ باقيةٍ، والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتِفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[3].

﴿ٱلْقَرَارِ﴾: أي: المُستَقَرِّ الَّذي لا يَزولُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عظيمًا مُرتَفِعًا؛ لَعَلِّي أصِلُ إلى طُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها المُوصِلةِ إلى إلهِ موسى، فأنظُرَ إليه، وإنِّي لَأظُنُّ موسى كاذِبًا في دَعواه أنَّ في السَّماءِ إلهًا! وكذلك زُيِّنَ لِفِرعَونَ سُوءُ عَمَلِه، وصُرِفَ عن طريقِ الحَقِّ، وما كَيْدُ فِرعَونَ إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ!

وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ اتَّبِعوني أُبَيِّنْ لكم طريقَ الحَقِّ، ويا قَومِ إنَّما هذه الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً فلا يُجزى في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً مِثلَها، ومَن عَمِلَ صالحًا وهو مؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ، يُرزَقونَ فيها بلا حِسابٍ ولا عَدَدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى فِرعَونَ بكَونِه مُتكَبِّرًا جبَّارًا؛ بيَّنَ أنَّه أبلَغَ في البَلادةِ والحَماقةِ إلى أنْ قَصَد الصُّعودَ إلى السَّمَواتِ[1]!

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾.

أي: وقال فِرعونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عَظيمًا شاهِقًا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿...لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿... لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: رجاءَ الوُصولِ لطُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها الَّتي تُوصِلُني إلى إلهِ موسى فأنظُرَ إليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن الجوزي في معنى الأسبابِ: (قال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يعني: أبوابَها. وقال أبو صالح: طُرُقَها. وقال غيرُه: المعنى: لَعَلِّي أبلُغُ الطُّرقَ مِن سماءٍ إلى سماءٍ. وقال الزَّجَّاجُ: لَعَلِّي أبلُغُ ما يؤدِّيني إلى السَّمَواتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الأبوابُ: السَّمعانيُّ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الطُّرقُ: الواحديُّ، والنيسابوري، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال الرَّسْعَني: (قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ يعني: أبوابَها وطُرقَها، وهذا قولُ عامَّة المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦١٨).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ دونَ تخصيصٍ؛ فذكَر أنَّ السَّببَ هو كلُّ ما تُسُبِّبَ به إلى الوُصولِ إلى ما يُطلَبُ؛ من مَنزِلٍ أو بابٍ أو طريقٍ وغيرِ ذلك، فالمعنى: لَعَلِّي أبْلُغُ مِن أسبابِ السَّمواتِ أسبابًا أتَسَبَّبُ بها إلى رؤيةِ إلهِ موسى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦).

إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

أي: وإنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذبًا في دَعْواه أنَّ في السَّماء إلهًا[1]!

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

أي: وهكذا زُيِّنَ لِفرعَونَ عَمَلُه السَّيِّئُ، فرأى الباطِلَ حَسَنًا[2]!

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يحتملُ هذا معنيَين؛ أحدُهما: وإنِّي لَأظُنُّه كاذبًا في قولِه: إنَّ للعالَم ربًّا غيري. والثَّاني: في دَعْواه أنَّ اللهَ أرسَلَه. والأوَّلُ أشْبَهُ بظاهِرِ حالِ فِرعونَ؛ فإنَّه كان يُنكِرُ ظاهِرَ إثباتِ الصَّانعِ، والثَّاني أقرَبُ إلى اللَّفظِ؛ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: فأسألَه هل أرسَلَه أمْ لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: في دَعْواه ذلك. وإنَّما كان مقصودُ فِرعونَ أن يَصُدَّ النَّاسَ عن تصديقِ موسى عليه السَّلامُ، وأن يَحُثَّهم على تكذيبِه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٩٠).

وقال الذهبي: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يعني: أظُنُّ مُوسى كاذبًا أنَّ إلهَه في السَّماءِ). ((العرش)) (٢/ ٢٠). ويُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٦٣)، ((الإبانة)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٠٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقولُ الله تعالى ذِكرُه: وهكذا زَيَّنَ اللهُ لفِرعَونَ -حينَ عَتَا عليه وتَمرَّد- قبيحَ عَمَلِه، حتَّى سَوَّلَتْ له نفْسُه بُلوغَ أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَطَّلِعَ إلى إلهِ مُوسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧).

وقال القرطبي: (﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: الشِّركُ والتَّكذيبُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَصُدَّ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَصُدَّ﴾ بضَمِّ الصَّادِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: مُنِعَ مِن طريقِ الحَقِّ[(١)].

٢- قِراءةُ ﴿وَصَدَّ﴾ بفَتحِ الصَّادِ إسنادًا إلى الفاعِلِ، فقيل: المعنى: صَدَّ نَفْسَه عن الحَقِّ. وقيل: صَدَّ غَيْرَه عن الحَقِّ[(٢)].

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: ومُنِعَ فِرعَونُ، وصُرِفَ عن طَريقِ الحَقِّ[(٣)].

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

أي: وما احتيالُ فِرعَونَ الَّذي احتاله للاطِّلاعِ إلى إلهِ موسى -بزَعْمِه- إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ لا يَنالُ به شَيئًا مِمَّا أراده[(٤)].

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).
قال ابنُ القيِّم: (صَدَّ بفتح الصَّادِ، ويحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: أعرَضَ، فيَكونُ لازِمًا. والثَّاني: يكونُ صَدَّ غَيرَه، فيكونُ مُتعدِّيًا، والقِراءتانِ كالآيتَينِ؛ لا يَتناقَضانِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٦).
وذكر ابنُ عثيمين أنَّها تَشمَلُ المعنيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ إنِ اتَّبَعتُموني أُبَيِّنْ لكم الطَّريقَ الصَّحيحَ الَّذي تَصِلونَ به إلى الجنَّةِ[1].

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾.

أي: يا قَومِ ما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ قَليلٌ فانٍ لا يَبقَى[2].

﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ إمَّا في نعيمِ الجنَّةِ، أو

= (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: في خُسرانٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: في ضلالٍ. قاله قَتادةُ. وفيه وجْهانِ: أحدُهما: في الدُّنيا؛ لِما أطْلَعَه اللهُ عليه من هلاكِه. الثَّاني: في الآخِرةِ؛ لِمَصيرِه إلى النَّارِ. قاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن عطيَّةَ: (وتَبُّ فِرعَونَ ظاهِرٌ؛ لأنَّه خَسِرَ مالَه في الصَّرحِ وغَيرِه، وخَسِرَ مُلكَه، وخَسِرَ نَفْسَه، وخُلِّدَ في جهنَّمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بكَيدِه: ما أمَرَ به من بناءِ الصَّرحِ، والغايةُ منه، وسُمِّيَ كيدًا؛ لأنَّه عَمَلٌ ليس المرادُ به ظاهِرَه، بل أُريدَ به الإفضاءُ إلى إيهامِ قَومِه كَذِبَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

عذابِ النَّارِ؛ فاعمَلوا لآخِرتِكم الَّتي لا زَوالَ لها، ولا انتِقالَ منها(١).

ثُمَّ بَيَّن كيفَ تحصُلُ المُجازاةُ في الآخرةِ(٢)، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً مِن كُفرٍ أو شِركٍ أو مَعصيةٍ، فلا يَجزيه اللهُ في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً واحِدةً مِثلَها بلا زيادةٍ، فيُعاقِبُه بما يَسوؤُه؛ جَزاءً بما عَمِلَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ مِن العبادِ -سواءٌ كان ذكرًا أو أنثى- عمَلًا صالِحًا، بامتِثالِ أمْرِ اللهِ واجتِنابِ نَهْيِه، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه: فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ في الآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال الشوكاني: (والظَّاهِرُ شمولُ الآيةِ لكلِّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ السَّيِّئةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٧-٣١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: يُرزَقونَ فيها ثوابًا كثيرًا لا نَفادَ له، بلا حَدٍّ ولا عَدٍّ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى حكايةً عن فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ أنَّ رؤساءَ الضَّلالِ وأئمَّةَ الضَّلالِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الضَّلالِ بكُلِّ ما يَستطيعونَ، ويُحاولونَ أنْ يَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الحَقِّ، وقَولُ فِرعَونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أي: موسى ﴿كَاذِبًا﴾ في أنَّ له إلهًا غيري؛ قال هذا تمويهًا على أصحابِه، وخوفًا أنْ يَقَعَ في نُفوسِهم شَيءٌ حينَ أمَر وزيرَه أنْ يَبنيَ له صَرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، وفِرعَونُ في هذه المقالةِ كاذِبٌ؛ فهو لا يَظُنُّ أنَّ موسى كاذِبٌ؛ فلا تَغْتَرَّ برُؤساءِ الضَّلالِ وأئمَّةِ الضَّلالِ وما يقولونَ من التَّمويهِ والدَّجَلِ، وليس هذا مقصورًا على أئمَّةِ السُّلطةِ الَّذين لهم السُّلطةُ، بل حتَّى على أئمَّةِ الدَّعوةِ الَّذين يَدْعُون النَّاسَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).
وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.
قال قَتادةُ: (لا واللهِ ما هناكم مِكْيالٌ ولا ميزانٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١).
وقيل: المعنى: أنَّهم يُرزَقونَ في الجنَّةِ بغيرِ تَبِعةٍ عليهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩).
قال ابنُ عثيمين: (يعني: لا يُحاسَبون عليه، ولا يَنقُدونَ له ثمنًا... لا يُطلَبُ مِن الإنسانِ عِوَضٌ، ولا يَلحَقُه تَبِعةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩، ٣٢٢).

أفكارِهم الهَدَّامةِ وأخلاقِهم السَّافلةِ؛ تَجِدُ عندَهم مِن التَّمويهِ والتَّضليلِ ما يُوجِبُ أنْ يكونَ فَخًّا يَقَعُ به مَن ليس له بَصيرةٌ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ عبَّر بالفِعلِ إشارةً إلى أنَّه يَنبغي لأدنى أهلِ الإيمانِ ألَّا يَحقِرَ نَفْسَه عن الوَعظِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعِيةِ إذا دعا إلى شَيءٍ أنْ يُبَيِّنَ ما يكونُ به تَرغيبُ المَدعُوِّ؛ حتَّى يَنشَطَ ويَفعَلَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ فيه تَفصيلُ سَبيلِ الرَّشادِ، وأنَّها العُدولُ عمَّا يَفنى إلى ما يَبقى(٤)، فتضَمَّنَتْ هذه الآيةُ فائدتَينِ؛ هما: الزُّهْدُ في الدُّنيا، والرَّغبةُ في الآخرةِ(٥).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ فيه التَّحقيرُ للدُّنيا، والتَّصغيرُ لِشَأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها أصلُ الشَّرِّ كُلِّه، ومنه يَتشَعَّبُ ما يُؤدِّي إلى سَخَطِ اللهِ تعالى(٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ ...﴾ الآيةَ: أنَّه في مَقامِ التَّهديدِ يَنبغي أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّهديدِ قبْلَ أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّرغيبِ؛ لأنَّه هنا بَدَأ بالسَّيِّئةِ ثمَّ أعقَبَ بالصَّالحِ، وانظُرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٤).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٥).
(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

مَقامِ ذِكْرِ الأحكامِ الشَّرعيَّة، قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ولَمَّا أراد جلَّ وعلا أنْ يتحدَّثَ عن نَفْسِه ويُبَيِّنَ كَمالَ صِفاتِه قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ فلِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، فالإنسانُ ينبغي له أنْ يُرَتِّبَ المعانيَ حَسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ لا يُلْقِي الحديثَ على عَواهِنِه[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ تعليلُه بالتَّرَجِّي الَّذي لا يكونُ إلَّا في المُمكِنِ: دَليلٌ على أنَّه كان يُلَبِّسُ على قَومِه وهو يَعرِفُ الحَقَّ؛ فإنَّ عاقِلًا لا يَعُدُّ ما رامَه في عِدادِ المُمكِنِ العاديِّ[2]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ -ومَن وافقهم- لِمَا يَزعُمونَ أنَّه سُبحانَه ليس بنَفْسِه في السَّماءِ! وهذا المعنى مِن قَولِ فِرعَونَ -وفِرعَونُ كافِرٌ- قد قَطَعَ كلَّ رَيبٍ أنَّه لا مَحالةَ في السَّماءِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يقولَ فِرعَونُ إلَّا بعدَ أنْ سَمِعَ موسى عليه السَّلامُ يَدْعوه إلى مَن هو في السَّماءِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبتَلي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٠).
يُقالُ: رَمَى الكلامَ على عَواهِنِه: أي: لم يُبالِ أصابَ أمْ أخطأَ، ولم يَتَدبَّرْه، وأورَدَه مِن غيرِ فِكرٍ ورَوِيَّةٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢١٦٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧).
قال الذهبي: (لو لم يكُنْ موسى عليه السَّلامُ يدعوه إلى إلهٍ في السَّماءِ لَما قال هذا؛ إذ لو كان موسى قال له: إنَّ الإلهَ الَّذي أدعوك إليه ليس في السَّماءِ، لَكان هذا القَولُ مِن فِرعَونَ عبَثًا، ولَكان بِناؤُه القَصرَ جُنونًا). ((العرش)) (٢/ ٢٠).

العبدَ فيُزَيِّنُ له سوءَ عمَلِه، ويدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾[١] [الأنعام: ١٠٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ فيما ذُكِرَ مِن التَّزيينِ لفِرعَونَ سوءَ عمَلِه؛ فإنْ كان أراد به أنَّه سُبحانَه هو الَّذي زَيَّنَ له، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٤] فهو ما يُريدونَ رَدَّه، وإنْ أراد أنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ له، كقَولِه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] فهو تَبَعٌ للهِ في ذلك؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ جلَّ جَلالُه تَبَعًا له[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ هذا الكَلامُ، مع أنَّ كُفرَ ساعةٍ يُوجِبُ عِقابَ الأبَدِ؟

الجوابُ: أنَّ الكافِرَ يَعتَقِدُ في كُفرِه كَوْنَه طاعةً وإيمانًا؛ فلهذا السَّبَبِ يكونُ الكافِرُ على عَزمٍ أن يَبقى مُصِرًّا على ذلك الاعتِقادِ أبدًا؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُه مُؤَبَّدًا، بخِلافِ الفاسِقِ: فإنَّه يَعتقِدُ فيه كَوْنَه خِيانةً ومَعصيةً، فيَكونُ على عَزمٍ ألَّا يبقَى مُصِرًّا عليه؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُ الفاسِقِ مُنقَطِعًا[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الجِناياتِ تُغرَّمُ بمِثْلِها[٤]. وهذه الآيةُ أصلٌ كبيرٌ في عُلومِ الشَّريعةِ فيما يَتعَلَّقُ بأحكامِ الجِناياتِ؛ فإنَّه يَقتَضي أن يكونَ المِثْلُ مَشروعًا، وأن يكونَ الزَّائدُ على المِثْلِ غيرَ مَشروعٍ؛ فالأحكامُ الكثيرةُ في بابِ الجناياتِ على النُّفوسِ وعلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨).

الأعضاءِ وعلى الأموالِ: يمكِنُ تَفريعُها على هذه الآيةِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ واقِعٌ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، يعني: أنَّ جَزاءَ السَّيِّئةِ له حِسابٌ وتقديرٌ؛ لِئَلَّا يَزيدَ على الاستِحقاقِ، فأمَّا جزاءُ العَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيرِ تقديرٍ ولا حِسابٍ، بل ما شِئتَ مِن الزِّيادةِ على الحَقِّ والكَثرةِ والسَّعةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والفَضلِ راجِحٌ على جانِبِ القَهرِ والعِقابِ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ هذه مَقالةٌ أُخرى لِفِرْعونَ في مَجلسٍ آخَرَ غيرِ المجلِسِ الَّذي حاجَّه فيه مُوسى؛ ولذلك عُطِفَ قولُه بالواوِ(٣).

- قولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتصَبَ ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البدَلِ المُطابِقِ لقولِه: ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، وجِيءَ بأُسلوبٍ مِن الإجمالِ ثُمَّ التَّفصيلِ؛ للتَّشويقِ إلى المرادِ بالأسبابِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِها وشأْنِ عمَلِه؛ لأنَّه أمْرٌ عَجيبٌ؛ لِيُورَدَ على نفْسٍ مُتشَوِّقةٍ إلى مَعرفتِه، وهي نفْسُ هامانَ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦)، =

- وقولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (القَصَصِ): ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] بحذْفِ ﴿أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وذكَرَها هنا؛ وذلك لأنَّ ما في (القَصَصِ) تقدَّمَه ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، مِن غيرِ ذِكرِ أرضٍ وغيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هنا تَقدَّمَه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[(١)] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ مُعترِضةٌ؛ للاحتِراسِ مِن أنْ يَظُنَّ هامانُ وقَومُه أنَّ دَعوةَ مُوسى أوهَنَت منه يَقينَه بدِينِه وآلهتِه، وأنَّه يَرومُ أنْ يَبحَثَ بَحثَ مُتأمِّلٍ ناظِرٍ في أدلَّةِ المعرفةِ، فحقَّقَ لهم أنَّه ما أراد بذلك إلَّا نفْيَ ما ادَّعاهُ مُوسى بدَليلِ الحسِّ. وجِيءَ بحَرْفِ التَّوكيدِ المعزَّزِ بلامِ الابتِداءِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ لِيَنْفِيَ عن نفْسِه اتِّهامَ وَزيرِه إيَّاهُ بتَزلزُلِ اعتقادِه في دِينِه، والمعنى: أنِّي أفعَلُ ذلك لِيَظهَرَ كذِبُ مُوسى[(٢)].

- والظَّنُّ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى اليَقينِ والقطْعِ؛ ولذلك سمَّى اللهُ عَزْمَه هذا كَيْدًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[(٣)].

- وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ لِبَيانِ حالِ اعتِقادِه وعمَلِه، بعْدَ أنْ بيَّنَ حالَ أقوالِه، والمعنى: أنَّه

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال قولًا مُنبعِثًا عن ضَلالِ اعتِقادٍ، ومُغرِيًا بفَسادِ الأعمالِ؛ ولهذا الاعتبارِ -اعتِبارِ جَميعِ أحوالِ فِرعونَ- لم تُفصَلْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ إذ لم يُقصَدْ بها ابتِداءُ قصَّةٍ أُخرى، وهذا يُسمَّى بالتَّوسُّطِ بيْنَ كَمالَيِ الاتِّصالِ والانقِطاعِ في بابِ الفَصْلِ والوَصْلِ مِن عِلمِ المعاني(١).

- وافتِتاحُ الجُملةِ بلَفظِ (كَذَلِكَ)، أي: مِثلَ ذلك التَّزيينِ -أي: تَزْيينِ عَمَلِ فِرعونَ- زُيِّنَ له سُوءُ عمَلِه: مُبالَغةٌ في أنَّ تَزْيينَ عمَلِه له بلَغَ مِن القُوَّةِ في نَوعِه ما لا يُوجَدُ له شَبَهٌ يُشَبَّهُ به، فمَنْ أراد تَشبيهَه فلْيُشَبِّهْه بعَينِه! وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المقصودَ مَعرِفةُ مَفعولِ التَّزيينِ لا مَعرِفةُ فاعِلِه، أي: حصَلَ له تَزيينُ سُوءِ عَمَلِه في نفْسِه، فحَسِبَ الباطلَ حقًّا، والضَّلالَ اهتِداءً(٢).

- وتَعريفُ السَّبيلِ في قولِه: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهْدِ، أي: سَبيلِ اللهِ، أو سَبيلِ الخَيرِ، أو سَبيلِ الهُدى، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للدَّلالةِ على الكَمالِ في النَّوعِ، أي: صُدَّ عن السَّبيلِ الكاملِ الصَّالحِ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَقالٌ في مَقامٍ آخَرَ قالَه مُؤمنُ آلِ فِرعونَ، فهذه المقالاتُ المعطوفةُ بالواوِ مَقالاتٌ مُتفرِّقةٌ، فابتدَأ مَوعظتَه بنِدائِهم؛ لِيَلْفِتَ إليه أذهانَهم، ويَسْتصغيَ أسماعَهم، وبعُنوانِ أنَّهم قَومُه؛ لِتَصْغى إليه أفْئدتُهم[١].

- ورتَّبَ خُطْبتَه على أُسلوبِ تَقديمِ الإجمالِ ثمَّ تَعقيبِه بالتَّفصيلِ؛ فابتدَأَ بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. وسَبيلُ الرَّشادِ مُجمَلٌ، وهو على إجمالِه ممَّا تَتوقُ إليه النُّفوسُ؛ فرَبْطُ حُصولِه باتِّباعِهم إيَّاه ممَّا يُقبِلُ بهم على تَلَقِّي ما يُفسِّرُ هذا السَّبيلَ، ويَسْترعي أسماعَهم إلى ما يقولُه؛ إذ لعلَّه سَيأْتيهم بما تَرغَبُه أنفُسُهم؛ إذ قد يَظُنُّون أنَّه نقَّحَ رأْيَه، ونخَلَ مَقالَه، وأنَّه سَيأْتي بما هو الحقُّ الملائمُ لهم[٢].

- قولُه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ الرَّشادُ نَقيضُ الغَيِّ، وفيه تَعريضٌ شَبيهٌ بالتَّصريحِ أنَّ ما عليه فِرعونُ وقَومُه هو سَبيلُ الغَيِّ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أعادَ النِّداءَ تأْكيدًا لإقبالِهم؛ إذ لاحَتْ بَوارِقُه، فأكمَلَ مُقدِّمتَه بتَفصيلِ ما أجمَلَه؛ يُذكِّرُهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا مَحدودةٌ بأجَلٍ غيرِ طَويلٍ، وأنَّ وراءَها حياةً أبَديَّةً؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ أشَدَّ دِفاعِهم عن دِينِهم مُنبعِثٌ عن مَحبَّةِ السِّيادةِ والرَّفاهيةِ، وذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

وأنَّ الخَيرَ لهم هو العمَلُ للسَّعادةِ الأبَديَّة، وقد بنَى هذه المُقدِّمةَ على ما كانوا عليه مِن مَعرفةِ أنَّ وراءَ هذه الحَياةِ حَياةً أبَديَّةً فيها حَقيقةُ السَّعادةِ والشَّقاءِ، وفيها الجزاءُ على الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ بالنَّعيمِ أو العذابِ؛ إذ كانت دِيانتُهم تُثبِتُ حياةً أُخرى بعْدَ الحياةِ الدُّنيا، ولكنَّها حرَّفَت مُعظَمَ وَسائلِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ، فهذه حقائقُ مُسَلَّمةٌ عِندَهم على إجْمالِها، وهي مِن نوعِ الأصولِ الموضوعةِ في صِناعةِ الجدَلِ، وبذلك تمَّتْ مُقدِّمةُ خُطْبتِه، وتَهيَّأتْ نُفوسُهم لِبيانِ مَقصدِه المفسِّرِ لإجمالِ مُقدِّمتِه[(١)].

- وكرَّرَ قَولَه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ زيادةً في استِعطافِهم بكَونِهم أهلَه، فهو غيرُ مُتَّهَمٍ في نُصحِهم؛ لأنَّه لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لِنَفْسِه[(٢)].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صِفةٍ، أي: لا صِفةَ للدُّنيا إلَّا أنَّها نفْعٌ مُؤقَّتٌ، وهو قصْرُ قلْبٍ[(٣)]؛ لِتَنزيلِ قَومِه في تَهالُكِهم على مَنافِعِ الدُّنيا مَنزِلةَ مَن يَحسَبُها مَنافعَ خالدةً[(٤)].

- وفيه تفسيرُ ما أجْمَلَه في قولِه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، حيثُ افتَتَحَ بذمِّ الدُّنيا وتَصغيرِ شأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها منه يَتشعَّبُ جميعُ ما يُؤدِّي إلى سَخطِ اللهِ، ويَجلِبُ الشقاوةَ في العاقبةِ، وثنَّى بتعظيمِ الآخِرةِ، والاطِّلاعِ على حقيقتِها، وأنَّها هي الوطنُ والمُستقَرُّ، وذَكَر الأعمالَ سيِّئَها وحسَنَها وعاقبةَ كلٍّ منهما؛ ليُثبِّطَ عمَّا يُتلِفُ، ويُنشِّطَ لِمَا يُزلِفُ، ثمَّ وازَنَ بيْنَ الدَّعْوتَينِ: دَعوةٍ إلى دِينِ اللهِ الَّذي ثَمرتُه النَّجاةُ، ودَعوتِهم إلى اتِّخاذِ الأندادِ الَّذي عاقِبتُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

النَّارُ، وحذَّر، وأنْذَر، واجتهَد في ذلك واحتشَدَ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ قصْرُ قلْبٍ، أي: لا الدُّنيا، نَظيرُ القصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وهو مُؤكِّدٌ للقصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ مِن تأْكيدِ إثباتِ ضِدِّ الحُكْمِ لِضِدِّ المحكومِ عليه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- جُمْلتَا ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ إلى آخِرِهما، بيانٌ لِجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لَعلَّ تقسيمَ العُمَّالِ، وجَعْلَ الجزاءِ جُملةً اسميَّةً مُصَدَّرةً باسمِ الإشارةِ، وتفضيلَ الثَّوابِ؛ لِتَغليبِ الرَّحمةِ، وجَعْلَ العمَلِ عُمْدةً، والإيمانِ حالًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه شَرْطٌ في اعتبارِ العمَلِ، وأنَّ ثوابَه أعلى مِن ذلك[٤].

- وقولُه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيانٌ لِمَا في (مَن) من الإبهامِ مِن جانبِ احتِمالِ التَّعميمِ؛ فلَفْظُ ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مُرادٌ به عُمومُ النَّاسِ بذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

صِنْفَيهم؛ تَنصيصًا على إرادةِ العُمومِ[(١)]؛ وتَعريضًا بفِرعونَ وخاصَّتِه أنَّهم غيرُ مُفلَتِينَ مِن الجزاءِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه يَستحِقُّ ما سيُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وهي عمَلُ الصَّالحاتِ مع الإيمانِ، زِيادةً على استِفادةِ ذلك مِن تَعليقِه على الجُملةِ الشَّرطيَّةِ[(٣)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ؛ لإفادةِ الحَصْرِ، والمعنى: أنَّكم إنْ مُتُّم على الشِّركِ والعمَلِ السَّيِّئِ لا تَدخُلُونها[(٤)].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كِنايةٌ على سَعةِ الرِّزقِ ووَفْرَتِه، وهو واقعٌ في مُقابَلةِ ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[(٥)].



(١) وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّه ليس المقصودُ به إفادةَ مُساواةِ الأنثى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ؛ إذ لا مُناسَبةَ له في هذا المقامِ، لكنْ جَعَل ابنُ عُثيمينَ مِن فوائِدِ الآيةِ مُساواةَ الأنثى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ، واشتِراكَهما في الثَّوابِ والعِقابِ، وجَعَل نظيرَ هذه الآيةِ قولَه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ٤٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وهي كَلِمةٌ تَرِدُ بمعْنَى تَحقيقِ الشَّيءِ، فقِيل: أصْلُها التَّبرِئةُ، بمعنَى: لا بُدَّ، ثُمَّ استُعْمِلت في معنى: حقًّا. وقيلَ: جَرَمَ بمعْنَى كسَبَ. وقيلَ: بمعنَى: وجَبَ وحَقَّ، و (لا) رَدٌّ لِمَا قبْلَها مِن الكلام، ثُمَّ يُبْتَدأُ بها[(١)].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: أرُدُّ الأمرَ إليه، وأتوكَّلُ عليه، وأُسلِّمُ أمْري إليه، وأصلُ (فوض): يدُلُّ على اتِّكالٍ في الأمرِ على آخَرَ وردِّه عليه[(٢)].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[(٣)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

﴿غُدُوًّا﴾: جمعُ غَداةٍ: وهي أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ[١].

﴿وَعَشِيًّا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ويا قَومي ما لي أدعوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ، وتَدعُونَني إلى طَريقِ النَّارِ؟! تَدعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ به ما لا أعلَمُ عليه دَليلًا، وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ الغَفَّارِ! حقًّا لا شكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ لا يَصلُحُ للألوهيَّةِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وأنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى اللهِ، وأنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ هم أصحابُ النَّارِ.

فستَتذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وأُسَلِّمُ أمْري إلى اللهِ؛ إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، لا يَخفَى عليه منهم شَيءٌ. فدفَعَ اللهُ عنه كَيْدَهم، ونَزَل بفِرعَونَ وأتْباعِه العَذابُ السَّيِّئُ؛ النَّارُ يُعرَضُون عليها كُلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ لِيُعذَّبوا بها إلى أن تقومَ السَّاعةُ، ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ: أَدخِلوا قومَ فِرعَونَ أشدَّ العَذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ويا قَومي ما لي[٣] أدعُوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩ - ٦٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) قيل: المعنى: ما لَكم، كما يُقالُ: ما لي أراكَ حزينًا؟ معناه: ما لَك؟ ومعنَى الآيةِ: أخبِروني =

مِن العَذابِ، وتَدعُونَني أنتم إلى طَريقِ النَّارِ[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر هذا المؤمِنُ أنَّه يَدعوهم إلى النَّجاةِ، وهم يَدْعُونَه إلى النَّارِ؛ فسَّرَ ذلك بأنَّهم يَدْعُونَه إلى الكُفرِ باللهِ، وإلى الشِّركِ به[(٢)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُسبَّبَينِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ ذكَرَ

= عنكم كيف هذه الحالُ؟ وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (أصلُ استِعمالِ: ما لي أفعلُ، وما لي لا أفعلُ ونحوِه، أنْ يكونَ استِفهامًا عن فِعلٍ أو حالٍ ثَبَت للمجرورِ باللَّامِ «وهي لامُ الاختِصاصِ»، ومعنَى لامِ الاختصاصِ يَكسِبُ مَدخولَها حالةً خَفيًّا سَبَبُها الَّذي عُلِّقَ بمَدخولِ اللَّامِ، نحوَ قولِه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النَّمْل: ٢٠]، وقولِكَ لِمَنْ يَستوقِفُكَ: ما لَكَ؟ فتكونُ الجُملةُ الَّتي بعدَ اسمِ الاستِفهامِ وخبرِه جُملةً فِعليَّةً. وتَركيبُ: «ما لي» ونحوِه، هو كتَركيبِ: «هل لَكَ» ونحوِه في قولِه تعالَى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] ... فإذا قامَت القرينةُ على انتِفاءِ إرادةِ الاستِفهامِ الحقيقيِّ انصَرَف ذلك إلى التَّعَجُّبِ من الحالةِ، أو إلى الإنكارِ أوْ نحوِ ذلك. فالمعنَى هنا على التَّعَجُّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩).

سبَبَهما ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾، وهو دُعاؤهم إلى الكُفْرِ والشِّرك، ودُعاؤه إيَّاهم إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ(١).

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾.

أي: تَدْعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ بِه ما لا أعلَمُ دَليلًا على صِحَّتِه(٢).

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

أي: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ ذي القَهرِ والانتِقامِ ممَّن استكبَرَ عن الحَقِّ وكَفَر به، البالِغِ المَغفرةَ لِمَن تابَ إليه(٣).

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: حَقًّا يَقينًا لا شَكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ: عاجِزٌ لا يَصلُحُ لِلألوهيَّةِ في الدُّنيا والآخِرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).
قال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ جُملةَ قولِه: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ لأنَّ الدَّعوةَ إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به: دعوةٌ إلى النَّارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۞ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

= ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٨-٣٣١).

قيل: المرادُ: ليس له استجابةُ دَعوةٍ تَنفَعُ، فلا يُجيبُ داعِيَه لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧).

وقيل: المعنى: أنَّه ليس له قَدْرٌ وحَقٌّ، فلا يَستَحِقُّ الدَّعوةَ إليه، والحَثَّ على عبادتِه، أو اللُّجوءَ إليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقال الكَلْبي: (ليس له شفاعةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٨).

وقال مكِّي: (لا يَنفُذُ له أمرٌ ولا نهيٌ ولا شفاعةٌ في الدَّارينِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٣٦، ٦٤٣٧).

وقيل: ليست له دَعوةٌ إلى عبادتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ الأوثانَ لا تَدَّعي الرُّبوبيَّةَ، ولا تدعو إلى عبادتِها، وفي الآخرةِ تَتبرَّأُ مِن عابِديها، أمَّا المعبودُ بالحقِّ فيَدعو العِبادَ إلى طاعتِه، ثمَّ يدعو العِبادُ إليها إظهارًا لدعوةِ ربِّهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ أي: إلى نفْسِه قَطُّ بالعبادةِ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

أي: ولا شَكَّ أيضًا أنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، فيُجازي كلَّ عاملٍ بحَسَبِ عَمَلِه(١).

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولا شَكَّ أنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ؛ كالوُقوعِ في الشِّركِ، وسَفكِ الدِّماءِ بغَيرِ حَقٍّ: هم أصحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لها عندَ مَرجِعِنا إلى الله(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وعن مُعاوِيةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلُّ ذَنْبٍ عسَى اللهُ أن يَغفِرَه إلَّا الرَّجُلَ يَقتُلُ المؤمِنَ مُتعَمِّدًا، أو الرَّجُلَ يَموتُ كافِرًا))(٣).

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾.

أي: فسوفَ تتذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وتَندَمونَ حينَ يأتيكم عَذابُ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣١).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٨٤) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٠٧).

وثَّق رجالَه الشَّوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٧/ ١٩٦) وذكر أنَّ له شاهدًا، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٢١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٨٤)، وصحَّحه لغيرِه شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وأُسَلِّمُ أمْري إلى اللهِ، وأتوَكَّلُ عليه، وأعتَصِمُ به(١).

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ رجُلًا إذا أخَذَ مَضجَعَه مِنَ اللَّيلِ أن يقولَ: اللَّهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، ووجَّهتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك، وفَوَّضتُ أمري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنجَا مِنك إلَّا إليك، آمَنتُ بكِتابِك الَّذي أنزَلْتَ، وبِرَسولِك الَّذي أرسَلْتَ، فإنْ ماتَ ماتَ على الفِطرةِ))(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، عالِمٌ بأعمالِهم وأحوالِهم وأُمورِهم كُلِّها، لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ(٣).

= (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

قال القرطبي: (قيل: هذا يدُلُّ على أنَّهم أرادوا قتلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

وقال الرازي: (﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا كلامُ مَن هُدِّد بأمرٍ يخافُه، فكأنَّهم خَوَّفوه بالقتلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

قيل: المعنى: إنَّ اللهَ عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَن المطيعُ منهم، والعاصي له، والمُستحِقُّ للثوابِ، والمُستوجِبُ للعِقابِ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦).

وبمعناه قال مكِّي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١١). =

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ ذلك الرَّجُلَ لم يُقَصِّرْ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ، وفي الذَّبِّ عنه، فاللهُ تعالى رَدَّ عنه كَيْدَ الكافِرينَ، وقَصْدَ القاصِدِينَ[1].

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

أي: فحَفِظَ اللهُ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ، ودَفَع عنه كَيْدَهم[2].

= وقيل: يَعلَمُ المُحِقَّ مِن المُبطِلِ. وممَّن قال به: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

وقال الواحدي، وابن الجوزي، والرسعني: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ بأوليائِه وأعدائِه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠).

وقيل: المرادُ: يَهدي مَن يَستحِقُّ الهِدايةَ، ويُضِلُّ مَن يَستحِقُّ الإضلالَ. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

وقيل: المعنى: يَعلَمُ مَن يَستحِقُّ النُّصرةَ لاتِّصافِه بأوصافِ الكمالِ، ويَعلَمُ مَن يَمكُرُ فيَرُدُّ مَكْرَه عليه بما لَه مِن الإحاطةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠).

وقيل: أي: يَعلَمُ حالي وضَعفي فيَمنَعُني منكم، ويَكفيني شرَّكم، ويَعلَمُ أحوالَكم فلا تَتصرَّفون إلَّا بإرادتِه ومَشيئتِه، فإنْ سلَّطكم علَيَّ فبِحكمةٍ منه تعالى، وعن إرادتِه ومَشيئتِه صدَر ذلك. قاله: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

وقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فيَحرُسُ مَن يَلوذُ به -منهم- مِن المَكارِهِ. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

قيل: المرادُ بسَيِّئاتِ مَكرِهم: أضرارُ مَكرِهم وشدائِدُه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بفِرعَونَ وأتْباعِه ما ساءَهم مِن عذابِ اللهِ، الَّذي وَجَبَ عليهم[1].

= والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

وقيل: ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ هنا مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها، أي: المكْرَ السَّيِّئَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٢).

وقال الشنقيطي: (بعضُ العُلَماءِ يقولُ: نجَّاه اللهُ منهم مع موسى وقَومِه، وبَعضُهم يقولُ: صَعِدَ جَبَلًا فأعجَزَهم اللهُ عنه ونجَّاه منهم، وكُلُّ هذا لا دليلَ عليه، وغايةُ ما دَلَّ عليه القُرآنُ أنَّ اللهَ وَقاه سَيِّئاتِ مَكْرِهم، أي: حَفِظَه ونجَّاه منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

قيل: آلُ فِرعَونَ في هذا الموضِعِ: أتْباعُه وأهلُ طاعتِه مِن قَومِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ فِرعونَ في أشَدِّ ما في العذابِ؛ لأنَّ مَن كان على دِينِه إذا حلَّ به أشَدُّ العذابِ، فهو أحرَى أن يحلَّ عليه أشدُّ مِن ذلك). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٤٠).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعونُ نفْسُه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن قال بهذا القولِ: البيضاويُّ، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

= (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٢).

واختلف المفسِّرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ فقيل: هو نارُ جهنَّمَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

قال الزمخشري: (النَّارُ بدَلٌ من ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾. أو خبرُ مبتدَأٍ محذوفٍ، كأنَّ قائلًا قال: ما سوءُ العذابِ؟ فقيل: هو النَّارُ. أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، وفي هذا الوجهِ تعظيمٌ للنَّارِ، وتهويلٌ مِن عذابِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وقيل: المرادُ: الغرقُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كانَ الغرقُ سوءَ عذابٍ؛ لأنَّ الغريقَ يُعَذَّبُ باحتباسِ النَّفَسِ مُدَّةً وهو يَطْفو على الماءِ، ويَغوصُ فيه، ويُرْعِبُه هولُ الأمواجِ، وهو موقنٌ بالهلاكِ، ثُمَّ يكونُ عُرضةً لأكلِ الحيتانِ حَيًّا ومَيِّتًا، وذلك ألمٌ في الحياةِ، وخِزيٌ بعدَ المماتِ يُذْكَرونَ به بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

وقيل: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: الغرقُ وما بعدَه مِن النَّارِ وعذابِها. وممَّن قال بهذا القولِ: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٢).

قال ابن كثير: (هو: الغرقُ في اليَمِّ، ثمَّ النُّقْلةُ منه إلى الجحيم؛ فإنَّ أرواحَهم تُعرضُ على النَّارِ صباحًا ومساءً إلى قيامِ السَّاعةِ، فإذا كان يومُ القيامةِ اجتمعتْ أرواحُهم وأجسادُهم في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا أيضًا من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها. أي المعنى: العذابُ السَّيِّئُ، والغرَقُ لا شكَّ أنَّه من سوءِ العذابِ، لكنْ هناك عذاباتٌ أخرى أُصيبَ بها آلُ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، كلُّ هذا مِن سوءِ العذابِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٣٤٣) بتصرُّف.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾.

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾.

أي: يُعرَضونَ على النَّارِ كلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تَقومَ السَّاعةُ[1].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ * وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧، ٣٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

قال القُرطبي: (الجمهورُ على أنَّ هذا العَرضَ في البَرزخِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

قال الزمخشري: (﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ في هذَينِ الوَقتَينِ يُعَذَّبونَ بالنَّارِ، وفيما بيْنَ ذلك اللهُ أعلَمُ بحالِهم؛ فإمَّا أن يُعذَّبوا بجِنسٍ آخَرَ مِن العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنهم، ويجوزُ أن يكون ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾: عِبارةً عن الدَّوامِ، هذا ما دامَتِ الدُّنيا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٩٦).

وقال البِقاعي: (﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي: في البَرزخِ ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أي: غادِينَ ورائِحينَ في وَقتِ استِرواحِهم بالأكلِ واستِلذاذِهم به، هذا دأبُهم طولَ أيَّامِ البرزخِ، وكان عليهم في هذا العَرضِ زِيادةُ نَكَدٍ فَوقَ ما وَرَد عامًّا مِمَّا روى مالكٌ والشَّيخانِ وغيرُهم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ...»، ولعلَّ زيادةَ النَّكَدِ أنَّهم هم المعروضونَ، فيُذهَبُ بهم في الأغلالِ يُساقُونَ لِيَنظُروا ما أعَدَّ اللهُ لهم، وعامَّةُ النَّاسِ يقتصِرُ في ذلك على أن يُكشَفَ لهم -وهم في محالِّهم- عن مقاعِدِهم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٤).

الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[1].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ قِراءتانِ:

٥- قِراءةُ: ﴿ادْخُلُوا﴾ بهمزةِ وصْلٍ مضمومةٍ، وضمِّ الخاءِ، على الأمرِ لهم بالدُّخولِ، والمعنى: ويومَ تقومُ السَّاعةُ نقولُ: ادخُلوا يا آلَ فِرعونَ...، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه نِداءٌ مضافٌ[2].

٦- قِراءةُ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ بهمزةِ قطْعٍ مفتوحةٍ، وكسرِ الخاءِ، على جِهةِ الأمرِ للملائكةِ بإدخالِهم، أي: يُقالُ للملائكةِ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه مفعولٌ به[3].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ[4]: أدخِلوا فِرعونَ وأتْباعَه أشَدَّ عذابِ

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) قَرأ بها ابنُ كثيرٍ وابنُ عَمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

النَّارِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى حكايةً عن مُؤمنِ آلِ فرعونَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهكذا يجِبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقضَى أمورُه وتُسَهَّلَ؛ أن يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال لِنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)] [الأنفال: ٦٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ فيه دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ التَّوكُّلَ الصَّادِقَ على اللهِ، وتَفويضَ الأُمورِ إليه: سَبَبٌ للحِفظِ والوِقايةِ مِن كُلِّ سُوءٍ[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ التَّحذيرُ مِن أعداءِ المُسلِمينَ؛ لِقَولِه: ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾، وأنَّ أعداءَ المُسلِمينَ قد لا يُواجِهونَهم بالعداوةِ، ولكِنَّهم يَمكُرونَ بهم؛ فلْيَحْذَرِ المؤمنُ مَكْرَ أعداءِ اللهِ، وهذا في القُرآنِ كثيرٌ؛ قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[(٤)] [الطارق: ١٥ - ١٧].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ مَنِ استفرَغ وُسْعَه استحقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكفَّارُ: مَن بلَغه دَعْوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكفرِ، وعَلِم أنَّه رسولُ الله، فآمَنَ به، وآمَن بما أُنزِل عليه، واتَّقى الله ما استطاعَ، كما فعَل النَّجاشيُّ وغيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التزامُ جميعِ شرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه ممنوعًا مِن الهجرةِ، وممنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عندَه مَن يُعلِّمُه جميعَ شرائعِ الإسلامِ- فهذا مؤمنٌ من أهلِ الجنةِ، كما كان مؤمنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ(١).

٢- قومُ فِرعَونَ قد يَكونونَ أعرَضوا عن الله بالكُلِّيَّةِ بعدَ أن كانوا مشركينَ به، واستجابوا لفِرعَونَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] و: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا لَمَّا خاطَبَهم المؤمنُ ذكَر الأمْرَينِ، فقال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، فذكَر الكفرَ به الَّذي قد يَتناوَلُ جُحودَه، وذكَر الإشراكَ به أيضًا؛ فكان كلامُه مُتناوِلًا للمقالتَيْنِ والحالَيْنِ جميعًا(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ استِعمالُ التَّعريضِ؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ أوَّلَ مَن يَدخُلُ في هذه الجُملةِ هؤلاء، لكِنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتكلَّمَ بذلك صَريحًا(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ النَّارَ موجودةٌ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣٨).

الآنَ[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال ابنُ سِيرينَ: (كان أبو هُريرةَ يأتينا بعدَ صَلاةِ العَصرِ، فيَقولُ: عَرَجَتْ ملائِكةٌ، وهَبَطَت ملائِكةٌ، وعُرِضَ آلُ فِرعَونَ على النَّارِ، فلا يَسمَعُه أحَدٌ إلَّا يَتعوَّذُ باللهِ مِن النَّارِ)[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ إثباتُ عذابِ القَبرِ[٣]؛ لأنَّه يَقتَضي عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشيًّا، وليس المرادُ منه يومَ القيامةِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وليس المرادُ منه أيضًا الدُّنيا؛ لأنَّ عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشيًّا ما كان حاصِلًا في الدُّنيا؛ فثَبَت أنَّ هذا العَرْضَ إنَّما حَصَل بعدَ المَوتِ وقبْلَ يوم القيامةِ، وذلك يدُلُّ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ في حَقِّ هؤلاء، وإذ ثَبَت في حَقِّهم ثَبَت في حَقِّ غَيرِهم؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرقِ[٤].

٧- عذابُ القَبرِ نَوعانِ: نَوعٌ دائِمٌ -سِوى ما ورَدَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّه يُخَفَّفُ عنهم ما بيْنَ النَّفختَينِ- ويدُلُّ على دَوامِه قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ويدُلُّ عليه أيضًا حَديثُ سَمُرةَ الَّذي رواه البُخاريُّ في رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيه: ((فهو يُفعَلُ به ذلك إلى يَومِ القيامةِ))[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ٤٢).

ويُنظر ما أخرجه اللَّالَكائيُّ (٢١٤٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٣٩٦) من طريق ميمونِ ابنِ مَيْسَرةَ عن أبي هريرة بنحوه.

(٣) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٦). ولفظُه: ((أمَّا الَّذي رأيْتَه يُشَقُّ شِدْقُه، فكذَّابٌ يُحدِّثُ بالكَذْبةِ، فتُحْمَلُ عنه حتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ به إلى يومِ القيامةِ، والَّذي رأيْتَه يُشْدَخُ رأسُه، فرجُلٌ عَلَّمه اللهُ =

والنَّوعُ الثَّاني: إلى مُدَّةٍ ثمَّ يَنقَطِعُ، وهو عذابُ بَعضِ العُصاةِ الَّذين خَفَّت جرائِمُهم، فيُعَذَّبُ بحَسَبِ جُرمِه، ثمَّ يُخَفَّفُ عنه، كما يُعذَّبُ في النَّارِ مُدَّةً، ثمَّ يَزولُ عنه العَذابُ، وقد ينقَطِعُ عنه العذابُ بدُعاءٍ أو صَدَقةٍ أو استِغفارٍ أو ثَوابِ حَجٍّ تَصِلُ إليه مِن بَعضِ أقاربِه أو غَيرِهم[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ هذا العَرْضَ قبْلَ الحَشرِ؛ إذْ هم بعدَ الحَشرِ إذا دَخَلوها فهم دائِمونَ فيها، مُعَذَّبونَ بسَرمَدِ العَذابِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، فإنَّما العَرْضُ بالغُدُوِّ والعَشِيِّ على مَن ليس دائِمًا فيها، وقد أكَّدَ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فهذا عَذابٌ سِوى العَرضِ، وفي مَحَلٍّ غيرِ مَحَلِّ العَرْضِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ أرواحَ الكُفَّارِ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ ليس مَقَرُّها النَّارَ[3].

١٠- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، ومنه قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على

= القُرآنَ، فنامَ عنه باللَّيلِ ولم يَعمَلْ فيه بالنَّهارِ، يُفعَلُ به إلى يومِ القيامةِ)).

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

ويُنظر الكلامُ عن مُستقَرِّ الأرواحِ في البرزخ في ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١١٥).

آلِ أبي أَوْفَى))[(١)].

١١- إذا قيل: إنْ قال الله تعالى في المنافِقينَ: إنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وقال في آلِ فِرعونَ: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فأيُّهما أشَدُّ عَذابًا: المُنافِقونَ أم آلُ فِرعونَ؟

والجوابُ: أنَّ الدَّرْكَ الأسْفَلَ يَجوزُ أن يكونَ هو أشَدَّ العَذابِ، فسُمِّيَ باسمَين مُختَلِفَين، كما يقولُ القائِلُ: أدخِلْ فُلانًا المُطبِقَ[(٢)]، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلك: أدخِلْه أضْيَقَ المجالِسِ وأشَدَّها، فيكونُ هذا مُوافِقًا للأوَّلِ، غيرَ مُخالِفٍ له[(٣)].

١٢- أنَّ تَفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ، فليس عِقابُ مَن تَغلَّظ كُفرُه، وأفسَدَ في الأرضِ، ودعا إلى الكُفرِ: كمَن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وكذلك تَفاوُتُ عذابِ عُصاةِ الموحِّدينَ في النَّارِ بحَسَبِ أعمالِهم؛ فليس عقوبةُ أهلِ الكبائِرِ كعُقوبةِ أصحابِ الصَّغائِرِ، وقد يُخَفَّفُ عن بَعضِهم العذابُ بحَسَناتٍ أُخَرَ له، أو بما شاء اللهُ مِن الأسبابِ[(٤)].

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ فِرعونَ نَفْسَه في الأشَدِّ مِن ذلك؛ لأنَّهم إنَّما دَخَلوا أشَدَّ العَذابِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

والحديث رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ أبي أَوْفَى رضي الله عنه.

(٢) المُطبِقُ: سِجنٌ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

تَبَعًا له؛ فإنَّه هو الَّذي استخَفَّهم فأطاعوه، وغَرَّهم فاتَّبَعوه؛ ولهذا يكونُ يومَ القيامةِ إمامَهم وفَرَطَهم(١) في هذا الوِردِ؛ قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]. والمقصودُ: أنَّهم استَحَقُّوا أشَدَّ العذابِ؛ لِغِلَظِ كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ اللهِ، وعُقوبتِهم مَنْ آمَنَ باللهِ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أعاد نِداءَهم، وعُطِفَت حِكايتُه بواوِ العطْفِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نِداءَه اشتمَلَ على ما يَقْتضي في لُغتِهم أنَّ الكلامَ قد تَخطَّى مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وأنَّه سيَطْرُقُ ما يُغايِرُ أوَّلَ كَلامِه مُغايرةً ما تُشبِهُ مُغايرةَ المتعاطفَينِ في لُغةِ العرَبِ، وأنَّه سيَرْتَقي باستِدراجِهم في دَرَجِ الاستِدلالِ إلى المقصودِ بعْدَ المقدِّماتِ؛ فانتقَلَ هنا إلى أنْ أنكَرَ عليهم شيئًا جَرى منهم نحوه؛ وهو أنَّهم أعْقَبوا مَوعظتَه إيَّاهم بدَعوتِه للإقلاعِ عن ذلك، وأنْ يَتمسَّكَ بدِينِهم، وهذا شَيءٌ مَطْويٌّ في خِلالِ القصَّةِ دلَّتْ عليه حِكايةُ إنكارِه عليهم، وهو كلامُ آيِسٍ مِنِ استِجابتِهم؛ لقولِه فيه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، ومُتوقِّعٍ أذاهم؛ لقولِه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، ولقولِه تعالى آخِرَ القصَّةِ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]، فصرَّحَ هنا وبيَّن بأنَّه لم يَزَلْ يَدعوهم إلى اتِّباعِ ما جاء به مُوسى، وفي

---

(١) أي: مُتقدِّمَهم وسابقَهم، والفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ القَومَ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونحوَها حتَّى يَرِدُوا فيَشرَبوا. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (٣/ ٢٢٧٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٩/ ١٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٩).

قال البقاعي: (وإذا كان هذا لآلِه لِأَجْلِه؛ كان له أعظَمُ منه مِن بابِ الأَوْلى). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨٢).

اتِّباعِه النَّجاةُ مِن عَذابِ الآخرة[(١)].

- وقيل: قد جِيءَ بالواوِ في النِّداءِ الثَّالثِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ خِلافًا للنِّداءِ الثَّاني؛ لأنَّ النِّداءَ الثَّانيَ بمنزلةِ بَيانٍ للأوَّلِ وتَفسيرٍ له، فأُعطِيَ حُكمَه في عَدَمِ دُخولِ الواوِ عليه، وأمَّا الثَّالثُ فداخلٌ على كَلامٍ ليس بتلك المنزلة[(٢)].

- وتَكريرُ نِدائِهم فيه زِيادةُ تَنبيهٍ لهم، وإيقاظٌ عن سِنَةِ الغَفلةِ. وفيه أنَّهم قَومُه وعَشيرتُه، وهمْ فيما يُوبِقُهم، وهو يَعلَمُ وَجْهَ خَلاصِهم، ونَصيحتُهم عليه واجبةٌ، فهو يَتحزَّنُ لهم ويَتلطَّفُ بهم، ويَسْتدعي ذلك ألَّا يَتَّهِموه؛ فإنَّ سُرورَهم سُرورُه، وغَمَّهم غَمُّه، ويَنزِلوا على تَنصيحِه لهم[(٣)].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ؛ فإنَّه يَعجَبُ مِن دَعوتِهم إيَّاه لِدينِهم، مع ما رَأَوْا مِن حِرْصِه على نُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى النَّجاةِ، وما أتاهم به مِن الدَّلائلِ على صِحَّةِ دَعوتِه، وبُطلانِ دَعوتِهم[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾

- جُملةُ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ...﴾ بيانٌ لِجُملةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢).

لأنَّ الدَّعوةَ إلى النَّارِ أمْرٌ مُجمَلٌ مُستغرَبٌ، فبيَّنه ببيانِ أنَّهم يَدْعونه إلى التَّلبُّسِ بالأسبابِ الموجِبةِ عَذابَ النَّارِ، والمعنى: تَدْعونني للكفْرِ باللهِ، وإشراكِ ما لا أعلَمُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، ومعنى ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ما ليس لي بصِحَّتِه أو بوُجودِه عِلمٌ، والكلامُ كِنايةٌ عن كَونِه يَعلَمُ أنَّها ليستْ آلهةً بطَريقِ الكِنايةِ بنَفْيِ اللَّازمِ عن نَفْيِ الملزومِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأُلوهيَّةَ لا بُدَّ لها مِن بُرهانٍ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فاعتِقادُها لا يصِحُّ إلَّا عن إيقانٍ، وعُطِفَ عليه ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ فكان بَيانًا لِمُجمَلِ جُملةِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[١].

- وجاء في حقِّهم بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ الَّتي لا تَقْتضي توكيدًا؛ إذ دَعوتُهم باطلةٌ لا ثُبوتَ لها فتُؤكَّدَ[٢].

- وإبرازُ ضَميرِ المتكلِّمِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على خَبَرِه الفِعليِّ[٣].

- وأوصَلَ سَببَ دُعائِهم بمُسَبَّبِه، وهو الكُفرُ والنَّارُ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، وأخَّرَ سببَ مُسبَّبِه ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لِيكونَ افتِتاحُ كَلامِه واختِتامُه بما يَدْعو إلى الخَيرِ[٤].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى الصِّفتَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لإدماجِ الاستِدلالِ على استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ، بوَصْفِه العزيزِ؛ لأنَّه لا تَنالُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

النَّاسُ، بخِلافِ أصنامِهم؛ فإنَّها ذَليلةٌ تُوضَعُ على الأرضِ، ويَلتصِقُ بها القَتامُ -أي: الغُبارُ- وتُلوِّثُها الطُّيورُ بذَرْقِها[(١)]، ولإدماجِ تَرغيبِهم في الإقلاعِ عن الشِّركِ بأنَّ الموحَّدَ بالإلهيَّةِ يَغفِرُ لهم ما سلَفَ مِن شِرْكِهم به؛ حتَّى لا يَيْئسوا مِن عَفْوِه بعْدَ أنْ أساؤُوا إليه[(٢)].

- وبدأ هنا باسمِ العَزيزِ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضيه؛ إذ إنَّ هؤلاء أقباطٌ مِن آلِ فِرعَونَ يَظُنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم، ولم يَقُلْ: (إلى الغَفورِ الرَّحيمِ)، بل قال: ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، يعني: العزيزَ الغالِبَ، فيُهلِكُكم إذا أنتم كفَرْتُم به أو أشرَكْتُم به؛ ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَغفِرُ لكم ما سَبَق إن أنتم آمَنْتُم به، وهذا مِن تمامِ فِقهِ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ فالمقامُ يَقتَضي ذِكرَ اسمِه العزيزِ؛ لأنَّ هؤلاء يَدَّعُونَ أنَّهم فوقَ النَّاسِ، وأنَّ رَبَّهم فِرعَونُ، وأنَّه لا غالِبَ له[(٣)]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ...﴾ واقعٌ موقِعَ التَّعليلِ لِجُملَتَيْ ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه إذا تَحقَّقَ أنْ لا دَعوةَ للأصنامِ في الدُّنيا بدَليلِ المشاهَدةِ، ولا في الآخرةِ بدَلالةِ الفَحْوى؛ فقدْ تَحقَّق أنَّها لا تُنْجي أتْباعَها في الدُّنيا، ولا يُفيدُهم دُعاؤُها ولا نِداؤُها، وتَحقَّقَ إذَنْ أنَّ المرْجُوَّ للإنعامِ في الدُّنيا والآخرةِ هو الرَّبُّ الَّذي يَدْعوهم هو إليه، وهذا دَليلٌ إقناعيٌّ غيرُ قاطعٍ للمُنازِعِ في إلهيَّةِ ربِّ هذا المؤمِنِ، ولكنَّه أراد إقْناعَهم،

(١) الذَّرقُ مِنَ الطَّائرِ كالتَّغَوُّطِ مِن الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

واستَحْفَظَهم دَليلَه؛ لأنَّهم سيَظهَرُ لهم قَريبًا أنَّ ربَّ مُوسى له دَعوةٌ في الدُّنيا؛ ثِقةً منه بأنَّهم سيَرَون انتصارَ مُوسى على فِرعونَ، ويَرَونَ صَرْفَ فِرعونَ عن قتْلِ مُوسى بعْدَ عَزْمِه عليه، فيَعلَمون أنَّ الَّذي دَعا إليه مُوسى هو المُتصرِّفُ في الدُّنيا، فيَعلَمون أنَّه المُتصرِّفُ في الآخرةِ[1].

- وفِعلُ الدَّعوةِ (دعا) إذا رُبِطَ بمُتعلَّقٍ غَيرِ مَفعولِه يُعدَّى تارةً باللَّامِ، وهو الأكثرُ في الكلامِ، ويُعدَّى بحَرْفِ (إلى)، وهو الأكثَرُ في القرآنِ؛ لِمَا يَشتمِلُ عليه مِن الاعتباراتِ؛ ولذلك عُلِّقَ به مَعمولُه في هذه الآياتِ أربَعَ مرَّاتٍ بـ (إلى) ومرَّةً باللَّامِ، مع ما في رَبْطِ فِعلِ الدَّعوةِ بمُتعلَّقه -الَّذي هو من المَعنويَّاتِ- مِن مُناسَبةِ لامِ التَّعليلِ، مِثلُ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾، ورَبْطِه بما هو ذاتٌ بحَرْفِ (إلى) في قولِه: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾؛ فإنَّ النَّجاةَ هي نَجاةٌ مِن النَّارِ؛ فهي نَجاةٌ مِن أمْرٍ مَحسوسٍ، وقولِه: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ و﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾؛ لأنَّ حرْفَ (إلى) دالٌّ على الانتهاءِ؛ لأنَّ الَّذي يَدْعو أحدًا إلى شَيءٍ إنَّما يَدْعوه إلى أنْ يَنتهِيَ إليه، فالدُّعاءُ إلى اللهِ الدُّعاءُ إلى تَوحيدِهِ؛ فشُبِّهَ بشَيءٍ مَحسوسٍ تَشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وشُبِّهَ اعتقادُه صِحَّتَه بالوُصولِ إلى الشَّيءِ المَسْعيِّ إليه، وشُبِّهَت الدَّعوةُ إليه بالدَّلالةِ على الشَّيءِ المرغوبِ الوصولُ إليه[2].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ عطْفَ اللَّازمِ على مَلزومِه؛ لأنَّه إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥٣).

تبيَّن أنَّ ربَّ مُوسى المُسمَّى (الله) هو الَّذي له الدَّعوةُ، تبيَّن أنَّ المَرَدَّ -أي: المصيرَ- إلى اللهِ؛ في الدُّنيا بالالتِجاءِ والاستِنصارِ، وفي الآخرةِ بالحُكْمِ والجزاءِ، ولو عُطِفَ مَضمونُ هذه الجُملةِ بالفاءِ المفيدةِ للتَّفريعِ لَكانت حَقيقةً بها، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك إلى عطْفِها بالواوِ؛ اهتمامًا بشَأْنِها؛ لِتَكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بنفْسِها، غيرَ باحثٍ سامِعُها على ما تَرتبِطُ به؛ لأنَّ الشَّيءَ المُتفرِّعَ على شَيءٍ يُعتبَرُ تابعًا له. وكذلك جُملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بالنِّسبةِ إلى تَفرُّعِ مَضمونِها على مَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا كان المصيرُ إليه كان الحُكْمُ والجزاءُ بيْن الصَّائرينَ إليه مِن مُثابٍ ومُعاقَبٍ، فيَتعيَّنُ أنَّ المعاقَبَ هم الكافرونَ باللهِ[(١)].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تَعريفُ الجنْسِ المُفيدِ للاستِغراقِ، وهو تَعريضٌ بالَّذين يُخاطِبُهم؛ إذ هم مُسرِفون على كلِّ تَقديرٍ؛ فهمْ مُسرِفون في إفراطِ كُفْرِهم بالرَّبِّ الَّذي دعا إليه مُوسى، ومُسرِفون فيما يَسْتتبِعُ ذلك مِن المعاصي والجرائمِ؛ فضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يُفِيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[(٢)]؛ لأنَّهم المُتناهُون في صُحبةِ النَّارِ بسَببِ الخُلودِ، بخِلافِ عُصاةِ المؤمنينَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥).

(٢) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغة، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((عروس الأفراح)) للسبكي (١/ ٣٩٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٤، ٥٤٥).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥، ١٥٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ختَمَ المؤمنُ كَلامَه بخاتمةٍ لَطيفةٍ تُوجِبُ التَّخويفَ والتَّهديدَ، وهي قولُه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾، أي: إذا حلَّ بكم عِقابُ اللهِ، وهذا الكلامُ مُتارَكةٌ لِقَومِه، وتَنهيةٌ لِخِطابِه إيَّاهم، ولَعلَّه استَشْعَرَ مِن مَلامحِهم أو مِن مُقاطعتِهم كَلامَه بعباراتِ الإنكارِ، ما أيْأَسَه مِن تَأثُّرِهم بكَلامِه، فتَحدَّاهم بأنَّهم إنْ أعْرَضوا عن الانتِصاحِ لِنُصْحِه، سيَنْدَمون حينَ يَرَونَ العذابَ؛ إمَّا في الدُّنيا، كما اقتضاهُ تَهديدُه لهم بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]، أو في الآخرةِ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]؛ فالفاءُ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾(١) [غافر: ٤١].

- وقولُه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ومَساقُ هذه الجُملةِ مَساقُ الانتِصافِ منهم؛ لِمَا أظْهَروه له مِن الشَّرِّ، يعني: أنِّي أَكِلُ شَأني وشَأْنَكم معي إلى قَضاءِ اللهِ وقدَرِه، لا إليكمْ ولا إلى أصنامِكم؛ فهو يَجْزي كلَّ فاعلٍ بما فَعَل، وهذا كَلامُ مُنصِفٍ؛ فالمُرادُ بـ﴿أَمْرِيٓ﴾ شأني ومُهِمِّي، ويدُلُّ لمعنى الانتِصافِ تَعقيبُه بما يُوجِبُ تَفويضَ الأمرِ للهِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، مُعلِّلًا تَفويضَ أمْرِه معهم إلى اللهِ بأنَّ اللهَ بصيرٌ بجَميعِ العِبادِ؛ فعُمومُ (العِبادِ) شَمِلَه وشَمِلَ خُصومَه(٢).

- وختَمَ كَلامَه بجُملةٍ اسميَّةٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ لِيَكونَ أبلَغَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦، ١٥٧).

تَوكيدِ الأخبارِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- تَفريعُ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أضْمَروا مَكرًا بمُؤمنِ آلِ فِرعونَ، وتَسميتُه مَكْرًا مُؤذِنٌ بأنَّهم لم يُشعِروه به، وأنَّ اللهَ تكفَّلَ بوقايتِه؛ لأنَّه فوَّضَ أمْرَه إليه[٢].

- قولُه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ (ما) مَصدريَّةٌ، والمعنى: سَيِّئاتِ مَكْرِهم. وإضافةُ ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ إلى (مَكْر) إضافةٌ بَيانيَّةٌ، وهي هنا في قوَّةِ إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ؛ لأنَّ المكْرَ سيِّئٌ، وإنَّما جُمِعَ السَّيِّئاتُ باعتبارِ تَعدُّدِ أنواعِ مَكْرِهم الَّتي بيَّتُوها[٣].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: بفِرعونَ وقَومِه، وعَدمُ التَّصريحِ به؛ للاستِغناءِ بذِكرِهم عن ذِكرِه؛ ضرورةَ أنَّه أَولَى منهم بذلك[٤].

- والعذابُ هنا: الغرَقُ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، ومُناسَبةُ فِعلِ (حاق) لذلك العذابِ أنَّه ممَّا يَحيقُ على الحقيقةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ سُوءِ العذابِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

- وقولُه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ فيه تَعظيمٌ للنَّارِ، وتَهويلٌ مِن عذابِها[(١)].

- وقوله: ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن الدَّوامِ؛ لأنَّ الزَّمانَ لا يَخْلو عن هذَينِ الوقتَينِ، وقيل: ذِكرُ الوقتَينِ يَحتمِلُ التَّخصيصَ[(٢)].

- وقولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ ذِكرٌ لِعَذابِ الآخرةِ الخالدِ، وقيل: عُلِمَ مِن عَذابِ آلِ فِرعونَ أنَّ فِرعونَ داخلٌ في ذلك العذابِ بدَلالةِ الفَحْوى[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وذلك على أنَّ قولَه: ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأٌ، وجملةَ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ خبرُه، والجملةَ تفسيرٌ لقولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ففي هذا الوجهِ تعظيمُ أمرِ النَّارِ، وتهويلُ عذابِها، ومنشأُ التعظيمِ: الإجمالُ، والتفسيرُ في كيفيةِ تعذيبِهم، وإفادةُ كلٍّ مِن الجملتينِ نوعًا مِن التَّهويلِ؛ الأُولى: الإحاطةُ بعذابٍ يستحِقُّ أنْ يسمَّى (سوءَ العذابِ). والثانيةُ: النَّارُ المعروضُ عليها غدوًّا وعشيًّا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩).

وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهي عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَحَآجُّونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدِ جادَّةِ الطَّريقِ[(١)].

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: الخَزَنةُ: جمْعُ الخازِنِ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ على النَّارِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ؛ كحِفْظِ السِّرِّ ونحوِه، وأصلُ (خزن): يدُلُّ على صيانةِ الشَّيءِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن بعضِ ما يَدورُ بيْنَ أهلِ النَّارِ من جدالٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ في النَّارِ، فيَقولُ الضُّعَفاءُ مِن الأتْباعِ لِكُبَرائِهم المتبوعينَ في الدُّنيا: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا تابِعينَ مُطيعينَ لكم، فهل أنتم دافِعونَ عَنَّا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ٤٠).

شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟ قال كُبَراؤُهم: إنَّنا جميعًا في النَّارِ، إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه!

وقال أهلُ النَّارِ لخَزَنةِ جهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ. قال لهم خَزَنةُ جهنَّمَ: أوَلَم تكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ؟ قالوا: بلى. قالوا لهم: فادعُوا اللهَ إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ، وما دُعاءُ الكافِرينَ لله إلَّا في ضَياعٍ وخُسرانٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكلامَ في تلك القِصَّةِ لَمَّا انجَرَّ إلى شَرحِ أحوالِ النَّارِ؛ لا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ عَقِبَها قِصَّةَ المناظَراتِ الَّتي تجري بيْنَ الرُّؤَساءِ والأتْباعِ مِن أهلِ النَّارِ(١).

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ(٢) ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشرِكو أمَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).
وقيل: المرادُ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن استظهَر هذا: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٢).
وقيل: هم الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).
وقيل: المرادُ: جميعُ كُفَّارِ الأُمَمِ، وأنَّ هذا ابتداءُ قَصَصٍ لا يختَصُّ بآلِ فِرعَونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وهو ظاهِرُ اختيارِ القرطبي، واختاره الثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير =

ويَتخاصَمونَ في النَّارِ[(١)].

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾.

أي: فيَقولُ الضُّعَفاءُ -وهم الأتْباعُ- لِرُؤسائِهم المَتبوعينَ الَّذين تَكبَّروا وتَعاظَموا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَتَّبِعُكم ونُطيعُكم فيما دَعَوْتُمونا إليه مِنَ الضَّلالِ[(٢)].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُستَكبِرونَ- مُتَحَمِّلونَ عنَّا قِسطًا وجُزءًا مِنَ النَّارِ[(٣)]؟!

= ابن عطية)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن تَحاجِّ أهلِ النَّارِ في النَّارِ، وتخاصُمِهم، وفِرعَونُ وقَومُه من جُملتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار العُمومَ أيضًا -وأنَّ المرادَ: أهلُ النَّارِ-: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عاشور: (الضُّعَفاءُ: عامَّةُ النَّاسِ الَّذين لا تَصَرُّفَ لهم في أمورِ الأُمَّةِ. والَّذين استَكبَروا: سادةُ القَومِ، أي: الَّذين تكَبَّروا كِبْرًا شَديدًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٠، ١٦١).

وقال ابن عثيمين: (الضُّعفاءُ إمَّا في المالِ، وإمَّا في الشَّرفِ والسِّيادةِ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعَدُّ ضَعفًا، والغالبُ أنَّ الضَّعيفَ يَتبعُ القَويَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ ﴾.

أي: قال المُستكبِرونَ: نحن وأنتم جميعًا مُعَذَّبونَ في النَّارِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ، فلا يُؤاخِذُ أحَدًا بذَنْبِ غيرِه، وقَسَم بيْنَنا العَذابَ بقَدرِ ما يَستَحِقُّه كُلُّ واحدٍ مِنَّا، ولن يُغنيَ أحَدٌ عن أحَدٍ شيئًا(٢)!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ظَهَر أنَّه لا يُغْني أحَدٌ عن أحَدٍ شَيئًا؛ أخبَرَ أنَّهم لَمَّا رأَوا بُعْدَهم مِنَ اللهِ، وأنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِدُعائِه سُبحانَه؛ عَلَّقوا آمالَهم بتوسُّطِ الملائكةِ(٣).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

قال ابن عاشور: (معنى قولِهم: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ نحنُ وأنتم مُستوونَ في الكَونِ في النَّارِ، فكيفَ تَطمعونَ أن نَدفعَ عنكم شيئًا مِن العذابِ؟ وعلى وجْهِ أن يكونَ قولُ الضُّعفاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ إلى آخِرِه توبيخًا ولَومًا لزعمائِهم يَكونُ قولُ الزُّعماءِ: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ اعترافًا بالغلَطِ، أي: دَعُوا لَوْمَنا وتَوبيخَنا؛ فقد كَفانا أنَّا معكم في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤).

أي: وقال أهلُ النَّارِ مِن المُستَكبِرينَ والضُّعَفاءِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ؛ فتَحصُلَ لنا بعضُ الرَّاحةِ[1]!

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال لهم خَزَنةُ جهنَّمَ: أوَلَم تَكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ[2]؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

أي: قال الَّذين في النَّارِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا الرُّسُلُ بالبَيِّناتِ، فكذَّبْناهم ولم نُؤمِنْ بالحَقِّ بعد أن قامَت علينا حُجَّةُ اللهِ البالِغةُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

قال ابنُ جرير: (معنى ذلك: قَدْرَ يومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ يومٌ لا لَيْلَ بعدَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥).

قال ابن عاشور: (الواوُ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ لم يُعرِّجِ المفسِّرونَ على مَوقِعِها. وهي واوُ العطفِ، عطَف بها خَزَنةُ جهنَّمَ كلامَهم على كلامِ الَّذين في النَّارِ مِن قَبيلِ طريقةِ عطفِ المُتكلِّمِ كلامًا على كلامٍ صدَر مِن المخاطَبِ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكونَ مِن بقيَّةِ كلامِه وألَّا يُغفِلَه، وهو ما يُلَقَّبُ بـ «عطفِ التَّلقينِ»، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿قَالُواْ فَادْعُواْ﴾.

أي: قال خَزَنةُ جَهَنَّمَ: فادعُوا اللهَ إذْنَ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ[1].

﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَـٰلٍ﴾.

أي: وما دُعاءُ الكافِرينَ للهِ وهم في نارِ جَهنَّمَ إلَّا في ضَياعٍ؛ فهو غيرُ مُوصِلٍ للمَقصودِ، ولا مُحَقِّقٍ للمَطلوبِ؛ فاللهُ لا يَستجيبُ دُعاءَهم، ولا يَتقبَّلُه منهم[2]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ فيه عِبرةٌ لِزُعماءِ الأُمَمِ وقادتِهم: أن يَحذَروا الارتِماءَ بأنفُسِهم في مَهاوي الخُسرانِ، فيُوقِعوا المُقتَدِينَ بهم في تلك المَهاوي؛ فإنْ كان إقدامُهم ومُغامَرتُهم بأنفُسِهم وأُمَمِهم على عِلمٍ بعواقِبِ ذلك كانوا أحْرياءَ بالمَذَمَّةِ والخِزْيِ في الدُّنيا، ومُضاعَفةِ العذابِ في الآخِرةِ؛ إذ ما كان لهم أن يَغُرُّوا بأقوامٍ وكَّلوا أُمورَهم بقادتِهم عن حُسنِ ظَنٍّ فيهم: أن يَخونوا أمانَتَهم فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وإن كان قَحْمُهم أنفُسَهم في مَضائقِ الزَّعامةِ عن جَهلٍ بعَواقِبِ قُصورِهم وتَقصيرِهم، فإنَّهم مَلُومونَ على عدَمِ التَّوَثُّقِ مِن كفاءَتِهم لتَدبيرِ الأُمَّةِ، فيَخبِطوا بها خَبْطَ عَشواءَ حتَّى يَزِلُّوا بها، فيَهْوُوا بها من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٢).

شواهِقَ بَعيدةٍ، فيَصيروا رَميمًا، ويَلْقَوا في الآخِرةِ جَحيمًا[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، أي: ذَهابٍ في غيرِ طَريقٍ مُوصِلٍ، كما كانوا هُم في الدُّنيا كذلك؛ فإنَّ الدُّنيا مَزرَعةُ الآخِرةِ: مَن زرَع شَيئًا في الدُّنيا، حَصَده في الآخِرةِ، والآخرةَ ثَمرةُ الدُّنيا: لا تُثمِرُ إلَّا مِن جِنسِ ما غُرِسَ في الدُّنيا[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع مَخلوقًا في مَعصيةِ اللهِ كان له نَصيبٌ مِن هذا الذَّمِّ والعِقابِ، والمُطيعُ للمَخلوقِ في مَعصيةِ اللهِ ورَسولِه: إمَّا أن يَتَّبِعَ الظَّنَّ، وإمَّا أن يَتَّبِعَ ما يَهواه، وكثيرٌ يَتَّبِعُهما، وهذه حالُ كُلِّ مَن عصَى رَسولَ اللهِ مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، ومِن أهلِ البِدَعِ والفُجورِ من هذه الأُمَّةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ هذا إخبارٌ من الله وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشْتَركوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شيئًا، وأصرَحُ مِن هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

ٱلۡأَسۡبَابُ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وهذا يدُلُّ على أنَّ كُفرَ مَنِ اتَّبَعهم إنَّما هو بمُجرَّدِ اتِّباعِهم وتقليدِهم[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ ﴾ بَعْدَ قَولِه سبحانه: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ حُجَّةٌ في تعذيبِ فِرعَونَ مع سائرِ آلِ فِرعَونَ في البَرزخِ وفي يوم القيامةِ، ومعلومٌ أنَّ فِرعَونَ هو رأسُ المستكبِرينَ؛ وهو الَّذي استخفَّ قَومَه فأطاعوه، ولم يَسْتكبِرْ أحدٌ استِكبارَ فِرعَونَ! فهو أحَقُّ بهذا النَّعتِ والحُكمِ مِن جميعِ قَومِه[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾ المرادُ بالعبادةِ هنا: العبادةُ العامَّةُ -وهي العبادةُ الكَونيَّةُ-؛ لأنَّ العبادةَ نَوعانِ:

النَّوعُ الأوَّلُ: عبوديةٌ عامَّةٌ: وهي العُبوديَّةُ الكَونيَّةُ، وتشمَلُ المؤمِنَ والكافِرَ، والبرَّ والفاجِرَ؛ لقولِه تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: ٩٣] . فكلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ فهو خاضِعٌ لله سبحانَه كونًا.

والنَّوعُ الثاني: عُبوديَّةٌ خاصَّةٌ: وهي العبوديَّةُ الشَّرعيَّةُ، وهي التَّذلُّلُ له سبحانه

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢، ٤١٣).
وفصَّل ابنُ القيِّم في أمرِ المقلِّد؛ ففرَّق بيْنَ مُقلِّدٍ تمكَّن مِن العِلمِ ومعرفةِ الحقِّ فأعرَضَ عنه، ومُقلِّدٍ لم يَتمكَّنْ مِن ذلك بوجهٍ، والقِسمانِ واقِعانِ في الوُجودِ؛ فالمُتمكِّنُ المُعرِضُ مُفرِّطٌ تاركٌ للواجبِ عليه، لا عُذرَ له عندَ اللهِ، وأمَّا العاجزُ عن السُّؤالِ والعِلمِ، الَّذي لا يَتمكَّنُ مِن العلمِ بوجهٍ، فهم قِسمانِ أيضًا: أحدُهما: مُريدٌ للهدَى، مُؤْثِرٌ له، مُحِبٌّ له، غيرُ قادرٍ عليه ولا على طلبِه؛ لعدمِ مَن يُرشِدُه، فهذا حُكمُه حُكمُ أربابِ الفَتراتِ، ومَن لم تَبلُغْه الدَّعوةُ. الثَّاني: مُعرِضٌ لا إرادةَ له، ولا يُحدِّثُ نفْسَه بغيرِ ما هو عليه، وهذا لا يجبُ أن يَلحقَ بالأولِ؛ لما بيْنَهما مِن الفَرقِ، فهناك فَرقٌ بيْنَ عَجْزِ الطَّالبِ وعَجزِ المُعرِضِ. ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).

شرعًا، فهذه خاصَّةٌ بالمؤمنينَ بالله، القائِمينَ بأمرِه[(١)].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ...﴾ كُلُّ كَلامٍ ذُكِرَ في القُرآنِ من كَلامِهم كُلِّه فهو قَبْلَ أن يَقولَ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[(٢)] [المؤمنون: ١٠٨].

٦- أنَّ أهلَ النارِ يُعَذَّبون عذابًا بدنيًّا وعذابًا قلبيًّا؛ فالعذابُ القلبيُّ هو التَّقريعُ والتَّوبيخُ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، فهذا يكونُ أشَدَّ عليهم مِن عذابِ البَدَنِ، ولهذا يقولونَ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾[(٣)] [الملك: ١١].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، دَلَّتْ هذه الآيةُ وأمثالُها في القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ الإنذارِ والإعذارِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، ودلَّت هذه الآياتُ أيضًا على أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٦، ٦٧).

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾، استدلَّ به مَن قال: إنَّ دعاءَ الكافرينَ لا يُستجابُ، وأنَّهم لا يُمكَّنونَ مِن الخروجِ في الاستِسقاءِ[١]، وأمَّا ما يُوهِمُ استِجابةَ دُعاءِ الكافرينَ، نحو قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]، وقولِه: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]؛ فظاهرٌ أنَّ هذه لا تدُلُّ على استِجابةِ كَرامةٍ، ولكنَّها لِتَسجيلِ كُفْرِهم ونُكرانِهم، وقد يُتوهَّمُ في بَعضِ الأحوالِ أنْ يَدْعُوَ الكافرُ فيَقَعَ ما طَلَبَه، وإنَّما ذلك لِمُصادَفةِ دُعائِه وَقْتَ إجابةِ دُعاءِ غيرِه مِن الصَّالحينَ، وكيف يُستجابُ دُعاءُ الكافرِ وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِبعادُ استِجابةِ دُعاءِ المؤمنِ الَّذي يأكُلُ الحرامَ ويَلبَسُ الحرامَ في حديثِ مُسلم عن أبي هُريرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((ذكَر الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفرَ، أشْعَثَ أغبَرَ، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[٢]؛ ولهذا لم يَقُلِ اللهُ: فلمَّا استجابَ دُعاءَهم، وإنَّما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [لقمان: ٣٢]، أي: لأنَّه قدَّرَ نَجاتَهم من قبْلِ أنْ يَدْعوا، أو لأنَّ دُعاءَهم صادَفَ دُعاءَ بَعضِ المؤمنينَ[٣].

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦، ١٦٧).

لكن قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المُضطَرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضَّرورةَ إليه باللَّجاءِ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلب عمَّا سِواه، وللإخلاصِ عندَه سبحانَه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد من مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣). =

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ ...﴾ يجوزُ أنْ يكونَ (إذ) مَعمولًا لـ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ؛ فيكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾، والضَّميرُ عائدًا إلى ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٣٥]، وما بيْنَ هذا وذاك اعتراضٌ واستِطرادٌ؛ لأنَّها قُصِدَ منها عِظَةُ المشركينَ بمَن سبَقهم مِن الأُمَمِ المكذِّبينَ، فلمَّا استُوفِيَ ذلك عادَ الكلامُ إليهم، ويُفيدُ ذلك صَريحَ الوعيدِ للمشركينَ بعْدَ أنْ ضُرِبَتْ لهمُ الأمثالُ(١).

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ قُرِنَ ﴿فَيَقُولُ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ كَونِ هذا القولِ ناشئًا عن تَحاجِّهم في النارِ(٢).

- و(الذين استَكْبروا)، أي: الَّذين تَكبَّروا كِبْرًا شَديدًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ قولُ الضُّعفاءِ للكُبراءِ هذا الكلامَ يَحتمِلُ أنَّه على حَقيقتِه؛ فهو ناشئٌ عمَّا اعْتادُوه مِن اللَّجأِ إليهم في مُهِمِّهم حِينَ كانوا في الدُّنيا، فظَنُّوا أنَّهم يَتولَّون تَدبيرَ

= ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦١).

أُمورِهم في ذلك المكانِ؛ ولهذا أجاب الَّذين استَكْبَروا بما يُفِيدُ أنَّهم اليومَ سواءٌ في العَجْزِ، وعدمِ الحِيلةِ؛ فقالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: لو أغْنَيْنا عنكم لَأغْنَيْنا عن أنفُسِنا. وتَقديمُ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ على طلَبِ التَّخفيفِ عنهم مِن النَّارِ مُقدِّمةٌ للطَّلَبِ؛ لِقَصْدِ تَوجيهِه وتَعليلِه، وتَذكيرِهم بالوَلاءِ الَّذي بيْنَهم في الدُّنيا، يُلهِمُهم اللهُ هذا القولَ؛ لافتِضاحِ عَجْزِ المستكبِرينَ أنْ يَنفَعوا أتْباعَهم؛ تَحقيرًا لهم جَزاءً على تَعاظُمِهم الَّذي كانوا يَتعاظَمون به في الدُّنيا. ويحتملُ أنَّ قولَ الضُّعفاءِ ليس مُستعمَلًا في حَقيقةِ الحثِّ على التَّخفيفِ عنهم، ولكنَّه مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، أي: كُنتم تَدْعُوننا إلى دِينِ الشِّركِ، فكانت عاقبةُ ذلك أنَّا صِرْنا في هذا العذابِ؛ فهلْ تَستطيعونَ الدَّفْعَ عنَّا؟! وتأْكيدُ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبرِ، وليس لِرَدِّ إنكارٍ[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُستعمَلٌ في الحثِّ واللَّومِ على خِذلانِهم، وتَرْكِ الاهتِمامِ بما همْ فيه من عَذابٍ. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، أي: هلْ مِن شأْنِكم أنَّكم مُغْنون عنَّا[2]؟

- وضُمِّنَ ﴿مُّغْنُونَ﴾ معنى: (دافِعون) و(رادُّون)؛ فلذلك عُدِّيَ إلى مفعولٍ، وهو ﴿نَصِيبًا﴾، أي: جُزْءًا مِن حَرِّ النَّارِ غيرَ مُحدَّدِ المِقدارِ مِن قُوَّتِها، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانٌ لـ﴿نَصِيبًا﴾، كقَولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ فهم قانِعونَ بكلِّ ما يُخفَّفُ عنهم مِن شِدَّةِ حَرِّ النَّارِ، وغيرُ طامِعينَ في الخُروجِ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مُّغۡنُونَ﴾ على معناهُ دونَ تَضمينٍ، ويكونَ ﴿نَصِيبٗا﴾ مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ لِـ ﴿مُّغۡنُونَ﴾، والتَّقديرُ: غَناءً نَصيبًا، أي: غَناءً ما ولو قَليلًا، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿مُّغۡنُونَ﴾، كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّصيبُ الجزْءَ مِن أزمنةِ العذابِ؛ فيَكونَ على حَذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: من مُدَّةِ النَّارِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ لَمَّا كان جَوابُ الَّذين استكْبَروا للَّذين استُضْعِفوا جاريًا في مَجرى المُحاوَرةِ، جُرِّدَ فِعلُ ﴿قَالَ﴾ مِن حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ المُحاوَرةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ فيه تأْكيدُ الكلامِ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِه، أو لِتنزيلِ مَن طالَبوهم بالغَناءِ عنهم مِن عَذابِ النَّارِ، مع مُشاهَدتِهم أنَّهم في العذابِ مِثلُهم، مَنزِلةَ مَن يَحسَبُهم غيرَ واقِعينَ في النَّارِ[٣].

- وفي هذا التَّنزيلِ ضَرْبٌ مِن التَّوبيخِ؛ يقولون: أَلَسْتُم تَرَوْنَنا في النَّارِ مِثلَكم، فكيف نُغْني عنكم[٤]؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ تتنزَّلُ مَنزِلةَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾؛ فكِلْتَا الجُملتَينِ جَوابٌ لهم مُؤيِسٌ مِن حُصولِ التَّخفيفِ عنهم. وما في هذه الجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن عُمومِ تَعلُّقِ فِعلِ الحُكْمِ بيْنَ العِبادِ ما يَجعَلُ هذا البَدَلَ بمَنزلةِ التَّذييلِ، أي: إنَّ اللهَ حكَمَ بيْنَ العِبادِ كلِّهم بجَزاءِ أعْمالِهم، فكان قِسْطُنا مِن الحُكْمِ هذا العذابَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ لَمَّا لم يَجِدوا مَساغًا للتَّخفيفِ مِن العذابِ في جانبِ كُبرائِهم، وتَنصَّلَ كُبراؤُهم مِن ذلك، أو اعْتَرَفوا بغَلَطِهم وتَوريطِهم قَومَهم وأنفُسَهم؛ تَمالَأَ الجميعُ على مُحاوَلةِ طلَبِ تَخفيفِ العذابِ بدَعوةٍ مِن خَزَنةِ جهنَّمَ؛ فلذلك أُسنِدَ القولُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾، أي: جَميعِهم مِن الضُّعفاءِ والَّذين استَكْبَروا[2].

- وإنَّما قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ ولمْ يَقُلْ: (الَّذين في النَّارِ لِخَزنَتِها)، مع أنَّه أخصَرُ؛ لأنَّ في ذِكرِ (جهنَّمَ) تَهويلًا وتَفظيعًا، والتَّهويلُ والتَّفخيمُ مِن وجهَينِ؛ أحدُهما: وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ[3]، والثَّاني: ذِكْرُه -وهو شَيءٌ واحدٌ- بظاهرٍ غيرِ الأوَّلِ أفظَعَ منه؛ لأنَّ جهنَّمَ أفظَعُ مِن النَّارِ؛ إذ النَّارُ مُطلَقةٌ، وجهنَّمُ أشَدُّها. وقيل: قال: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ جهنَّمَ أبعَدُ النَّارِ، فغَدَا خَزَنتُها أعْلى الملائكةِ الموكَّلينَ بالنَّارِ مَرتبةً، فطلَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣، ١٦٤).

(٣) قال ابن عاشور: (خَزنة جَهنَّمَ هم الملائكةُ الموكَّلونَ بما تَحويه مِن النَّارِ ووَقودِها والمُعذَّبينَ فيها، ومُوكَّلونَ بتسييرِ ما تَحتوي عليه دارُ العذابِ وأهلِها؛ ولذلك [لا] يُقالُ لهم: خَزنةُ النَّارِ؛ لأنَّ الخَزْنَ لا يَتعلَّقُ بالنَّارِ، بلْ بما يَحويها؛ فليس قوله هنا: ﴿جَهَنَّمَ﴾ إظهارًا في مقامِ الإضمارِ؛ إذ لا يَحسُنُ إضافةُ «خَزَنة» إلى «النَّارِ»، ولو تَقدَّمَ لفظُ «جَهنَّم» لَقال: لخَزنتِها، كما في قولِه في سورةِ «الملك»: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إلى قولِه: ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٦- ٨]؛ فإنَّ الضَّميرَ لـ«جهنَّمَ» لا لـ«النَّارِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

أهلُ النَّارِ الدُّعاءَ منهم لذلك[١].

- قولُهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في إضافةِ (رب) إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ضَرْبٌ مِن الإغراءِ بالدُّعاءِ، أي: لأنَّكم أقرَبُ إلى استِجابتِه لكمْ، ولَمَّا ظنُّوهم أرْجى للاستِجابةِ سَألوا التَّخفيفَ يومًا من أزْمِنةِ العذابِ، وهو أنفَعُ لهم مِن تَخفيفِ قوَّةِ النَّارِ الَّذي سَألوه مِن مُستكبِريهم[٢].

- وجُزِمَ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ في جَوابِ الطَّلبِ؛ لِتَحقيقِ التَّسبُّبِ؛ فيَكونُ فيه إيذانٌ بأنَّ الَّذين في النَّارِ واثِقون بأنَّ خَزَنةَ جهنَّمَ إذا دَعَوُا اللهَ استجابَ لهم[٣].

- و(اليوم) في قولِه: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ كِنايةٌ عن القِلَّةِ، أي: يُخفِّفْ عنَّا ولو زمَنًا قليلًا، وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بيانٌ لـ﴿يَوۡمٗا﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ به المِقدارُ، فاحتاجَ إلى البَيانِ[٤].

- واقتِصارُهم في الاستِدعاءِ على ما ذُكِرَ مِن تَخفيفِ قَدْرٍ يَسيرٍ مِن العذابِ في مِقدارٍ قَصيرٍ مِن الزَّمانِ، دونَ رَفْعِه رأسًا، أو تَخفيفِ قَدْرٍ كَثيرٍ منه في زَمانٍ مَديدٍ؛ لأنَّ ذلك عِندَهم ممَّا ليس في حَيِّزِ الإمكانِ، ولا يَكادُ يَدخُلُ تحتَ أمانِيِّهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩).

فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

- قولُه: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جوابُ خَزَنةِ جهنَّمَ لهم بطَريقِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ، مُرادٌ به: إلْزامُ الحُجَّةِ، وإظْهارُ سُوءِ صَنيعِهم بأنفُسِهم؛ إذ لمْ يَتَّبِعوا الرُّسلَ حتَّى وَقَعوا في هذا العذابِ، وتَنديمُهم على ما أضاعُوه في حَياتِهم الدُّنيا مِن وَسائلِ النَّجاةِ مِن العِقابِ، وأنَّهم خَلَّفوا وَراءَهم أوقاتَ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، وعطَّلوا الأسبابَ الَّتي يَسْتجيبُ اللهُ لها الدَّعواتِ، وهو كَلامٌ جامعٌ يَتضمَّنُ التَّوبيخَ، والتَّنديمَ، والتَّحسيرَ، وبَيانَ سَبَبِ تَجنُّبِ الدُّعاءِ لهم، وتَذكيرَهم بأنَّ الرُّسلَ كانت تُحذِّرُهم مِن الخُلودِ في العذابِ[(١)].

- وزيادةُ فِعلِ الكَونِ في ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَجيءَ الرُّسلِ إلى الأُمَمِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُحقَّقٌ؛ لِمَا يدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوُجودِ بمَعنى التَّحقُّقِ، وأمَّا الدَّلالةُ على أنَّ فِعلَ الإتيانِ كان في الزَّمنِ الماضي فهو مُستفادٌ مِن (لم) النَّافيةِ في الماضي[(٢)].

- قَولُه: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ لم يَقُلْ: «بالآياتِ البَيِّناتِ»، بلْ أتَى بالوصفِ، وطَوَى ذِكْرَ المَوصوفِ؛ لأنَّ المهمَّ هو الوصفُ؛ لأنَّ الوصفَ هو الَّذي يُبيِّنُ الأشياءَ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ تَذْييلًا لِكلامِهم يُبيِّنُ أنَّ قولَهم: ﴿فَادْعُوا﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

الخَطأِ، أي: دُعاؤكم لم يَنفَعْكم؛ لأنَّ دُعاءَ الكافرينَ في ضَلالٍ، ففيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن كَلامِ اللهِ تعالى تَذْييلًا واعتِراضًا، والكافِرون في النَّارِ لم يَسَعْهم إلَّا الاعتِرافُ بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، فرَدَّ عليهم خَزَنةُ جهنَّمَ بالتَّنصُّلِ مِن أنْ يَدْعُوا اللهَ بذلك، إلى إيكالِ أمْرِهم إلى أنفُسِهم بقولِهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ تَفريعًا على اعتِرافِهم بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، ومعنى تَفريعِه عليه هو أنَّه مُفرَّعٌ عليه باعتبارِ معناه الكِنائيِّ الَّذي هو التَّنصُّلُ مِن أنْ يَدْعُوا لهم، أي: كما تَولَّيْتُم الإعراضَ عن الرُّسلِ استِبْدادًا بآرائِكم، فتَولَّوُا اليَومَ أمْرَ أنفُسِكم، فادْعُوا أنتم؛ فإنَّ (مَن تَولَّى قُرَّها يَتولَّى حَرَّها[١])، فالأمْرُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإباحةِ أو في التَّسويةِ، وفيه تَنبيهٌ على خَطأِ السَّائلينَ في سُؤالِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: وما دُعاؤُكم إلَّا في ضَلالٍ، ووُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ المانعَ هو صِفةُ الكفْرِ[٣]، فأتَى بالوصفِ؛ تعليقًا للحكمِ به[٤].

- وجاءتْ هذه الأخبارُ مُعبَّرًا عنها بلَفظِ الماضي الواقعِ؛ لِتَيقُّنِ وُقوعِها[٥].

---

(١) أي: يَتولَّى شَرَّها مَن تَولَّى خَيْرَها، أو يَتحَمَّلُ ثِقْلَك مَن يَنتفِعُ بك. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

الآيات (٥١-٥٦)

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا
يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى
وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ
(٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا
كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْأَلْبَابِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفرَدُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[(١)].

﴿وَالْإِبْكَارِ﴾: أي: أوَّلِ النَّهارِ، أو مِن مَطلعِ الفَجرِ إلى وَقتِ الضُّحى، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: إنَّا لَننصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ؛ يومَ لا يَنفَعُ الظَّالمينَ اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، ولهم الطَّردُ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى، ولهم النَّارُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى مثالًا لنَصرِه رُسلَه وعبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

موسى ما يُهْتدَى به، وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ؛ بيانًا للحَقِّ، وتذكيرًا مِنَّا لأهلِ العُقولِ منهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، واستَغفِرِ اللهَ لِذَنْبِك، ونَزِّه رَبَّك آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مع إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له سبحانَه.

ثمَّ يُوبِّخُ اللهُ تعالى الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِه بغيرِ بُرهانٍ، مُبيِّنًا ما حمَلهم على ذلك، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ عِندَهم: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، وما هم بِبالِغي مُقتضى ذلك الكِبْرِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مُذِلُّهم، وناصِرٌ دينَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه بما يَقيه مِن شُرورِهم، فيقولُ: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وِقايتَه موسى -عليه السَّلامُ- وذلك المؤمِنَ مِن مَكرِ فِرعَونَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه يَنصُرُ رُسُلَه والَّذين آمَنوا معه.

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ مِن قَبْلُ ما يقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ مِن التَّخاصُمِ، وأنَّهم عندَ الفَزَعِ إلى خَزَنةِ جهنَّمَ يقولونَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠]؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ الرُّسُلِ، وأنَّه يَنصُرُهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

وأيضًا فإنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما وَقَع مِن قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [غافر: ٤]، وامتَدَّ الكَلامُ في الرَّدِّ على أولئك المجادِلينَ، وعلى أنَّ المحِقِّينَ أبدًا كانوا مَشغولينَ بدَفعِ كَيدِ المُبطِلينَ، وكُلُّ ذلك إنَّما ذَكَره اللهُ تعالى تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَصبيرًا له على تحمُّلِ أذى قَومِه، ولَمَّا بَلَغ الكلامُ في تقريرِ المطلوبِ إلى الغايةِ القُصوى؛ وَعَد تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَنصُرَه على أعدائِه في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: إنَّا لنَنصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ على أعدائِهم في الحياةِ الدُّنيا[2]، وفي يومِ القيامةِ الَّذي يَقومُ فيه الأشهادُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٣).

(٢) قال الواحدي: (النَّصرُ قد يكونُ بالحُجَّةِ، ويكونُ بالغَلَبةِ والقَهرِ، ويكونُ بإهلاكِ العَدُوِّ، وكُلُّ هذا قد كان للأنبياءِ والمؤمِنينَ مِن قِبَلِ الله تعالى؛ فهم مَنصورون بالحُجَّةِ على مَن خالَفَهم، وقد نصَرَهم اللهُ بالقَهرِ على مَن ناوأهم، وقد نصَرَهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وأنجاهم مع مَنْ آمَنَ معهم، وقد يكونُ نَصرٌ بالانتِقامِ لهم...، فهم لا مَحالةَ منصورونَ في الدُّنيا بأحدِ هذه الوُجوهِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧، ١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

وقال ابن تيميَّة: (اللهُ تعالى قد يُديلُ الكافرينَ [يجعلُ لهم الغَلَبَةَ] على المؤمنينَ تارةً، كما يُديلُ المؤمنينَ على الكافرينَ، كما كان يكونُ لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع عدوِّهم، لكنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ... وإذا كان في المسلمينَ ضَعفٌ، وكان عدوُّهم مُستظهرًا عليهم، كان ذلك بسببِ ذُنوبِهم وخطاياهم؛ إمَّا لتفريطِهم في أداءِ الواجباتِ باطنًا وظاهرًا، وإمَّا لعُدوانِهم بتَعدِّي الحدودِ باطنًا وظاهرًا). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٦٤٥).

وقال السعدي: (النَّصرُ على قِسمَينِ: نصرُ المسلمينَ إذا طَمِعوا في عدوِّهم بأنْ يُتِمَّ اللهُ لهم ما طَلَبوا وقصَدوا، ويَستولوا على عدوِّهم ويَظْهروا عليهم. والثَّاني: نصرُ المُستضعَفِ الَّذي طمِع فيه عدوُّه القادرُ، فنَصْرُ اللهِ إيَّاه أن يَرُدَّ عنه عدوَّه، ويُدافِعَ عنه، ولَعلَّ هذا النَّصرَ أنفعُ النَّصْرَينِ، ونصرُ الله رسولَه إذ أخرَجه الَّذينَ كفروا ثانيَ اثنَينِ مِن هذا النَّوعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٥)، ((مجموع =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابنُ عطيَّة: (والأشهادُ: جمعُ شاهدٍ، كصاحبٍ وأصحابٍ. وقالت فِرقةٌ: أشهادٌ: جمعُ شهيدٍ، كشَريفٍ وأشرافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال الماوَرْدي: (في ﴿ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّهم الملائِكةُ، شَهِدوا للأنبياءِ بالإبلاغِ، وعلى الأُمَمِ بالتَّكذيبِ. قاله مُجاهِدٌ والسُّدِّيُّ.

الثَّاني: أنَّهم الملائكةُ والأنبياءُ. قاله قَتادةُ.

الثَّالثُ: أنَّهم أربعةٌ: الملائِكةُ، والنَّبيُّونَ، والمؤمِنونَ، والأجسادُ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابن عاشور: (والأشهادُ: الرُّسُلُ، والملائِكةُ الحَفَظةُ، والمؤمِنونَ من هذه الأمَّةِ... وشَهادةُ الرُّسُلِ على الَّذين كَفَروا بهم مِن جُملةِ نَصْرِهم عليهم، وكذلك شَهادةُ المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المقصودَ شَرحُ تَعظيمِ ثَوابِ أهلِ الثَّوابِ؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه يَنصُرُهم في يومٍ يَجتَمِعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، فحالُهم في عُلُوِّ الدَّرَجاتِ في ذلك اليومِ ما ذُكِرَ، وأمَّا حالُ أعدائِهم فهو أنَّه حَصَلت لهم أمورٌ ثلاثةٌ؛ أحَدُها: أنَّه لا يَنفَعُهم شَيءٌ مِن المعاذيرِ البتَّةَ. وثانيها: أنَّ لهم اللَّعنةَ. وثالِثُها: أنَّ لهم سوءَ الدَّارِ(١).

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾.

أي: وهو اليَومُ الَّذي لا يَنفَعُ الظَّالمينَ فيه اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، فقد أعذَرَ اللهُ إليهم في الدُّنيا؛ فلا عُذرَ مَقبولٌ مِنهم في الآخِرةِ(٢).

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾.

أي: وللظَّالِمينَ البُعدُ والطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، فهم مُستَحِقُّونَ لذلك(٣).

﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١).

أي: ولهم معَ ذلك النَّارُ، فبِئسَ المَنزِلُ هيَ(١).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يَنصُرُ الأنبياءَ والمؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ذكَرَ نَوعًا مِن أنواعِ تلك النُّصرةِ في الدُّنيا(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ ما حلَّ بآلِ فِرعونَ، واستَطْرَدَ من ذلك إلى ذِكرِ شَيءٍ مِن أحوالِ الكفَّارِ في الآخرةِ؛ عاد إلى ذِكرِ ما منَحَ رسولَه مُوسى عليه السَّلامُ، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ تأْنيسًا لمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتَذكيرًا لِما كانت العرَبُ تَعرِفُه مِن قصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ(٣).

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسَى ما يُهتَدَى به(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ تقديرُه: سوءُ عاقبةِ الدَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن تكونَ ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ من بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، أي: الدَّارُ السُّوءُ، ويحتمِلُ أن تكونَ على بابِها... أي: السَّيِّئُ في الدَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧١).

وقال السعدي: (أي: الدَّارُ السَّيِّئةُ، الَّتي تَسوءُ نازليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩). =

﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ(١).

= قال الرازي: (يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ مِن الهدَى ما آتاهُ اللهُ مِن العلومِ الكثيرةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ تلك الدَّلائلَ القاهِرةَ الَّتي أوْرَدَها على فِرعونَ وأتْباعِه وكادَهم بها، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هو النُّبُوَّةَ الَّتي هي أعظَمُ المناصِبِ الإنسانيَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إنزالَ التَّوراةِ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهدى هنا: التَّوراةُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢).

قال القرطبي: (وسُمِّيَت التَّوراةُ هُدًى بما فيها مِن الهدَى والنُّورِ، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣).

وقال الشنقيطي: (والمرادُ بالهُدَى ما تَضَمَّنَه التَّوراةُ مِن الهدَى في العقائدِ والأعمالِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (الهُدى: النُّبُوَّةُ والحِكمةُ، والتَّوراةُ تعُمُّ جميعَ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهُدى: النُّبوَّةُ: السَّمْعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوراةُ والنُّبوَّةُ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩).

قال ابن عاشور: (الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى هو ما أُوحيَ إليه مِن الأمرِ بالدَّعوةِ إلى الدِّينِ الحقِّ، أي: الرِّسالةُ وما أُنزِل إليه مِن الشَّريعةِ... وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكِتابَ مِن جملةِ الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى... فإنَّ موسى أُوتيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتيَ مِن الهُدى ما أُورِثَه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

وقال الرسعني: (﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو جميعُ ما أُوتيَه مِن الآياتِ والمُعجِزاتِ وشرائعِ الدِّينِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: بيانًا للحَقِّ وتَذكيرًا مِنَّا به لأهلِ العُقولِ منهم(١).

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذَى الكُفَّارِ وتعَنُّتِهم، وعلى دَعوتِهم؛ فإنَّ ما وَعَد اللهُ به مِن النَّصرِ في الدُّنيا والآخِرة: آتٍ لا مَحالةَ، كما نصَرَ اللهُ تعالى موسى وبني إسرائيلَ على فِرعَونَ وقَومِه(٢).

= قال ابن الجوزي: (﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعدَ موسى، وهو التَّوراةُ أيضًا في قولِ الأكثَرينَ. وقال ابنُ السَّائِبِ: التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

قيل: المرادُ بوراثةِ الكِتابِ: أنَّ الله تعالى جعَله باقيًا فيهم بعدَ موسى عليه السَّلامُ؛ فهم وَرِثوه عن موسى، أي: أخَذوه منه في حياتِه، وأبقاه اللهُ لهم بعدَ وفاتِه يَتوارَثونَه خَلَفًا عن سَلَفٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

قال ابنُ عطيَّة: (عَبَّرَ عن ذلك بالوِراثةِ؛ إذ كانت طائفةُ بني إسرائيلَ قَرنًا بعدَ قَرنٍ تَصيرُ فيهم التَّوراةُ إمامًا، فكان بعضُهم يَرِثُها عن بَعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن =

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

أي: واطلُبْ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- سَتْرَ ذَنْبِك، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ به(١).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً))(٢).

وعن الأغَرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّه لَيُغانُ(٣) على قَلبي، وإنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))(٤).

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللـهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللـهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وَعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))(٥).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

أي: ونَزِّه رَبَّك -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ

= كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٥) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩)، واللفظ له.

الكَمالِ؛ محبَّةً وتَعظيمًا له سُبحانَه، وذلك في آخِرِ النَّهارِ وأوَّلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابن القيِّم: (الإبكارُ أوَّلُ النَّهارِ، والعَشيُّ آخِرُه، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وهذا تفسيرُ ما جاء في الأحاديثِ: «مَن قال كذا وكذا حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي»، أنَّ المرادَ به قبْلَ طلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ غروبِها، وأنَّ محلَّ هذه الأذكارِ بعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٩٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ أي: في أواخِرِ النَّهارِ وأوائلِ اللَّيلِ، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهي أوائلُ النَّهارِ وأواخِرُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: دُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

قال الألوسي: (أي: ودُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك، على أنَّه عبَّر بالطَّرَفَينِ وأُريدَ جميعُ الأوقاتِ، وجُوِّز أن يُرادَ خُصوصُ الوقتَينِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

وقيل: معنى (سَبِّحْ): صَلِّ، وفي المرادِ بصلاةِ العَشيِّ والإبكارِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله ابنُ عبَّاس. والثَّاني: صَلاةُ الغَداةِ وصلاةُ العصرِ، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: أنَّها صلاةٌ كانت قبْلَ أن تُفرَضَ الصَّلَواتُ: ركعتانِ غُدوةً، وركعتانِ عَشيَّةً، قاله الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢).

وقال الزمخشري: (ودُمْ على عبادةِ ربِّك والثَّناءِ عليه بالعَشيِّ والإبكارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه جَرَى الكلامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا في مَيدانِ الرَّدِّ على مُجادَلةِ المشركينَ في آياتِ اللهِ، ودَحْضِ شُبَهِهم، وتَوعُّدِهم على كُفْرِهم، وضَرْبِ الأمثالِ لهم بأمثالِهم مِن أهلِ العِنادِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، كما ذُكِرَت أمثالُ أضْدادِهم مِن أهلِ الإيمانِ مَن حضَرَ منهم ومَن غَبَر، مِن قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، ثمَّ قولِه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]، وخُتِمَ ذلك بوَعدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالنَّصرِ، كما نُصِرَ النَّبيُّونَ مِن قبْلِه والَّذين آمَنوا بهم، وأُمِرَ بالصَّبرِ على عِنادِ قَومِه، والتَّوجُّهِ إلى عِبادةِ ربِّه؛ فكان ذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ عقِبَ ذلك مِن بابِ المثَلِ المشهورِ: «الشَّيءُ بالشَّيءِ يُذكَرُ»، وبهذه المُناسَبةِ انتُقِلَ هنا إلى كَشْفِ ما تُكِنُّه صُدورُ المجادِلينَ مِن أسبابِ جِدالِهم بغَيرِ حقٍّ؛ لِيَعلَمَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَخيلتَهم، فلا يَحسَبُ أنَّهم يُكذِّبونَه تنقُّصًا له، ولا تَجويزًا للكذِبِ عليه، ولكنَّ الَّذي يَدفعُهم إلى التَّكذيبِ هو التَّكبُّرُ عن أنْ يَكونوا تَبعًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووراءَ الَّذين سَبَقوهم بالإيمانِ ممَّن كانوا لا يَعبَؤونَ بهم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٢).

جاءت بها الرُّسُلُ؛ بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِن اللهِ: في صُدورِهم كِبْرٌ وتَعاظُمٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، واحتِقارٌ لِمَن جاء به واتَّبَعه، ولن يَنالوا الاستِعلاءَ والرِّفعةَ والعَظَمةَ الَّتي أمَّلوها في الدُّنيا؛ فاللهُ ناصِرٌ دينَه، ومُعْلٍ كَلِمَتَه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩١-٣٩٦، ٤٠٠-٤٠١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والسَّمَرْقَنْديُّ، والكرْمانيُّ: الكِبْرُ: العَظَمةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالكِبْرِ: التَّكبُّرُ والتَّعاظُمُ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٧).

قال الزمخشري عن الكِبْر: (وهو إرادةُ التَّقدُّم والرِّياسة، وألَّا يكونَ أحدٌ فوقَهم؛ ولذلك عادَوْكَ ودفَعوا آياتِك خِيفةَ أن تَتقَدَّمَهم ويَكونوا تحتَ يدِك وأمْرِك ونَهيِك؛ لأنَّ النُّبوَّةَ تحتَها كلُّ مُلكٍ ورياسةٍ. أو إرادةُ أن تكونَ لهم النُّبوَّةُ دُونَك حسَدًا وبَغْيًا، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو إرادةُ دفْعِ الآياتِ بالجِدالِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابن جرير: (﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ يقولُ: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ يَتكبَّرون مِن أجْلِه عن اتِّباعِك، وقَبولِ الحقِّ الَّذي أتَيْتَهم به؛ حسَدًا منهم على الفضلِ الَّذي آتاك اللهُ، والكرامةِ الَّتي أكرمَك بها مِن النُّبُوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقال الزمخشري: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ببالِغي موجِبِ الكِبْرِ ومُقتضيه، وهو مُتعلَّقُ إرادتِهم مِن الرِّياسةِ أو النُّبُوَّةِ أو دفْعِ الآياتِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

قيل: قولُه: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: هو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ببالِغي إرادتِهم فيه. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ عطية. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥). =

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

أي: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك الَّذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ(١).

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لِقَولِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وغَيرِهم مِنَ الخَلقِ؛ البَصيرُ بما يَعمَلونَه وبكُلِّ شَيءٍ سِواه؛ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أصواتِ الخَلقِ وذَواتِهم وأعمالِهم(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكامِلَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال سُبحانَه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فمَن نَقَصَ

= قال الزَّجَّاجُ: (إرادتُهم دفْعَ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٧).

وقال السمعاني: (وكان مُرادُهم أن يَهلِكَ محمَّدٌ ويَهلِكَ أصحابُه، ويَندرِسَ أثَرُه، ويَصيروا حكايةً). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ يقولُ: الَّذي حسَدوك عليه أمرٌ ليسوا بمُدْرِكيه ولا نائِليه؛ لأنَّ ذلك فضْلُ الله يؤتيه مَن يَشاءُ، وليس بالأمرِ الَّذي يُدرَكُ بالأمانيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال الكرماني: (ما هم ببالِغي تلك العَظَمةِ؛ فإنَّ اللهَ يَخذُلُهم). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

قال السعدي: (أي: استعِذْ بالله من الكِبْرِ الَّذي يوجِبُ التَّكبُّرَ على الحقِّ، واستعِذْ بالله من شَياطينِ الإنسِ والجنِّ، واستعِذْ بالله مِن جميعِ الشُّرورِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصيبَ العبدُ بمُصيبةٍ في نَفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه: فإنَّما هي بذُنوبِه: إمَّا بتركِ واجبٍ، أو فِعلِ مُحَرَّمٍ، وهو مِن نَقصِ إيمانِه، وبهذا يَزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخِرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم مِن السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَصَ مِن إيمانِهم؛ فهم جَعَلوا لهم عليهمُ السَّبيلَ بما تَركوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ منصورٌ، مَكْفِيٌّ مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمَعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحَقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال تعالى للمُؤمنينَ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥]. فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ اللهِ، يحفَظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم؛ فيُبطِلَها عليهم، كما يَتِرُ الكافِرينَ والمنافِقينَ أعمالَهم؛ إذ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه(١).

٢- كثيرٌ مِن النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ أهلَ الدِّينِ الحَقِّ يَكونونَ في الدُّنيا أذِلَّاءَ مَقهورينَ مَغلوبينَ دائمًا، بخِلافِ مَن فارَقَهم إلى سَبيلٍ أُخرى وطاعةٍ أُخرى؛ فلا يَثِقُ بوَعدِ اللهِ بنَصرِ دِينِه وعِبادِه، بل إمَّا أن يجعَلَ ذلك خاصًّا بطائفةٍ دونَ طائِفةٍ، أو بزَمانٍ دُونَ زَمانٍ، أو يَجعلَه مُعَلَّقًا بالمَشيئةِ، وإنْ لم يُصَرِّحْ بها، وهذا مِن عَدَمِ الوُثوقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

بوَعدِ اللهِ تعالى، ومِن سُوءِ الفَهمِ في كِتابِه، واللهُ سُبحانَه قد بَيَّنَ في كتابِه أنَّه ناصِرٌ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه فيه أنَّ ما أصاب العَبدَ مِن مُصيبةٍ، أو إدالةِ عَدُوٍّ، أو كَسرٍ وغيرِ ذلك: فبِذُنوبِه(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي به يَحصُلُ المحبوبُ، وبالاستِغفارِ الَّذي فيه دَفْعُ المَحذورِ، وبالتَّسبيحِ بحَمدِ اللهِ تعالى، خُصوصًا ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ اللَّذينِ هما أفضَلُ الأوقاتِ، وفيهما مِنَ الأورادِ والوظائِفِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ ما فيهما؛ لأنَّ في ذلك عَونًا على جميعِ الأمورِ(٢).

٤- العَبدُ مأمورٌ أنْ يَرجِعَ إلى القَدَرِ عندَ المصائِبِ، ويَستغفِرَ اللهَ عندَ الذُّنوبِ والمعايِبِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ دقيقةٌ مُعتبَرةٌ، وهي أنَّ السُّلطانَ العَظيمَ إذا خَصَّ بَعضَ خواصِّه بالإكرامِ العَظيمِ، والتَّشريفِ الكامِلِ عندَ حُضورِ الجَمعِ العَظيمِ مِن أهلِ المَشرِقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٩).

والمَغرِبِ؛ كان ذلك ألَذَّ وأبهجَ، فقَولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ المقصودُ منه هذه الدَّقيقةُ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكَلامُ يدُلُّ على أنَّهم يَذْكُرونَ الأعذارَ إلَّا أنَّ تلك الأعذارَ لا تَنفَعُهم، فكيف الجَمعُ بيْن هذا وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: قَولُه: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم ذَكَروا الأعذارَ، بل ليس فيه إلَّا أنَّه ليس عندَهم عُذرٌ مَقبولٌ نافِعٌ، وهذا القَدْرُ لا يدُلُّ على أنَّهم ذكَروه أم لا.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طَويلٌ، فيَعتَذِرونَ في وَقتٍ، ولا يَعتَذِرونَ في وَقتٍ آخَرَ[٢]، فليس بيْنَهما تعارُضٌ؛ لأنَّ اليومَ طويلٌ، مِقدارُ اليوم خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، فيُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ فيه الأحوالُ؛ يكونُ في أوَّلِه للنَّاسِ حالٌ، وفي آخِره للنَّاسِ حالٌ، وما أشْبَهَ ذلك، فمَثلًا قولُه تعالى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] هذا يدُلُّ على أنَّهم في ذلك اليوم سُكوتٌ لا يُؤذَنُ لهم بأيِّ كَلامٍ؛ فيَنتَهِزوا الفُرصةَ بالاعتِذارِ. لكنْ في موقفٍ آخَرَ يَعتَذِرونَ، ولكِنْ لا يَنفعُهم الاعتِذارُ[٣].

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] الَّذي هو في انتِفاءِ الاعتذارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

مِن أصلِه؛ لأنَّ ذلك الاعتِذارَ هو الاعتِذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ اللهَ لو أذِنَ لهم في الاعتِذارِ لَكان ذلك تَوطِئةً لِقَبولِه اعتِذارَهم، نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافِعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقَولِه: ﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[١] [المؤمنون: ٦٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أنَّ الكافِرينَ مُستَحِقُّون لِلَعنةِ اللهِ، وفيه جَوازُ أنْ نَلعنَ الكافرينَ على سبيلِ العُمومِ؛ فلَنا أنْ نقولَ: (لعنةُ اللهِ على كلِّ كافرٍ)، وكان أبو هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه يَلعَنُ الكَفَرةَ في قُنوتِه[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ * هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هذا مِن أوضَحِ مُثُلِ نَصرِ اللهِ رُسُلَه والَّذين آمَنوا بهم، وهو أشْبَهُ الأمثالِ بالنَّصرِ الَّذي قَدَّره اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ؛ فإنَّ نَصْرَ موسى على قَومِ فِرعَونَ كَوَّنَ اللهُ به أُمَّةً عَظيمةً لم تكُنْ يُؤبَهُ بها، وأُوتِيَت شَريعةً عَظيمةً، ومُلكًا عَظيمًا، وكذلك كان نَصرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وكان أعظَمَ من ذلك وأكمَلَ وأشرَفَ، وأيُّ نَصرٍ أعظَمُ مِن الخَلاصِ مِن العُبوديَّةِ والقِلَّةِ والتَّبَعِ لأُمَّةٍ أُخرَى في أحكامٍ تُلائِمُ أحوالَ الأُمَّةِ التَّابِعةِ، إلى مَصيرِ الأُمَّةِ مالِكةِ أمْرِ نَفْسِها، ذاتِ شَريعةٍ مُلائِمةٍ لأحوالِها ومَصالِحِها، وسيادةٍ على أُمَمٍ أخرى، وذلك مَثَلُ المُسلِمينَ مع النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣) و (٢٤/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

والأثر المُشار إليه أخرجه البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعْدَه، وهو إيماءٌ إلى الوَعدِ بأنَّ القُرآنَ الَّذي كذَّب به المُشرِكونَ باقٍ مَوروثٌ في الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الثَّناءُ على العقلِ؛ لأنَّ أهْلَه هم أهلُ التَّذكُّرِ؛ الَّذين يَنتفِعونَ بما سمِعوا، والمرادُ بالعقلِ هنا هو عقلُ الرُّشْدِ، أمَّا عقلُ الإدراكِ فهو الَّذي يُناطُ به التَّكليفُ، ويُذكَرُ في كُتُبِ الفقهاءِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يَتذكَّرْ بآياتِ اللهِ فإنَّه ليس ذا عقلٍ، فإنْ قال قائلٌ: يَرِدُ عليكم أنَّا نَجِدُ في أئمَّةِ الكفرِ مَن هو على جانبٍ كبيرٍ مِن الدَّهاءِ والذَّكاءِ!

فالجوابُ: أنَّ هناك فَرْقًا بيْنَ العقلِ والذَّكاءِ؛ لأنَّ العقلَ يَعْقِلُ صاحِبَه عمَّا يَضُرُّه؛ ولهذا سُمِّيَ عقلًا بمنزلةِ العِقَالِ للبعيرِ، لكنَّ الذَّكاءَ ليس كذلك؛ فالذَّكاءُ غريزةٌ أو كَسْبٌ يَجعَلُه اللهُ تعالى في الإنسانِ، ورُبَّما يكونُ بعضُ الحيواناتِ أذكَى مِن الإنسانِ(٣).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ وبِشارةٌ بأنَّ كُلَّ مَن جادَلَ الحَقَّ فهو مَغلوبٌ، وكُلَّ مَن تكبَّرَ عليه فهو في نهايتِه ذَليلٌ(٤).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٠).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠، ٣٨١).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، وهو استِخلاصٌ للعِبرةِ مِن القَصصِ الماضيةِ، ولِبَيانِ أنَّ ما أصابَ الكفَرةَ مِن العذابِ المحكِيِّ مِن فُروعِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ تَقْتضيهِ الحِكمةُ؛ وهو أنَّ شأْنَنا المُستمِرَّ أنَّا نَنصُرُ رُسلَنا وأتْباعَهم، وهذا الكلامُ مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَبْشيرِه ووَعْدِه بحُسنِ العاقِبةِ، وتَسليةِ المؤمنينَ ووَعْدِهم بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مِن ابتِداءِ السُّورةِ كان بذِكرِ مُجادَلةِ المشركينَ في القرآنِ بقولِه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وأومَأَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ شِيَعَهم يَؤولُ أمْرُهم إلى خَسارٍ بقولِه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وامتدَّ الكلامُ في الرَّدِّ على المجادِلين، وتَمثيلِ حالِهم بحالِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ الَّتي آلَ أمْرُها إلى خَيبةٍ واضمِحلالٍ في الدُّنيا، وإلى عَذابٍ دائمٍ في الآخِرةِ. ولَمَّا استوفى الغرَضُ مُقتضاهُ مِن إطنابِ البيانِ، بيَّن اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَه أنَّه يَنصُرُ رُسلَه والَّذين آمَنوا في الدُّنيا، كما دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الكلامِ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[1] [غافر: ٧٧].

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ تَعليلٌ لِضَياعِ دُعاءِ الكافرينَ في قولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]؛ لأنَّه مَسلوبُ الحُجَّةِ، و(إنَّ) واسمُها واللَّامُ المُزَحْلَقةُ للتَّوكيدِ، ولا يَقدَحُ في هذا التَّأكيدِ ما يَبْدو أنَّ المؤمنينَ يُغلَبون في بعضِ الأحيانِ ابتلاءً وامتحانًا؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، والأمورَ بخَواتيمِها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد التربوية (ص: ٢٢٧).

- وعُبِّرَ بالمضارِعِ في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾؛ لِما فيه مِن استِحضارِ حالاتِ النَّصرِ العجيبةِ الَّتي وُصِفَ بعضُها في هذه السُّورةِ، ووُصِفَ بعضٌ آخَرُ في سُوَرٍ أُخرى تقدَّمَ نُزولُها؛ وإلَّا فإنَّ نَصْرَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مَضى، ونصْرُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُترقَّبٌ غيرُ حاصلٍ حِينَ نُزولِ الآيةِ(١).

- وتأْكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)، وبجَعْلِ المسنَدِ فِعليًّا في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾، مُراعًى فيه حالُ المعرَّضِ بهم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه عليهم، وهمُ المشرِكون؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبون بذلك، وهذا وَعدٌ للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ ناصِرُهم على مَن ظَلَمَهم في الحياةِ الدُّنيا بأنْ يُوقِعَ الظَّالِمَ في سُوءِ عاقبةٍ، أو بأنْ يُسلِّطَ عليه مَن يَنتقِمُ منه بنَحوٍ أو أشدَّ ممَّا ظلَمَ به مُؤمنًا(٢).

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي: يومَ القِيامةِ، عُبِّرَ عنه بذلك؛ للإشعارِ بكَيفيَّةِ النُّصرةِ، وأنَّها تكونُ عندَ جميعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ بشَهادةِ الأشهادِ للرُّسلِ بالتَّبليغِ، وعلى الكَفَرةِ بالتَّكذيبِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

- قولُه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بنَفْيِ لازِمِه؛ فأصلُ الكلامِ: ليس لهم مَعذرةٌ نافِعةٌ، فعُدِلَ إلى ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ، وجُعِلَ انتِفاءُ النَّفعِ دليلًا على انتفاءِ العُذْرِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٧).

- وتَقديمُ (لهم) في هاتَينِ الجُملتَين ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ للاهتِمامِ بالانتقامِ منهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ * هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ...﴾ مُعترِضةٌ بيْن ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وبيْن التَّفريعِ عليه في قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[٢] [غافر: ٥٥].

- قولُه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، وهو الَّذي أورَثَه اللهُ بني إسرائيلَ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكتابَ مِن جُملةِ الهُدى الَّذي أُوتِيَه مُوسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ[٣]، تَقديرُه: ولقدْ آتَيْنا مُوسى الهُدى والكتابَ، وأوْرَثْنا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقَتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ. والإيجازُ بالحذفِ: هو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عِبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما =

بني إسرائيلَ الكتابَ؛ فإنَّ مُوسى أُوتِيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتِيَ مِن الهُدَى ما وَرِثه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، أي: فاعْلَمْ أنَّا ناصِروك والَّذين آمَنوا، واصبِرْ على ما تُلاقِيه مِن قَومِك ولا تَهِنْ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ نُصرةَ الرُّسلِ في ضَمانِ اللهِ، وضَمانُ اللهِ لا يُخلَفُ. و(إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ، وهي تُغْني غَناءَ فاءِ التَّعليلِ، فكأنَّه قِيل: فوَعْدُ اللهِ حقٌّ، ويُفادُ بـ (إنَّ) التَّأكيدُ الَّذي هو للاهتمامِ والتَّحقيقِ، والمعنى: لا تَستبطِئِ النَّصرَ؛ فإنَّه واقعٌ[(٣)].

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الأمْرُ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ، فكانا داخلَينِ في سِياقِ التَّفريعِ على الوعْدِ بالنَّصرِ؛ رَمْزًا إلى تَحقيقِ الوعدِ؛ لأنَّه أمَرَ عَقِبَه بما هو مِن آثارِ الشُّكرِ؛ كِنايةً عن كَونِ نِعمةِ النَّصرِ حاصلةً لا مَحالةَ، وهذه كِنايةٌ رمْزيَّةٌ[(٤)].

= بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والأمْرُ بالاستغفارِ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا مَقامُ التَّخليةِ عن الأكدارِ النَّفْسيَّةِ. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أُمَّتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَطلوبون بذلك بالأحْرى. وأُمِرَ بتَسبيحِ اللهِ تعالى وتَنزيهه بالعَشِيِّ والإبكارِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، أي: الأوقاتِ كلِّها -وذلك على قولٍ-؛ فاقتُصِرَ على طَرَفَيْ أوقاتِ العملِ، وهذا مَقامُ التَّحلِّي بالكَمالاتِ النَّفْسيَّةِ، وبذلك يَتِمُّ الشُّكرُ ظاهرًا وباطنًا[1].

- وجُعِلَ الأمْرانِ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ مَعطوفَينِ على الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هنا لانتِظارِ النَّصرِ الموعودِ؛ ولذلك لم يُؤمَرْ بالصَّبرِ لَمَّا حصَلَ النَّصرُ في قولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]؛ فإنَّ ذلك مَقامُ مَحضِ الشُّكرِ دونَ الصَّبرِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو كالتَّكريرِ لِجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] تَكريرَ تَعدادٍ للتَّوبيخِ عِندَ تَنْهيةِ غَرَضِ الاستدلالِ، كما يُوقَفُ الموبَّخُ المرَّةَ بعْدَ المرَّةِ[3].

- وفائدةُ تَقييدِ مُجادَلةِ المشركينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّها ﴿بِغَيْرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٢).

﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ تَشنيعُ مُجادَلتِهم؛ وإلَّا فإنَّ المُجادَلةَ في آياتِ اللهِ لا تكونُ إلَّا بغَيرِ سُلطانٍ؛ لأنَّ آياتِ اللهِ لا تكونُ مُخالِفةً للواقعِ، وكذلك وَصْفُ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ بجُملةِ ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ مُجادَلتِهم بأنَّها عَرِيَّةٌ عن حُجَّةٍ لَديهم؛ فهم يُجادِلون بما ليس لهمْ به عِلمٌ[(١)]. وأيضًا تَقييدُ المجادَلةِ بذلك مع استِحالةِ إتيانه؛ للإيذانِ بأنَّ التَّكلُّمَ في أمْرِ الدِّينِ لا بُدَّ مِن استِنادِه إلى سُلطانٍ مُبينٍ البتَّةَ، وهذا عامٌّ لكلِّ مُجادِلٍ مُبطِلٍ[(٢)].

- ومعنَى قولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: ما يَحمِلُهم على المُجادَلةِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكِبْرُ على الَّذي جاءهم بها، وليستْ مُجادَلتُهم لِدَليلٍ لاحَ لهم، وقد أُثبِتَ لهم الكِبرُ الباعثُ على المجادَلةِ بطَريقِ القصْرِ (إنْ - إلَّا)؛ ليُنْفَى أنْ يكونَ داعيَهم إلى المجادَلةِ شَيءٌ آخَرُ غيرُ الكِبرِ على وَجهٍ مُؤكَّدٍ؛ فإنَّ القصْرَ تأْكيدٌ على تأْكيدٍ؛ لِمَا يَتضَمَّنُه من إثباتِ الشَّيءِ بوَجْهٍ مَخصوصٍ مُؤكَّدٍ، ومِن نفْيِ ما عَداه، فتَضمَّنَ جُملتَينِ[(٣)].

- وذِكرُ الصُّدورِ دونَ القُلوبِ؛ لِعِظَمِ الكِبْرِ جِدًّا، بأنَّه قد ملأَ القُلوبَ وفاض منها حتَّى شَغَلَ الصُّدورَ الَّتي هي مَساكِنُها[(٤)]! وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه أطلَقَ الصُّدورَ على القُلوبِ؛ لأنَّها محلُّ القلوبِ[(٥)].

- وجُملةُ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً. ويجوزُ أنْ تكونَ في مَوضعِ الصِّفةِ لـ﴿كِبۡرٞ﴾، وإذ قد كان الكِبرُ مُثبَتًا حُصولُه في نُفوسِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).

إثباتًا مُؤكَّدًا بقولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ تعيَّنَ أنَّ نفيَ بُلوغِهم الكِبْرَ مُنصرِفٌ إلى حالاتِ الكِبْرِ: فإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ أهْليَّتِهم للكِبرِ؛ إذ هم أقلُّ مِن أنْ يكونَ لهم الكِبرُ، فالمعنى هنا: كِبْرٌ زَيفٌ. وإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ نَوالِهم شيئًا مِن آثارِ كِبْرِهم، فالمعنى: ما همْ ببالِغينَ مُرادَهم الَّذي يأمُلُونه منك في نُفوسِهم الدَّالَّةِ عليه أقوالُهم، مِثلُ قولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ونَحوِ ذلك مِن أقوالِهم الكاشفةِ لِآمالِهم.

وتَنكيرُ ﴿كِبْرٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: كِبرٌ شَديدٌ بتَعدُّدِ أنواعِه، وتَمكُّنِه مِن نُفوسِهم[1].

- وقد نُفِيَ أنْ يَبلُغوا مُرادَهم بصَوغِه في قالبِ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لِإفادتِها ثَباتَ مَدلولِها ودَوامَه؛ فالمعنى: أنَّهم مَحرومون مِن بُلوغِه حِرمانًا مُستمِرًّا، فاشتمَلَ تَشويهُ حالِهم إثباتًا ونفْيًا على خُصوصيَّاتٍ بلاغيَّةٍ كثيرةٍ[2].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لَمَّا ضمِنَ اللهُ لِرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الَّذين يُجادِلونه فيما جاءَهمْ به يَحْدُوهم إلى الجِدالِ كِبْرُهم المُنْطوي على كَيدِهم، وأنَّهم لا يَبلُغون ما أضْمَروه وما يُضْمِرونه؛ فَرَّعَ على ذلك أنْ أمَرَه بأنْ يَجعَلَ اللهَ مَعاذَه منهم، أي: لا يَعبأُ بما يُبيِّتونَه، أي: قَدُمْ على طلَبِ العَوذِ باللهِ. وحُذِفَ مُتعلَّقُ (استعِذْ)؛ لِقَصْدِ تَعميمِ الاستِعاذةِ مِن كلِّ ما يُخافُ منه[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على الاستِعاذةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٥).

أي: لأنَّه المطَّلِعُ على أقوالِهم وأعمالِهم، وأنت لا تُحِيطُ عِلمًا بتَصاريفِ مَكْرِهم وكَيدِهم(١). فخَتَم الآيةَ بالسَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّ ما يُؤذُونَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إمَّا قَولٌ فيُدرَكُ بالسَّمْعِ، أو فِعلٌ فيُدرَكُ بالبَصَرِ، يعني: إنْ آذَوك بالقَولِ فنحن نَسمَعُ، أو بالفِعلِ فنحن نُبصِرُ، وهذا فيه تطمينٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

- والتَّوكيدُ بحَرْفِ (إنَّ)، والحصْرُ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُراعًى فيه التَّعريضُ بالمُتحدَّثِ عنهم، وهمُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ، والمعنى: أنَّه هو القادرُ على إبطالِ ما يَصنعونه لا أنتَ، فكيف يَتِمُّ لهم ما أضْمَروه لك(٣)؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للعياذِ مِن شَياطينِ الإنسِ الَّذين لهم المكْرُ الظَّاهرُ والباطنُ، ختمَ بقولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الصَّالح للبصَرِ والبصيرةِ، فيَعُمُّ المحسوسَ والمعلومَ، وختَمَ آيتَيِ (الأعراف) و(فُصِّلَت) بالسَّمعِ والعِلمِ، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] المسبوقتَينِ بنَزْغِ الشَّيطانِ -الَّذي هو وَساوسُ وخَطراتٌ باطنةٌ- بالعليمِ(٤). فتأمَّلْ حكمةَ القرآنِ الكريمِ كيف جاء في الاستعاذةِ مِن الشيطانِ -الَّذي نَعْلَمُ وُجودَه ولا نَراه- بلفظِ «السَّميع العليم» في (الأعرافِ) و(فُصِّلَت)؛ وجاءتِ الاستِعاذةُ مِن شرِّ الإنسِ -الَّذين يُؤْنَسون ويُرَون بالإبصارِ- بلفظِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

«السَّميعِ البصيرِ» في سورةِ (غافر)؛ لأنَّ أفعالَ هؤلاء أفعالٌ مُعايَنةٌ تُرى بالبصرِ، وأمَّا نَزْغُ الشَّيطانِ فوساوسُ وخَطَراتٌ يُلقيها في القلبِ يَتعلَّقُ بها العلمُ، فأَمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ العليمِ» فيها، وأمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ البصيرِ» في بابِ ما يُرى بالبصرِ ويُدْرَكُ بالرُّؤيةِ[1].



(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

الآيات (٥٧-٥٩)

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا عظيمَ قُدرتِه، ومُنبِّهًا على إعادةِ الخلائِقِ يومَ القيامة: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فمِنهم مَن يُنكِرُ البَعثَ بعدَ الموتِ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه: ولا يَستوي الأعمَى والمُبصِرُ، كذلك لا يَسْتوي الكافِرُ والمؤمنُ، ولا يَستوي المؤمِنونَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ معَ المُسيئينَ، قليلًا ما تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ على مَجيءِ السَّاعةِ، فيقولُ: إنَّ القيامةَ لَآتيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتَمِلةً على إنكارِ البَعثِ، وهو أصلُ المُجادَلةِ ومَدارُها، فحُجُّوا بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّهم كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ

اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خَلقٌ عَظيمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُه، وخَلقُ النَّاسِ بالقياسِ إليه شَيءٌ قَليلٌ مَهينٌ، فمَن قدَرَ على خَلْقِها معَ عِظَمِها، كان على خَلْقِ الإنسانِ مع مَهانتِه أقْدَرَ[1].

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾.

أي: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، فكَيفَ يَعجِزُ عن خَلقِهم خَلقًا جديدًا بعدَما أماتَهم؟! فمَنْ قَدَر على خَلقِ الأجرامِ العَظيمةِ وأتْقَنَها: قادِرٌ على إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم بطَريقِ الأَولى[2].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن اختاره أيضًا: ابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّة، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٧ فما بعدها) و(٦/ ٣٩٢ فما بعدها) و(٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

ورجَّح ابنُ جُزَي هذا المعنى، وهو أنَّ المرادَ بالآيةِ الاستِدلالُ على البعثِ؛ وذلك لوُرودِه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولأنَّه قال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ فقدَّم الدَّليلَ، ثمَّ ذكَر المدلولَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ نزلَتْ في مُنكري البعثِ، وفي بيانِ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

وقيل: هذا توبيخٌ لهؤلاء الكفَرةِ المتكبِّرينَ، كأنَّه قال: مَخلوقاتُ الله أكبَرُ وأجَلُّ قدرًا من خَلْقِ البشَرِ، فما لأحدٍ منهم أن يَتكبَّرَ على خالقِه سبحانَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧).

بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، فلا يَتدبَّرونَ ولا يَتأمَّلونَ لِيَعلَموا أنَّ خَلْقَ كُلِّ شَيءٍ يَسيرٌ على اللهِ؛ فلذا يُنكِرونَ البَعثَ بعدَ الموتِ[1]!

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الجِدالَ المَقْرونَ بالكِبْرِ والحَسَدِ والجَهلِ كيف يكونُ، وأنَّ الجِدالَ المقْرونَ بالحُجَّةِ والبُرهانِ كيف يكونُ؛ نبَّه تعالى على الفَرقِ بيْنَ البابَينِ بذِكرِ المِثالِ[2].

وأيضًا لَمَّا نزَّل المُشرِكينَ مَنزِلةَ مَن لا يَعلَمُ، ضرَبَ مثَلًا لهم وللمُؤمِنينَ؛ فمَثَلُ الَّذين يُجادِلونَ في أمْرِ البَعثِ مع وُضوحِ إمكانِه مَثَلُ الأعمَى، ومَثَلُ المؤمِنينَ الَّذين آمَنوا به مَثَلُ حالِ البَصيرِ[3].

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى الَّذي لا يُبصِرُ، والمُبصِرُ الَّذي يرَى؛ فبَيْنَهما فَرقٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

عَظيمٌ، كذلك لا يَسْتوي الكفَرةُ الفُجَّارُ، والمؤمِنونَ الأبرارُ[(١)].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأعمى والبصيرِ: المؤمِنُ والكافِرُ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧) و (٦/ ١٢٧).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الَّذي لا يُبصِرُ شيئًا، وهو مثَلُ الكافرِ الَّذي لا يَتأمَّلُ حُجَجَ اللهِ بعينَيْه، فيَتَدَبَّرَها ويَعتبرَ بها، فيَعلَمَ وحدانيَّتَه وقدرتَه على خَلقِ ما شاءَ مِن شَيءٍ، ويُؤمِنَ به ويُصَدِّقَ. والبصيرُ الَّذي يرَى بعينَيْه ما شَخَص لهما ويُبصِرُه، وذلك مَثَلٌ للمؤمنِ الَّذي يرَى بعينَيْه حُجَجَ اللهِ، فيُفَكِّرُ فيها، ويَتَّعِظُ بها، ويَعلَمُ ما دَلَّتْ عليه مِن توحيدِ صانِعِه، وعظيمِ سُلطانِه، وقُدرَتِه على خَلقِ ما يَشاءُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ: أنَّ الكافرَ وإن كان ذا عَقلٍ يُدرِكُ به الأمورَ، فإنَّ عَقْلَه تَمحَّضَ لإدراكِ أحوالِ الحياةِ الدُّنيا، وكان كالعَدَمِ في أحوالِ الآخرةِ... يُشبِهُ حالَ الأعمى في إدراكِه أشياءَ وعدَمِ إدراكِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الجاهلُ والعالِمُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٨).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الَّذي يُجادِلُ بالباطِلِ، والَّذي يُجادِلُ بالحقِّ. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

أي: ولا يَستوي المؤمِنونَ المُطيعونَ لله، معَ الَّذين يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ما أقَلَّ ما تَتذَكَّرونَ[(٢)] حُجَجَ الله، فتَتَّعِظونَ وتَعتبِرون! فلو تذكَّرْتُم واعتبَرْتُم لَآثَرْتُم الهدَى على الضَّلالِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاس. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقيل: الخِطابُ للكُفَّار، فقَلَّ نَظَرُهم فيما يَنبغي أن يَنظُروا فيه. ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩).

وقيل: الخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

ومِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذَكُّرُكم قليلٌ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: لا تَتذكَّرون أصلًا؛ فإنَّه قد يُعبَّرُ بقِلَّةِ الشَّيءِ عن عدَمِه. يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قرَّر الدَّليلَ الدَّالَّ على إمكانِ وُجودِ يومِ القيامةِ؛ أردَفه بأنْ أخبَرَ عن وُقوعِها ودُخولِها في الوجودِ[١].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

أي: إنَّ القيامةَ لَآتيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ؛ فهم يُكذِّبونَ به[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أنَّه يَنبغي لمعَلِّمِ النَّاسِ أن يَربِطَ المَعقولاتِ بالمَحسوساتِ؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ إلى الفَهمِ، وأدعَى إلى التَّصديقِ؛ إذْ إنَّ المحسوسَ لا يُنكَرُ، لكِنَّ المَعقولَ قد يُكابِرُ فيه مَن يُكابِرُ ويُنكِرُه[٤]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكُّرُكم قَليلٌ، وإلَّا فلو تذكَّرتُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

مراتِبَ الأُمورِ، ومَنازِلَ الخَيرِ والشَّرِّ، والفَرقَ بيْنَ الأبرارِ والفُجَّارِ، وكانت لكم هِمَّةٌ عَلِيَّةٌ؛ لَآثَرتُم النَّافِعَ على الضَّارِّ، والهُدَى على الضَّلالِ، والسَّعادةَ الدَّائِمةَ على الدُّنيا الفانيةِ[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ وُجوبُ الإيمانِ بالبعثِ؛ لأنَّه خبَرٌ مِن الله مؤكَّدٌ، وكلُّ أخبارِ الله تعالى صِدقٌ، وكلُّ وعدِ الله حقٌّ[٢]. والإيمانُ بالسَّاعةِ له أثرٌ عظيمٌ في تحقيقِ الإيمانِ؛ فإنَّ مَن لا يؤمنُ بالسَّاعةِ لا يَعمَلُ، فلأيِّ شَيءٍ يَعملُ وهو لا يؤمنُ بيومِ الحسابِ؟! ومَنْ آمَنَ بيومِ الحسابِ كان حريصًا على أن يَنجوَ مِن وَبالِ هذا اليومِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ دَلالةٌ على المَعادِ؛ فإنَّه مِن المعلومِ ببَداهةِ العُقولِ أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ أعظَمُ مِن خَلْقِ أمثالِ بني آدمَ، والقُدرةَ عليه أبلَغُ؛ وأنَّ هذا الأيسَرَ أَولى بالإمكانِ والقُدرةِ مِن ذلك[٤].

٢- نَفْيُ العِلمِ عن الأكثرِ وتَخصيصُه به في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ القليلَ يَعلَمُ[٥].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ نفْيُ المُساواةِ بيْنَ الأمورِ المُختلِفةِ، وهذا مِن قواعدِ الشَّريعةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨، ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١١).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (١/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨).

أنَّها لا تُساوي بيْن مُختلِفَين، ولا تَجمَعُ بيْن مُفترقَين[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتكلِّمُ خَصْمَه بما يُلْجِئُه إلى الاعتِرافِ بصِحَّتِه، وبهذا صَحَّ الْتِحامُه معَ ما قبْلَه مِن الكلامِ؛ فإنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتمِلةً على أُمورٍ كَثيرةٍ مِن الجِدالِ والمُغالَطةِ، واللَّجاجِ والسَّفْسَطةِ، وفي مُقدِّمتِها إنكارُ البعثِ، وهو في الواقعِ أصْلُ المُجادَلةِ ومِحْورُها الَّذي عليه تَدورُ، فبادَرَ سُبحانه إلى مُبادَهتِهم بما يُسْقِطُ في أيْدِيهم، ويَقطَعُ عليهم طُرقَ المكابَرةِ والمعانَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ، وقد كانوا مُقرِّين بأنَّ اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خلْقٌ عظيمٌ، فخلْقُ النَّاسِ بالقياسِ شَيءٌ هيِّنٌ، ومَن قدَرَ على خلْقِها مع عِظَمِها، كان -ولا شكَّ- على خلْقِ الإنسانِ الضَّعيفِ أقدَرَ، وبه أقمَنَ. هذا والأولويَّةُ في هذا الاستِشهادِ على دَرَجتينِ؛ إحْداهما: أنَّ القادرَ على العظيمِ هو على الحقيرِ أقدَرُ، وثانيهما: أنَّ مُجادَلتَهم كانت في البعثِ، وهو الإعادةُ، وما مِن رَيبٍ في أنَّ الابتِداءَ أعظَمُ وأبهَرُ مِن الإعادةِ[٢].

- والكلامُ مُؤذِنٌ بقَسَمٍ مُقدَّرٍ؛ لأنَّ اللَّامَ في ﴿لَخَلْقُ﴾ لامُ جَوابِ القسَمِ، والمقصودُ تأْكيدُ الخبرِ، ومعنى ﴿أَكْبَرُ﴾ أنَّه أعظَمُ وأهمُّ، وأكثرُ مُتعلَّقاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٢).

قُدرةٍ بالقادرِ عليه، لا يَعجِزُ عن خلْقِ ناسٍ يَبعَثُهم للحسابِ، وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في غيرِ معناهُ؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِها أكبَرَ هو أمْرٌ مَعلومٌ، وإنَّما أُرِيدَ التَّذكيرُ والتَّنبيهُ عليه؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ عِلْمِهم به[١].

- ومَوقِعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما اقتَضاهُ التَّوكيدُ بالقسَمِ المقدَّرِ مِن اتِّضاحِ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلْقِ النَّاسِ، فالمعنى: أنَّ حُجَّةَ إمكانِ البعثِ واضحةٌ، ولكنَّ الَّذين يُنكِرونها لا يَعلَمون الدَّليلَ؛ لأنَّهم مُتلاهُون عن النَّظرِ في الأدلَّةِ، مُقتنِعون ببادئِ الخواطرِ الَّتي تَبْدو لهم، فيَتَّخِذونها عقيدةً، فلمَّا جَرَوا على حالةِ انتفاءِ العِلمِ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا عِلمَ لهم؛ فلذلك نُزِّل فِعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازمِ، ولم يُذكَرْ له مَفعولٌ[٢].

- والمرادُ بـ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: همُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ البعثِ، وهم المشرِكون، وإظهارُ لَفظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ، فتَصلُحَ لأنْ تَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ، فالمعنى: أنَّهم أنكَروا البعثَ لاستِبعادِهم خلْقَ الأجسامِ، مع أنَّ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ما لا يَبْقى معه استبعادُ مِثلِ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قد عُلِمَ حالُ المؤمنينَ مِن مَفهومِ صِفةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٦، ١٧٧).

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الأكثرينَ مِن الَّذين لا يَعلَمون يُقابِلُهم أقلُّون يَعلَمون[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ نَفْيُ الاستواءِ بيْن الفَريقَين يَقْتضي تَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ، ومِن المتبادَرِ أنَّ الأفضلَ هو صاحبُ الحالِ الأفضلِ، وهو البصيرُ؛ إذ لا يَختلِفُ النَّاسُ في أنَّ البصرَ أشرَفُ مِن العمَى في شَخْصٍ واحدٍ. ونفْيُ الاستواءِ بدُونِ مُتعلَّقٍ يَقْتضي العُمومَ في مُتعلَّقاته، لكنَّه يُخَصُّ بالمُتعلَّقاتِ الَّتي يَدلُّ عليها سِياقُ الكلامِ، وهي آياتُ اللهِ ودلائلُ صِفاتِه، ويُسمَّى مِثلُ هذا العمومِ: العُمومَ العُرفيَّ[٢].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ زِيادةُ بَيانٍ لِفَضيلةِ أهْلِ الإيمانِ بذِكرِ فَضيلتِهم في أعمالِهم، بعْدَ ذِكرِ فَضْلِهم في إدراكِ أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ونحْوِه مِن أدلَّةِ الإيمانِ، والمعنى: وما يَسْتوي الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ والمُسيئون، أي: في أعمالِهم؛ كما يُؤذِنُ بذلك قولُه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾، وفيه إيماءٌ إلى اختلافِ جَزاءِ الفريقَينِ، وهذا الإيماءُ إدماجٌ[٣] للتَّنبيهِ على الثَّوابِ والعِقابِ[٤].

- وقدَّمَ ذِكرَ الأعمَى على ذِكرِ البصيرِ، معَ أنَّ البصَرَ أشرَفُ مِن العَمى بالنِّسبةِ لِذاتٍ واحدةٍ، والمُشبَّهَ بالبصيرِ أشرَفُ من المُشبَّهِ بالأعمَى؛ إذ المُشبَّهُ بالبصيرِ المؤمنونَ، فقُدِّمَ ذِكرُ تَشبيهِ الكافرينَ مُراعاةً لِكَونِ الأهمِّ في المقامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٦٩، ٥٩٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

بَيانَ حالِ الَّذين يُجادِلون في الآياتِ؛ إذ همُ المقصودُ بالموعظةِ، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ فإنَّما رُتِّبَ فيه ذِكرُ الفَريقَين على عَكسِ تَرتيبِه في التَّشبيهِ بالأعمى والبصيرِ؛ اهتِمامًا بشَرَفِ المؤمنينَ[1].

وقيل: قدَّم الأعمَى في نفْيِ التَّساوي؛ لمجيئِه بعدَ صِفةِ الذَّمِّ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقدَّم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمُجاوَرتِه للبصيرِ[2].

- وأُعِيدَت (لا) النَّافيةُ بعْدَ واوِ العطْفِ على النَّفيِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وكان العطْفُ مُغْنيًا عنها؛ فإعادتُها لإفادةِ تأْكيدِ نفْيِ مُساواتِه للمُحسِنِ فيما له مِن الفضْلِ والكرامةِ، ومَقامُ التَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ، وكان الظَّاهرُ أنْ تقعَ (لا) قبْلَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فعُدِلَ عن ذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ عدَمُ مُساواةِ المُسِيءِ لِمَن عمِلَ الصَّالحاتِ، وأنَّ ذِكرَ الَّذين آمَنوا قبْلَ المُسِيءِ؛ للاهتِمامِ بالَّذين آمنوا، ولا مُقْتضي للعُدولِ عنه بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الاهتِمامِ بالَّذين سِيقَ الكلامُ لأجْلِ تَمثيلِهم، فحصَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

قال درويش: (وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الآيةَ: فنُّ حُسْنِ النَّسَقِ، وفي ترتيبِ النَّسَقِ ثلاثُ طُرُقٍ؛ إحداها: أن يُجاوِرَ المناسِبُ ما يُناسِبُه، كهذه الآيةِ؛ فالأعمى يُجاوِرُ البصيرَ... وثاني الطَّريقتَينِ: أن يَتأخَّرَ المُتقابِلانِ، كقَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، وثالثُهما: أن يُقدَّمَ مُقابِلُ الأوَّلِ ويُؤخَّرَ مُقابِلُ الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠]. وهذه الطُّرُقُ الثَّلاثُ يَتخيَّرُ المتكلِّمُ في إيرادِها حَسَبَ مُقتضى الحالِ، ووَفْقَ نواميسِ البلاغةِ وطَرائقِها). ((إعراب القرآن وبيانه)) (٨/ ٥٠٣)، ويُنظر: (٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

في الكلامِ اهتمامانِ[١].

- وفيه احتِباكٌ[٢]: فذُكِرَ عَمَلُ الصَّالحاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والمُسيءُ ثانيًا؛ دليلًا على المُحسِنينَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذُكِرَ الصَّلاحُ تَرغيبًا، والإساءةُ تَرهيبًا[٣].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قيل: القِلَّةُ هنا كِنايةٌ عن العَدَمِ، وهو استِعمالٌ كثيرٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ على صَريحِ مَعناها، ويكونَ المرادُ بالقِلَّةِ عَدَمَ التَّمامِ، أي: إذا تَذَكَّروا تَذكُّرًا لا يُتمِّمونَه، فيَنقطِعون في أثنائِه عن التَّعمُّقِ إلى استِنباطِ الدَّلالةِ منه؛ فهو كالعَدَمِ في عَدَمِ تَرتُّبِ أثَرِه عليه[٤].

- قولُه: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتِفاتِ، والخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ، وذلك على قولٍ. والعُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ يدُلُّ على العُنْفِ الشَّديدِ، والإنكارِ البليغِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ لَمَّا أُعطِيَ إثباتُ البعثِ ما يَحِقُّ مِن الحِجاجِ والاستِدلالِ، تَهيَّأَ المقامُ لاستِخلاصِ تَحقيقِه كما تُستخلَصُ النَّتيجةُ مِن القياسِ، فأُعلِنَ بتَحقيقِ مَجيءِ السَّاعةِ، وهي ساعةُ البعثِ؛ إذ السَّاعةُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨، ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

اصطلاحِ الإسلامِ عَلَمٌ بالغَلَبةِ على ساعةِ البعثِ؛ فالسَّاعةُ والبَعثُ مُترادِفانِ في المآلِ، فكأنَّه قِيل: إنَّ الَّذي جادَلَ فيه المجادِلون سيَقَعُ لا مَحالةَ؛ إذ انكشَفَتْ عنه شُبَهُ الضَّالِّينَ وتَمويهاتُهم، فصار بَيِّنًا لا رَيبَ فيه(١).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لِزيادةِ التَّحقيقِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الخبَرَ تَحقَّقَ بالأدِلَّةِ السَّابقةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للَّذين أنْكَروا البعثَ(٢). وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ هنا وفي (الحِجرِ): [الآية: ٨٥]، فدخَلَت اللَّامُ على (آتِية) فيهما، وخَلَت منها في سُورةِ (طه)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وهذه اللَّامُ تُؤكِّدُ الكلامَ، والعرَبُ تُحرِّضُ على التَّوكيدِ في مَوضعِه، وتَرْكِه في غَيرِ مَوضعِه، وهذانِ الموضعان في (الحجر) و(غافر) مِن مَواضعِ التَّوكيدِ، وتَحقيقِ الخبَرِ أنَّ السَّاعةَ حقٌّ، وأنَّها آتيةٌ لا رَيبَ فيها، والخِطابُ لِقَومٍ كُفَّارٍ يُنكِرونها. والَّتي في سُورةِ (طه) خِطابٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ، ولم يكُنْ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّن يُنكِرُ ذلك؛ فيُؤكَّدَ الكلامُ عليه تَوكيدَه على مُنكِريه والجاحِدينَ له، على أنَّه تَحميلٌ له لِيُعلِمَ قَومَه، وهو ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، فبذلك وضَحَ الفرْقُ بيْن الموضِعَينِ(٣).

- وجِيءَ باسمِ الفاعلِ في (آتِيَةٌ) الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّها لَمَّا تَحقَّقت فقد صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المُشاهَدِ، والمرادُ تَحقيقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٥-١١٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

وُقوعِها، لا الإخبارُ عن وُقوعِها[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾، ونُفِيَ الرَّيبُ عن نفْسِ السَّاعةِ، والمُرادُ نفْيُه عن إتيانِها؛ لِدَلالةِ قولِه: (آتِيَةٌ) على ذلك[٢].

- وهذا الاستِدراكُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، ومَوقعُ الاستِدراكِ هو ما يُثيرُه نفْيُ الرَّيبِ عن وُقوعِها مِن أنْ يَتساءلَ مُتسائِلٌ: كيف يُنْفَى الرَّيبُ عنها، والرَّيبُ حاصلٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ؟ فكان الاستدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جَوابًا لذلك السُّؤالِ، والمعنى: ولكنَّ أكثَرَ الناسِ يَمُرُّون بالأدلَّةِ والآياتِ وهم مُعرِضون عن دَلالتِها، فيَبْقَون غيرَ مؤمنينَ بمَدلولاتِها، ولو تأمَّلوا واستَنْبَطوا بعُقولِهم، لَظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ ما يُؤمِنونَ بعْدَه؛ فلذلك نُفِيَ عنهم هنا وصْفُ الإيمانِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٦٠-٦٥)

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ
كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[١].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعدِلونَ عنه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهَتِه[٢].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مُستقَرًّا، وسَكَنًا، يُقال: قرَّ في مكانِه: إذا ثَبَت ثُبوتًا جامِدًا، وأصلُه يدُلُّ على تمَكُّنٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

﴿فَتَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال رَبُّكم: ادعُوني -أيُّها النَّاسُ- دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُجِبْ دُعاءَكم، وأتقبَّلْ عبادتَكم، وأُثِبْكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى سوءَ عاقبةِ المتكبِّرينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ عن دُعاءِ اللهِ تعالى وعِبادتِه سيَدخُلونَ جَهنَّمَ أذِلَّاءَ صاغِرينَ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِه الَّتي أنعَم بها على عِبادِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ؛ لِتَسكُنوا وتَستريحوا فيه مِن عَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ، وجَعَل اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِتَقضُوا فيه حَوائِجَكم، إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ على النَّاسِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ!

ذلِكم اللهُ رَبُّكم الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ به؟! مِثلَ ذلك الصَّرفِ يُصرفُ أيضًا الَّذين يَجحَدونَ بآياتِ اللهِ كِبْرًا.

اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُهَيَّأةً للاستِقرارِ عليها، وجَعَل السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا عن الأرضِ، وصَوَّركم فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ، ورزَقَكم اللهُ مِنَ الطَّيِّباتِ، ذلِكم اللهُ رَبُّكم، فتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ، هو سُبحانَه الحَيُّ أزَلًا وأبَدًا، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فادعُوه مُخلِصينَ له الدِّينَ. الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ وصِدقٌ، وكان مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الإنسانَ لا ينتفعُ في يومِ القيامةِ إلَّا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ لا جَرَمَ كان الاشتِغالُ بالطَّاعةِ مِن أهَمِّ المهِمَّاتِ، ولَمَّا كان أشرَفُ أنواعِ الطَّاعاتِ الدُّعاءَ والتَّضَرُّعَ؛ لا جَرَمَ أمَرَ اللهُ تعالى به في هذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا كانت المُجادَلةُ في آياتِ اللهِ تَشملُ مُجادلتَهم في وَحدانيَّةِ الإلهيَّةِ، وتَشملُ المُجادَلةَ في وُقوعِ البعثِ؛ أعقَبَ ذِكرَ المجادَلةِ أوَّلًا بقولِه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وذلك استِدلالٌ على إمكانِ البعثِ، ثمَّ عطفَ عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآيةَ؛ تَحذيرًا مِن الإشراكِ به[2].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ أمْرُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُعاءِ اللهِ وحْدَه أمْرًا مُفرَّعًا على تَوبيخِ المشركينَ بقولِه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر: ١٢]، وعلى قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وانتقَلَ الكلامُ إثْرَ ذلك إلى الأهمِّ، وهو الأمرُ بإنذارِ المشركينَ بقولِه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾ [غافر: ١٨] إلخ، وتَتابَعَت الأغراضُ حتَّى استوفَتْ مُقْتضاها؛ عاد الكلامُ الآنَ إلى ما يَشملُ عِبادةَ المؤمنينَ الخالِصةَ للهِ تعالى، وهو أيضًا مُتَّصِلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

بقولِه: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]؛ فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الدُّعاءِ بمَعْنَيَيه: معنى العِبادةِ، ومعنى سُؤالِ المطلوبِ، أُردِفَ بهذا الأمْرِ الجامعِ لِكِلا المعنيَين(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾.

أي: وقال ربُّكم -أيُّها النَّاسُ-: ادعُوني دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُعْطِكم سُؤْلَكم، وأتَقَبَّلْ مِنكم عبادتَكم، وأُثِبْكم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ المرادُ به العِبادةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٦).

ومعنى قولِه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ على ذلك القولِ: أي: أُجِبْكم، وأُثِبْكم، وأتقبَّلْ عِبادتَكم، وأغفِرْ لكم، وأعْفُ عنكم وأرحمْكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦).

ويجوزُ أن يكونَ الدُّعاءُ والاستِجابةُ هنا على ظاهِرِهما. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، فقال: (الدُّعاءُ هنا هو الطَّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعْدٌ مُقيَّدٌ بالمشيئةِ، وهي موافَقةُ القَدَرِ لِمَن أراد أن يَستجيبَ له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين، فقال: المرادُ دعاءُ العِبادةِ ودعاءُ المسألةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) =

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، قال: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾))[1].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن مُسلِمٍ يدعو بدَعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قَطيعةُ رَحِمٍ إلَّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن تُعجَّلَ له دَعوتُه، وإمَّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أن يَصرِفَ

= (٢٤/ ١٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وبِناءً على هذا القولِ تكونُ الاستِجابةُ أُريدَ بها قَبولُ الدعاءِ وإعطاؤُهم سُؤْلَهم، وأيضًا حصولُ أثرِ العِبادةِ وقَبولُها منهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وقال ابن القيِّم: (الدُّعاءُ يَتضمَّنُ النَّوعَينِ [أي: دعاءَ العبادة، ودعاءَ المسألةِ]، وهو في دعاءِ العِبادةِ أظهَرُ؛ ولهذا عقَّبَه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فُسِّر الدُّعاءُ في الآيةِ بهذا وهذا). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣).

وقال ابن تيميَّة: (وكلُّ سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمَسؤولِ، وكلُّ عابدٍ له فهو أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يَرجو رحمتَه، ويَخافُ عذابَه؛ فكلُّ عابدٍ سائلٌ، وكلُّ سائلٍ عابدٌ، فأحَدُ الاسمَينِ يَتناوَلُ الآخَرَ عندَ تَجرُّدِه عنه، ولكنْ إذا جُمِع بيْنَهما فإنَّه يُرادُ بالسَّائلِ الَّذي يَطلُبُ جَلْبَ المَنفَعةِ ودَفْعَ المَضَرَّةِ بصِيَغِ السُّؤالِ والطَّلَبِ، ويُرادُ بالعابدِ مَن يَطلُبُ ذلك بامتِثالِ الأمرِ وإن لم يكُنْ في ذلك صِيَغُ سؤالٍ). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٢٢٠).

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صَحيحٌ)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٨٩٠)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ١١٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٢٨)، وصَحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الأذكار)) (٤٧٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٨٣٥٢)، وجَوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ٦٤).

عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَها. قالوا: إذًا نُكثِرُ، قال: اللهُ أكْثَرُ!))[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ ويَتعاظَمونَ عن عِبادتي ودُعائي سيَدخُلونَ جَهنَّمَ وهم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[(٢)].

عن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[(٣)] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ من كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى بُولَسَ، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[(٤)]، يُسقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[(٥)]))[(٦)].

---

(١) أخرجه من طُرُقٍ: أحمدُ (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والحاكم (١٨١٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١١٣٠).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحَسَّن الحديثَ ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٧٤)، وذكَرَ ثبوتَه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (١٦٣٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٥١): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ عليِّ بن عليٍّ الرِّفاعيِّ، وهو ثقةٌ). وجوَّد إسنادَه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٣) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

(٤) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغة، كأنَّ هذه النَّارَ لفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائِرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٥) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ: وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (٦٦٧٧). =

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كأنَّ اللهَ تعالى قال: إنِّي أنعمْتُ عليك قبْلَ طَلَبِك لهذه النِّعَمِ الجَليلةِ العَظيمةِ، ومَن أنعَم قبْلَ السُّؤالِ بهذه النِّعَمِ العاليةِ، فكيف لا يُنعِمُ بالأشياءِ القَليلةِ بعدَ السُّؤالِ[1]؟!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لأجْلِ أن تَستَريحوا فيه مِن حَركةِ وعَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ[2].

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾.

أي: وجَعَلَ اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه؛ لِتَطلُبوا فيه حوائِجَكم وتَقضُوها[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

قال البقاعي: (﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ راحةٌ ظاهِريَّةٌ بالنَّومِ الَّذي هو الموتُ الأصغَرُ، وراحةٌ حقيقيَّةٌ بالعبادةِ الَّتي هي الحياةُ الدَّائِمةُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

أي: إنَّ اللهَ لَمُتفَضِّلٌ على النَّاسِ كافَّةً، وفضْلُه عليهم كثيرٌ جِدًّا، ومِن فَضلِه أنْ جَعَل اللَّيلَ سَكَنًا، والنَّهارَ مُبصِرًا[1].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه؛ بالاعتِرافِ بها، أو طاعةِ المُنْعِمِ بها، وإخلاصِ العبادةِ له[2].

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: ذَلِكم المتفَرِّدُ بإجابةِ دُعائِكم، الَّذي جَعَل لكم اللَّيلَ سَكَنًا والنَّهارَ مُبصِرًا: هو وَحْدَه اللهُ المُرَبِّي لكم، والمُحسِنُ إليكم، الذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ[3].

﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، ولا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له سُبحانَه دونَ ما سِواه[4].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ باللهِ وعِبادتِه وَحْدَه إلى عبادةِ غَيرِه، مع قيامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

الأدِلَّةِ على تَوحيدِه[١]؟!

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الصَّرفِ العَجيبِ عن التَّوحيدِ والإخلاصِ يُصرَفُ أيضًا كُلُّ مَن استَمَرَّ على جُحودِ آياتِ اللهِ عِنادًا ومُكابَرةً، دونَ تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ في معانيها ودلائِلِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما امتَنَّ به مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ ذكَرَ أيضًا ما امتَنَّ به مِن جَعلِ الأرضِ مُستَقَرًّا، والسَّماءِ بِناءً[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: كذَهابِكم عنه أيُّها القَومُ، وانصِرافِكم عن الحقِّ إلى الباطِلِ، والرشدِ إلى الضَّلالِ، ذهَب عنه الَّذين كانوا مِن قَبْلِكم مِن الأمَمِ. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه يُكَذِّبون فلا يؤمِنونَ؛ يقول: فسَلَكْتُم أنتم -مَعْشَرَ قُرَيشٍ- مَسْلَكَهم، وركِبْتُم مَحَجَّتَهم في الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٩).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مَوضِعًا مُهَيَّأً للاستِقرارِ عليه دونَ اضطِرابٍ، فتَتَمَكَّنونَ مِن الإقامةِ والسُّكنى فيها، والمشْيِ عليها، وحَرْثِها وغَرْسِها والبناءِ عليها[1].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ لكم السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا وسَقفًا للأرضِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢].

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لا جَرَمَ أنَّ حِكمةَ اللهِ تعالى الَّتي تَعلَّقَت بإيجادِ ما يَحُفُّ بالإنسانِ مِن العوالَمِ على كيفيَّاتٍ مُلائمةٍ لِحياةِ الإنسانِ وراحَتِه قد تَعلَّقَت بإيجادِ الإنسانِ في ذاتِه على كَيفيَّةٍ مُلائمةٍ له مُدَّةَ بَقاءِ نَوعِه على الأرضِ، وتحْتَ أديمِ السَّماءِ؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٤).

قال ابن عاشور: (ويحتملُ أنَّ المعنى: جعَل الأرضَ ذاتَ قرارٍ، أي: قرارٍ لكم، أي: جعَلها مُستقرًّا لكم، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي: خلَقها على كيفيَّةٍ تلائمُ الاستِقرارَ عليها بأنْ جعَلها يابسةً غيرَ سائلةٍ، ولو شاء لجعَل سطحَ الأرضِ سيَّالًا كالزِّئبَقِ، فلا يَزالُ الإنسانُ سائخًا فيها يَطفو تارةً ويَسيخُ أخرى، فلا يَكادُ يبقَى على تلك الحالةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

أعقَبَ التَّذكيرَ بما مهَّدَ له مِن خلْقِ الأرضِ والسَّماءِ، بالتَّذكيرِ بأنَّه خلَقَه خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه(١)، فقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: خَلَقَكم اللهُ فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الرِّزقُ شَهوةً في ظاهِرِه، وكان مُشتمِلًا على حِكمةِ إمدادِ الجسْمِ بوَسائلِ تَجديدِ قُواهُ الحيويَّةِ، وكان في قولِه: ﴿وَرَزَقَكُم﴾ إيماءٌ إلى نِعمةِ طُولِ الوُجود، فلمْ يكُنِ الإنسانُ مِن الموجوداتِ الَّتي تَظهَرُ على الأرضِ، ثمَّ تَضْمحِلُّ في زمَنٍ قريبٍ؛ جمَعَ له بيْنَ حُسنِ الإيجادِ وبيْنَ حُسنِ الإمدادِ، فجعَلَ ما به مَدَدُ الحياةَ -وهو الرِّزقُ- مِن أحسَنِ الطَّيِّباتِ، على خِلافِ رِزقِ بقيَّةِ أنواعِ الحيوانِ(٣).

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

أي: ورزَقَكم اللهُ مِنَ الأرزاقِ الشَّهيَّةِ اللَّذيذةِ النَّافِعةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥، ٤٣٦).
=

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

أي: ذَلِكم الَّذي فعَل هذه الأفعالَ وأنعَمَ عليكم بهذه النِّعَمِ هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ غيرِه، وهو وَحْدَه رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدبِّرُ لجَميعِ شُؤونِكم[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: فتَعالَى وتَقَدَّس، وكَثُر خَيرُه وإحسانُه: اللهُ خالقُ ومالكُ ورازقُ ومُدَبِّرُ جميعِ الخَلقِ، الَّذي يُربِّيهم بنِعَمِه وإحسانِه[2].

= قال السعدي: (هذا شامِلٌ لكُلِّ طَيِّبٍ؛ من مأكَلٍ ومَشرَبٍ ومَنكَحٍ، ومَلبَسٍ ومَنظَرٍ ومَسمَعٍ... وغيرِ ذلك من الطَّيِّباتِ الَّتي يسَّرَها اللهُ لِعبادِه، ويسَّرَ لهم أسبابَها، ومنَعَهم مِن الخبائِثِ الَّتي تُضادُّها، وتَضُرُّ أبدانَهم وقُلوبَهم وأديانَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٦).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العلماءُ: العالَمُ كلُّ مَن سِوى الله). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٢). =

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي له الحَياةُ الكامِلةُ المُستَلزِمةُ للصِّفاتِ الكامِلةِ؛ فلم يَسبِقْ حياتَه سُبحانَه عَدَمٌ، ولا يَلحَقُها زَوالٌ؛ فهو أزَلًا وأبَدًا حَيٌّ لا يموتُ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، فلا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ له[(١)].

﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له بلا رِياءٍ، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا مِن خَلْقِه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: الحمدُ للهِ[(٣)]، ....

= وقال ابن عاشور: (﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالِقُ أجناسِ العقلاءِ مِن النَّاسِ والملائكةِ والجِنِّ... وهم أشرفُ أجناسِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢).

وذكر الشنقيطي أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيَّنه اللهُ سبحانَه في موضعٍ آخَرَ بقولِه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

(٣) الحَمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ على وجهِ المحبةِ والتعظيم. واللامُ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختِصاصِ -لأنَّ الحمدَ المطلقَ لا يصِحُّ إلَّا لله وحدَه- والاستحقاقِ؛ لأنَّ المستحِقَّ =

خالقِ جميعِ الخَلْقِ ومالكِهم ومُدَبِّرِهم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فيه دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أن يَدعُوه في حاجاتِهم[٢]، وهذا مِن لُطفِه بعِبادِه، ونِعمتِه العَظيمةِ؛ حيثُ دعاهم إلى ما فيه صَلاحُ دِينِهم ودُنياهم، وأمَرَهم بدُعائِه دُعاءَ العِبادةِ، ودُعاءَ المسألةِ، ووعَدَهم أن يَستجيبَ لهم، وتوعَّدَ مَن استكبَرَ عنها[٣]. قال طاووسٌ لِعَطاءٍ: (إيَّاك أن تَطلُبَ حوائِجَك إلى مَن غلَّق دونَك أبوابَه، وجعَل دُونَها حُجَّابَه، وعليك بمَن أمَرَك أن تَسألَه، ووعَدَك الإجابةَ)[٤].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا تَنبيهٌ مِن اللهِ

= للحَمدِ حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على اللهِ... أي: قائلينَ: الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، أو قولوا: الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ... ويجوزُ أن تكونَ كلامًا مُستأنفًا أُريدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نَفسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحمَدونَه... وعندي: أنَّه يجوزُ أن يكونَ ﴿الْحَمْدُ﴾ مَصدرًا جيءَ به بدلًا مِن فِعلِه على معنى الأمرِ، أي: احمَدوا اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وعَدَل به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٨/ ١٤١).

تعالى على آياتٍ وعِبَرٍ متى تأمَّلَها العاقِلُ أدَّتْه إلى توحيدِ اللهِ، وعبادتِه وحْدَه[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَدبَّرْ هذه الآياتِ الكريماتِ الدَّالَّةَ على سَعةِ رحمةِ اللهِ تعالى، وجَزيلِ فَضلِه، ووُجوبِ شُكرِه، وكَمالِ قُدرتِه، وعظيمِ سُلطانِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ خَلْقِه لجَميعِ الأشياءِ، وكَمالِ حياتِه، واتِّصافِه بالحَمدِ على كُلِّ ما اتَّصَف به مِن الصِّفاتِ الكامِلةِ، وما فعَلَه مِن الأفعالِ الحَسَنةِ، وتمامِ رُبوبيَّتِه، وانفرادِه فيها، وأنَّ جميعَ التَّدبيرِ في العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ في ماضي الأوقاتِ وحاضِرِها ومُستَقبَلِها: بيَدِ اللهِ تعالى، ليس لأحَدٍ مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا مِن القُدرةِ شَيءٌ؛ فيَنتُجَ من ذلك أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ وَحْدَه، الَّذي لا يَستَحِقُّ أحَدٌ سِواه مِن العُبوديَّةِ شَيئًا، كما لم يَستَحِقَّ مِن الرُّبوبيَّةِ شَيئًا، ويَنتُجَ من ذلك امتِلاءُ القُلوبِ بمعرفةِ اللهِ تعالى ومحبَّتِه، وخَوفِه ورَجائِه، وهذانِ الأمْرانِ -وهما مَعرفتُه وعِبادتُه- هما اللَّذانِ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لأجْلِهما، وهما الغايةُ المقصودةُ منه تعالى لعبادِه، وهما المُوصِلانِ إلى كُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ وصَلاحٍ، وسَعادةٍ دُنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ، وهما أشرَفُ عطايا الكريمِ لعِبادِه، وهما أشرَفُ اللَّذَّاتِ على الإطلاقِ، وهما اللَّذانِ إنْ فاتا فات كُلُّ خَيرٍ، وحَضَر كُلُّ شَرٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن قياسِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ بأعمالِ العِبادِ، بمعنى أنَّه إذا قيل لشَخصٍ: هذا حرامٌ، فلا يَنْبغي له أن يقولَ: إنَّ كلَّ النَّاسِ يَفعلُه! ولا أن يَجعَلَ المعيارَ أعمالَ النَّاسِ، فهذا خطأٌ؛ فأعمالُ النَّاسِ ليست بحُجَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالحُجَّةُ فيما قاله اللهُ ورسولُه ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، إذَنْ لا يجوزُ أنْ نَجعَلَ أعمالَ النَّاسِ مِعيارًا للأحكامِ الشَّرعيَّةِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن جَحَد بآياتِ اللهِ ولم يَتأمَّلْها، ولم يكُنْ فيه هِمَّةٌ لِطَلَبِ الحَقِّ وخَوفِ العاقِبةِ؛ أُفِكَ كما أُفِكوا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أنَّ الذُّنوبَ تَحولُ بيْنَ الإنسانِ وبينَ رؤيةِ الحقِّ؛ لأنَّ هؤلاء لَمَّا جَحَدوا بآياتِ اللهِ صُرِفوا عنه[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اقصِدوا بكُلِّ عِبادةٍ ودُعاءٍ وعَمَلٍ وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الإخلاصَ هو المأمورُ به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥][٤]، فدلَّ قولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في العبادةِ والدُّعاءِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه عُمومُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّه يجبُ أنْ يَقوَى اعتِمادُ الإنسانِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ، ودَفْعِ المَضارِّ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ هو ربَّ العالَمينَ فهو مُسيطرٌ على كلِّ العالَمينَ، وله السُّلطانُ على كلِّ العالَمينَ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أيضًا مسألةٌ أخرَى: وهي اللُّجوءُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ حصولِ المُضايقاتِ مِن بني آدَمَ أو غيرِ بني آدَمَ؛ لأنَّه سبحانَه ربُّ العالَمينَ؛ بيدِه الأمرُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن بُشرَى الإنسانِ أنْ يُوفَّقَ للعبادةِ، فمَنْ وُفِّقَ للعبادةِ على ما يُرضي اللهَ تعالى فهي بُشرَى بالقبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّقَ للدُّعاءِ فهو بُشرَى بالإجابةِ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ظاهِرٌ في تَرجيحِ الدُّعاءِ على التَّفويضِ والاستِسلامِ للقضاءِ، فالدُّعاءُ مِن أعظَمِ العبادةِ، وقد توارَدَت الآثارُ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّرغيبِ فيه، والحثِّ عليه[٣].

٣- الدُّعاءُ سببٌ مُقْتضٍ للإجابةِ معَ استِكمالِ شرائطِه، وانتِفاءِ مَوانِعِه، وقد تَتخلَّفُ إجابتُه؛ لانتِفاءِ بعضِ شروطِه، أو وُجودِ بعضِ موانعِه[٤]، أو لِمَصلحةِ الدَّاعي، فأمَّا إذا تمَّتِ الشُّروطُ وانتَفتِ الموانعُ ولم تَقتَضِ المَصلحةُ خِلافَ ما دعا به الدَّاعي؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَستجيبُ الدُّعاءَ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢).

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(١). وذلك على قولٍ في التَّفسير.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عِبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي؛ فقد سمَّاه عِبادةً(٢). وذلك على قولٍ في التَّفسير.

٥- مِن الشِّركِ أنْ يدعوَ العبدُ غيرَ اللهِ؛ وذلك لأنَّ الدُّعاءَ مِن العبادةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، و﴿عِبَادَتِي﴾ أي: دعائي؛ فسمَّى اللهُ الدُّعاءَ عِبادةً، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ))(٣). وذلك على قولٍ في التَّفسير.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الكِبْرَ المُبايِنَ للإيمانِ لا يَدخُلُ صاحِبُه الجنَّةَ، ومِن هذا كِبرُ إبليسَ وكِبرُ فِرعَونَ وغيرِهما ممَّن كان كِبرُه مُنافيًا للإيمانِ، وكذلك كِبرُ اليَهودِ، وأيضًا الَّذين أخبرَ اللهُ عنهم بقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، والكِبرُ كلُّه مُبايِنٌ للإيمان الواجِبِ؛ فمَنْ في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ لا يَفعَلُ ما أوجَبَ اللهُ عليه، ولا يَترُكُ ما حَرَّمَ عليه، بل كِبرُه يُوجِبُ له جَحْدَ الحقِّ، واحتِقارَ الخَلقِ، وهذا هو الكِبرُ الَّذي فَسَّره النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٩).

قال ابنُ تيميَّة: (الدُّعاءُ في اقتِضائِه الإجابةَ كسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ في اقتِضائِها الإثابةَ، وكسائرِ الأسبابِ في اقتِضائِها المُسبَّباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٠).

والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٣١٠).

النَّاسِ))[١]، وبَطَرُ الحَقِّ: جَحْدُه ودَفْعُه. وغَمْطُ النَّاسِ: ازدِراؤُهم واحتِقارُهم، فمَنْ في قَلبِه مِثقالُ ذرَّةٍ من هذا يُوجِبُ له أنْ يَجحَدَ الحقَّ الَّذي يَجِبُ عليه أن يُقِرَّ به، وأن يَحتَقِرَ النَّاسَ فيَكونَ ظالِمًا لهم مُعتَديًا عليهم؛ فمَن كان مُضَيِّعًا للحَقِّ الواجِبِ ظالِمًا للخَلقِ: لم يكُنْ مِن أهلِ الجنَّةِ ولا مُستَحِقًّا لها، بل يكونُ مِن أهلِ الوعيدِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، يعني: أنَّ العُقوبةَ تُقابِلُ الجُرمَ؛ لأنَّهم لَمَّا استكبَروا في الدُّنيا أُدخِلوا النَّارَ صاغِرينَ في الآخِرةِ[٣].

٨- تَعليلُ أحكامِ اللهِ القَدَريَّةِ -كما هو ثابتٌ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ- يعني: أنَّ أحكامَ اللهِ الكَونيَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تكونَ إلَّا لِحكمةٍ؛ تُؤخَذُ مِن: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾، واللَّامُ للتَّعليلِ، إذَنْ جَعَلَ اللهُ ذلك لِنَسكُنَ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والإشارةُ إلى أنْ يكونَ هذا الشُّكرُ مِن جنسِ الفضلِ، فشُكْرُ صاحبِ المالِ لربِّه هو أنْ يُنْفِقَه في سبيلِ اللهِ، وشُكْرُ العِلمِ بَذْلُه، وشُكْرُ مَن أعطاه اللهُ شجاعةً وقوَّةً بَدَنيَّةً -والجهادُ قائمٌ- أنْ يُجاهِدَ في سبيلِ اللهِ، إذًا الشكرُ مِن جنسِ النِّعَمِ[٥].

١٠- قَولُه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعدَ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٦).

فيه بناءُ توحيدِ الألوهيَّةِ على توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا هو، أي: لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ مَن تكبَّرَ عن حَقٍّ فأنكَرَه مع عِلْمِه به، عُوقِبَ بمَسخِ القَلبِ وعَكْسِ الفَهمِ؛ فصار له الصَّرفُ عن وُجوهِ الدَّلائِلِ إلى أقفائِها دَيْدَنًا، بحيث يموتُ كافِرًا إنْ لم يَتداركْه اللهُ برَحمةٍ منه[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذا أصلٌ عَظيمٌ في الأخلاقِ العِلميَّةِ؛ فإنَّ العُقولَ الَّتي تَتخَلَّقُ بالإنكارِ والمُكابَرةِ قبْلَ التَّأمُّلِ في المعلوماتِ: تُصرَفُ عن انكِشافِ الحقائقِ العِلميَّةِ، فتَختَلِطُ عليها المعلوماتُ، ولا تُميِّزُ بيْنَ الصَّحيحِ والفاسِدِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازَعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه وهو الخَلْقُ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((إنَّ أصحابَ هذه الصُّوَرِ يُعذَّبونَ يومَ القيامةِ، ويُقالُ لهم: أَحيوا ما خَلَقْتُم))[٤]، وهذا هو الصَّحيحُ أنَّ التَّصويرَ حرامٌ؛ بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه، فأمَّا الصُّورةُ التِّمثاليَّةُ فهذه لا شكَّ في تحريمِها، وكذلك التَّصويرُ باليدِ الصَّحيحُ أنَّه حرامٌ، أمَّا التَّصويرُ بالالتِقاطِ (التَّصوير الفوتوغرافي) فمُختلَفٌ فيه بيْنَ المتأخِّرينَ اختلافًا كبيرًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨، ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) =

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذا أردْتَ أن تَعرِفَ حُسنَ الآدَميِّ وكَمالَ حِكمةِ اللهِ تعالى فيه، فانظُرْ إليه عُضوًا عُضوًا: هل تجِدُ عُضوًا مِن أعضائِه يَليقُ به ويَصلُحُ أن يكونَ في غيرِ مَحلِّه؟! وانظُرْ أيضًا إلى المَيلِ الَّذي في القُلوبِ بَعضِهم لِبَعضٍ: هل تجِدُ ذلك في غيرِ الآدَميِّينَ؟! وانظُرْ إلى ما خَصَّه اللهُ به مِنَ العَقلِ والإيمانِ، والمحبَّةِ والمَعرِفةِ؛ الَّتي هي أحسَنُ الأخلاقِ المُناسِبةِ لأجمَلِ الصُّوَرِ(١).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، فإن وُجِد بعضُ النَّاسِ قبيحَ المنظرِ، فلا يُخرِجُه ذلك عن حُسنِ الصُّورةِ الإنسانيَّةِ، وإنَّما هو قبيحٌ بالنَّظرِ إلى مَن هو أحسَنُ منه مِن النَّاسِ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ كلَّ المخلوقاتِ آيةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالعالَمونَ كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، وهم سُمُّوا بذلك لأنَّهم عَلَمٌ على خالِقِهم جلَّ وعلا(٣).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أنَّ الإجابةَ مُشترَطةٌ بالإخلاصِ(٤).

= للشنقيطي (٣/ ٦، ٤٤٦-٤٤٧).

قال ابن عثيمين عن التصويرِ الفوتوغرافي: (والَّذي يَتبيَّنُ لي أنَّه لا يدخُلُ في التَّصويرِ؛ لأنَّ هذا لم يخلقْ بيدِه كما خلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ... فإن كان لغرَضٍ مُباحٍ فهو مُباحٌ، وإن كان لغرَضٍ مُحرَّمٍ فهو مُحرَّمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤١، ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٥).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ فضْلِ الدُّعاءِ[(١)].

- والاستِجابةُ تُطلَقُ على إعطاءِ المَسؤولِ لِمَن سأَلَه، وهو أشهَرُ إطلاقِها، وتُطلَقُ على أثَرِ قَبولِ العِبادةِ بمَغفرةِ الشِّركِ السَّابقِ، وبحُصولِ الثَّوابِ على أعمالِ الإيمانِ؛ فإفادةُ الآيةِ على معنى طَلَبِ الحاجةِ مِن اللهِ يُناسِبُ تَرتُّبَ الاستِجابةِ على ذلك الطَّلبِ مُعلَّقًا على مَشيئةِ اللهِ، أو على استيفاءِ شُروطِ قَبولِ الطَّلبِ، وإعطاءِ خَيرٍ منه في الدُّنيا، أو إعطاءِ عِوَضٍ منه في الآخرةِ. وإفادتُها على معنَى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، أي: بأنْ يَتوبوا عن الشِّركِ؛ فتَرتُّبُ الاستِجابةِ هو قَبولُ ذلك؛ فإنَّ قَبولَ التَّوبةِ مِن الشِّركِ مَقطوعٌ به. فلمَّا جَمَعَت هذِه الآيةُ بيْن الفِعلَينِ على تَفاوُتٍ بيْن شُيوعِ الإطلاقِ في كِلَيهما، عَلِمْنا أنَّ في المعنى المرادِ ما يُشْبِهُ الاحتباكَ[(٢)]؛ بأنْ صُرِّحَ بالمعنى المشهورِ في كِلا الفِعلَينِ، ثمَّ أُعقِبَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فعَلِمْنا أنَّ المرادَ الدُّعاءُ والعِبادةُ، وأنَّ الاستِجابةَ أُرِيدَ بها قَبولُ الدُّعاءِ، وحُصولُ أثَرِ العبادةِ؛ ففِعلُ ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ مُستعمَلٌ في مَعْنَيَيْه بطَريقةِ عُمومِ المشترَكِ[(٣)].

وعلى القولِ بأنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: العبادةُ ففي قولِه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ مُشاكَلةٌ؛

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

لأنَّ الإثابةَ مُترتِّبةٌ عليها(١).

- وتَعريفُ اللهِ بوَصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ﴿رَبُّكُمُ﴾؛ لِما في هذا الوصْفِ وإضافتِه مِن الإيماءِ إلى وُجوبِ امتِثالِ أمْرِه؛ لأنَّ مِن حقِّ الرُّبوبيَّةِ امتثالَ ما يَأمُرُ به مَوصوفُها؛ لأنَّ المَربوبَ مَحقوقٌ بالطَّاعةِ لِربِّه؛ ولهذا لم يُعرَّجْ مع هذا الوصفِ على تَذكيرٍ بنِعمتِه، ولا إشارةٍ إلى كَمالاتِ ذاتِه(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالدُّعاءِ تَعليلًا يُفيدُ التَّحذيرَ مِن إبايةِ دُعاءِ اللهِ حِينَ الإقبالِ على دُعاءِ الأصنامِ، وكان المشْرِكونَ لا يَضَّرَّعون إلى اللهِ إلَّا إذا لم يَتوسَّموا استِجابةَ شُركائِهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ومعنى التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ بهذا التَّحذيرِ: أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ لِعبادِه ما يُفْضي بهم إلى العَذابِ؛ ففي الآيةِ دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أنْ يَدعُوه في حاجاتِهم، وفي الإتيانِ بالموصولِ إيماءٌ إلى التَّعليلِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمُ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أُتبِعَ ﴿رَبُّكُمُ﴾ بالاسمِ العَلَمِ لِيُقْضى بذلك حَقَّانِ: حقُّ استِحقاقِه أنْ يُطاعَ بمُقْتضى الرُّبوبيَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢، ١٨٣).

والعُبوديَّةِ، وحقُّ استِحقاقِه الطَّاعةَ لِصِفاتِ كَمالِه الَّتي يَجمَعُها اسمُ الذَّاتِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ معَ وَصْفِ الرَّبِّ المتقدِّمِ بشَيءٍ من ذِكرِ نِعَمِه ولا كَمالاته؛ اجتزاءً بمُقْتَضَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ، وذُكِرَ مع الاسمِ العَلَمِ بعضُ إنعامِه وإفضالِه، ثمَّ وُصِفَ الاسمُ بالمَوصولِ وصِلَتِه؛ إشارةً إلى بَعضِ صِفاتِه، وإيماءً إلى وَجْهِ الأمْرِ بعِبادتِه، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَقْويةِ الأمْرِ بدُعائِه.

ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ صِفةً له، ويكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، ويكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ مُعترِضةً، أو أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ خبَرًا، واعتبارُ الجُملةِ مُستأنَفةً، وهو أحسَنُ مِن اعتبارِ اسمِ الجلالةِ بَدَلًا؛ لأنَّه أنسَبُ بالتَّوقيفِ على سُوءِ شُكْرِهم، وبمَقامِ تَعدادِ الدَّلائلِ، وأسعَدُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، فتكونَ الجُملةُ واقِعةً مَوقِعَ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: تَسبَّبوا لأنفُسِهم بذلك العِقابِ؛ لأنَّهم كَفَروا نِعمةَ اللهِ؛ إذ جَعَل لهم اللَّيلَ والنَّهارَ. وعلى هذه الاعتِباراتِ كلِّها فقد سجَّلَت هذه الآيةُ على النَّاسِ تَقسيمَهم إلى شاكِرِ نِعمةٍ، وكَفُورِها، كما سجَّلَت عليهم الآيةُ السَّابِقةُ تَقسيمَهم إلى مُؤمنٍ بوَحدانيَّةِ اللهِ، وكافرٍ بها[1].

- وهذه الآيةُ للتَّذكيرِ بنعمةِ اللهِ تعالى على الخلْقِ، كما اقتَضاهُ لامُ التَّعليلِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاهُ التَّذييلُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وأُدمِجَ في التَّذكيرِ بالنِّعمةِ استِدلالٌ على انفِرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ بالخلْقِ والتَّدبيرِ الَّذي هو مُلازِمٌ حَقيقةَ الإلهيَّةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٤).

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ ابتُدِئَ الاستدلالُ بدَلائلِ الأكوانِ العُلْويَّةِ وآثارِها الواصِلةِ إلى الأكوانِ السُّفليَّة، وهي مَظهَرُ النِّعمةِ باللَّيلِ والنَّهارِ؛ فهما تَكوينانِ عَظيمانِ دالَّانِ على عَظيمِ قُدْرةِ مُكوِّنِهما ومُنظِّمِهما، وجاعِلِهما مُتعاقِبَينِ، فنِيطَتْ بهما أكثرُ مَصالحِ هذا العالَمِ ومَصالحِ أهْلِه[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أُسنِدَ الإبصارُ إلى النَّهارِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ إبصارِ النَّاسِ في الضِّياءِ، وكَثرةِ الفوائدِ الحاصِلةِ لهم مِن ذلك؛ لِقُوَّةِ الملابَسةِ بيْنَ الأفعالِ وزَمانِها، فأُسنِدَ إبصارُ النَّاسِ إلى نفْسِ النَّهارِ؛ لأنَّه سببُ بَعضِه، وسَببُ كَمالِ بعضٍ آخَرَ. فأمَّا نعمةُ السُّكونِ في اللَّيلِ فهي نِعمةٌ واحدةٌ؛ هي رُجوعُ النَّشاطِ. وفي ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ تَذكيرٌ بآيةٍ عَظيمةٍ مِن المخلوقات، وهي الشَّمسُ الَّتي يَنشَأُ اللَّيلُ مِن احتِجابِ أشِعَّتِها عن نِصفِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، ويَنشَأُ النَّهارُ مِن انتِشارِ شُعاعِها على النِّصفِ المقابِلِ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، ولكنْ لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ، ذُكِرَ اللَّيلُ والنَّهارُ دونَ الشَّمسِ، وقد ذُكِرَت الشَّمسُ في آياتٍ أُخرى كان الغرَضُ الأهمُّ منها الدَّلالةَ على عَظيمِ القُدرةِ والوَحدانيَّةِ، كقولِه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. ودلَّت مُقابَلةُ تَعليلِ إيجادِ اللَّيلِ بعِلَّةِ سُكونِ النَّاسِ فيه بإسنادِ الإبصارِ إلى ذاتِ النَّهارِ -وإنَّما المُبصِرونَ النَّاسُ في النَّهارِ- على احتباكٍ[2]؛ إذ يُفهَمُ مِن كِلَيهما أنَّ اللَّيلَ ساكنٌ أيضًا، وأنَّ النَّهارَ خُلِقَ لِيُبصِرَ النَّاسُ فيه؛ إذ المِنَّةُ بهما سواءٌ، فهذا من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

بَديعِ الإيجازِ، ولم يُعكَسْ فيُقَلْ: (جعَلَ لكمُ اللَّيلَ ساكنًا والنَّهارَ لِتُبْصِروا فيه)؛ لئلَّا تَفوتَ صَراحةُ المرادِ مِن السُّكونِ؛ كيْلَا يُتوهَّمَ أنَّ سُكونَ اللَّيلِ هو شِدَّةُ الظَّلامِ فيه كما يُقالُ: لَيلٌ ساجٍ؛ لِقِلَّةِ الأصواتِ فيه[١].

- وقيل: قدَّم ذِكْرَ اللَّيلِ على ذِكْرِ النَّهارِ معَ أنَّ النَّهارَ أشرَفُ مِن اللَّيلِ؛ لأنَّ الظُّلمةَ طبيعةٌ عَدَميَّةٌ، والنُّورَ طبيعةٌ وُجودِيَّةٌ، والعدَمُ في المُحْدَثاتِ مُقَدَّمٌ على الوُجودِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اعتِراضٌ، وهو كالتَّذييلِ لِجُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾؛ لأنَّ الفضْلَ يَشملُ جعْلَ اللَّيلِ والنَّهارِ وغيرِ ذلك مِن النِّعَمِ، ولأنَّ (النَّاسَ) يَعُمُّ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وغيرَهم مِن النَّاسِ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ تعالى عظيمةٌ جَليلةٌ، وأنْ يُجعَلَ فضْلًا لا يُوازيهِ فضْلٌ؛ ولذلك قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾، ولم يقُلْ: لَمُتفضِّلٌ، ولا: لَمُفضِلٌ، فعُدِلَ إلى إضافةِ (ذو) إلى (فضْل)؛ لِتأتِّي التَّنكيرِ المُشعِرِ بالتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن نَحْوِ: له فضْلٌ، إلى ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ لِما يَدلُّ عليه (ذو) مِن شَرَفِ ما يُضاف هو إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

- والاستدراكُ بـ (لكنَّ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ناشئٌ عن لازمِ ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ يَشكُرَ النَّاسُ ربَّهم على فضْلِه، فكان أكثَرُهم كافرًا بنِعَمِه، وأيُّ كُفرٍ للنِّعمةِ أعظَمُ مِن أنْ يَترُكوا عِبادةَ خالِقِهم المتفضِّلِ عليهم ويَعْبُدوا ما لا يَملِكُ لهم نفْعًا ولا ضَرًّا؟! وخرَجَ بقولِه: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الأقلُّ، وهم المؤمِنون؛ فإنَّهم أقلُّ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ فقد كان السِّياقُ يَقْتضي أنْ يُقالَ: (ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرون)، فلا يَتكرَّرُ ذِكرُ النَّاسِ، ولكنْ في هذا التَّكريرِ تَخصيصٌ لِكُفرانِ النِّعمةِ بهم، وأنَّهم هم الَّذين يَكفُرونَ فضْلَ اللهِ ولا يَشكُرونَه، وأنَّهم هم المُتميِّزونَ بهذه الصِّفةِ المنبوَّةِ على الطِّباعِ؛ تَتوالى عليهم النِّعَمُ، وتَترادَفُ الآلاءُ، ويَتهيَّأُ لهم كلُّ ما يَصْبُون إليه مِن مَناعمِ العَيشِ، وهم مُصِرُّون على الجُحودِ والنُّكرانِ! أليْسَتْ هذه سِمَةَ النَّاسِ في مُختلِفِ الظُّروفِ والأحوالِ[2]؟!

- وفي قولِه تعالَى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧، ٥٨]، وبعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٧).

دَاخِرِينَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر: ٥٩ - ٦١]، ثمَّ بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١]: مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ اختلَفَت المواضعُ الثَّلاثةُ الَّتي جاء فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾؛ وذلك أنَّ مَن أقرَّ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وأنكَرَ الإعادةَ والبعثَ نُبِّهَ على أنْ يَعلَمَ أنَّ مَن قدَرَ على الأكبرِ قادرٌ على الأصغَر، وهذا مَوضعٌ يَفتقِرُ إلى العِلمِ الَّذي نَفاهُ عمَّن لمْ يُقِرَّ به، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، فاختُصَّ هذا الموضعُ بنَفْيِ العِلمِ، والعِلمُ هو المحتاجُ إليه، والمبعوثُ عليه. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩] فإنَّ مَن أنكَرَ البعثَ فهو مُحتاجٌ إلى الإيمانِ به بعْدَ عِلْمِه أنَّ القادرَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١] فمَن كان للهِ فضْلٌ عليه، فهو مُحتاجٌ إلى أنْ يُؤدِّيَ حقَّه بالشُّكرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، أي: لا يُقابِلون نِعمةَ اللهِ عليهم بما يَسْتديمُها لهم مِن الشُّكرِ الَّذي يَربِطُها لَدَيهم، بهذا بان أنَّ كلَّ ما خُتِمَت به آيةٌ هو في مَكانِه اللَّائقِ به[(١)].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٣٢-١١٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢، ٥٠٣).

فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فأظهَرَ (النَّاسَ) في مَوضعِ الإضمارِ في سُورةِ (غافرٍ)، وأضمَرَ في مَوضعِ الإظهارِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: وهي أنَّ كلَّ مَوضعٍ يَحتمِلُ الإضمارَ لِقُرْبِ الذِّكرِ، ويَحتمِلُ الإظهارَ لِتَعظيمِ الأمْرِ، وذِكرُ أخصِّ الأسماءِ المقصودِ بالتَّقريعِ والتَّفنيدِ؛ فإنَّه يُحمَلُ على ما يلائِمُ الآياتِ المتقدِّمَةَ له؛ فأمَّا في سورةِ (غافرٍ) فإنَّ هذا الموضعَ محمولٌ على الآياتِ الَّتي قبْلَه، وهي قولُه: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]، ثمَّ جاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، فأظهَرَ ذِكرَ النَّاسِ كما أظهر في الآيتَينِ قبْلَها للمُشاكَلةِ والمُلاءَمةِ، وليس كذلك الأمرُ في سورةِ يونسَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الكلامَ هناك بُنيَ على الإضمارِ في الآيِ المُتقدِّمةِ، فقد قال تعالى مُخبرًا عمَّن يَدخُلُ من الظَّالمينَ النَّارَ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢]، فانقَضى هذا الكلامُ، واستُؤنِفَ خَبَرٌ عن القَومِ الَّذين بعَثَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم، فقال: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]، فأضمَرَ ذِكرَه في قولِه: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٥]، فأضمَرَ ما أضاف إليه أكثَرَ، ثمَّ انْتَهى إلى قولِه تعالى بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فاقْتَضى ما بُنِيَ عليه الكلامُ في هذه الآياتِ أنْ يكونَ ما بعْدَ الشَّرطِ بلَفظِ الإضمارِ كما كان ما تَقدَّمه، فاختِلافُ

المَوضعَينِ في الإظهارِ والإضمارِ لِما ذُكِرَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [غافر: ٦١]، وعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّه تعالى مَعلومٌ مُتميِّزٌ بأفعالِه المنفرِدِ بها، بحيث إذا ذُكِرَت أفعالُه تميَّزَ عمَّا سِواهُ، فصار كالمشاهَدِ المشارِ إليه، فكيف تَلتبِسُ إلهيَّتُه بإلهيَّةٍ مَزعومةٍ للأصنامِ؟! فليستْ للَّذين أشْرَكوا به شُبهةٌ تُلبِّسُ عليهمْ ما لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه، أي: ذلِكم ربُّكم لا غيرُه، وفي اسمِ الإشارةِ هذا تَعريضٌ بغَباوةِ المُخاطَبينَ الَّذين الْتبَسَت عليهم حَقيقةُ إلهيَّته[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أخبارٌ أربعةٌ عن اسمِ الإشارةِ مُترادِفةٌ تُخصِّصُ اللَّاحِقةُ منها السَّابقةَ وتُقرِّرُها، وابتُدِئَ فيها بالاسمِ الجامعِ لِصفاتِ الإلهيَّةِ إجمالًا ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُردِفَ بقولِه: ﴿رَبُّكُمۡ﴾، أي: الَّذي دبَّرَ خلْقَ النَّاسِ، وهيَّأَ لهمْ ما به قِوامُ حَياتِهم. ولَمَّا كان في معنى الرُّبوبيَّةِ مِن معنى الخلْقِ ما هو خلْقٌ خاصٌّ بالبشَرِ أرْدَفَ بأنَّه خالقُ الأشياءِ كلِّها كما خلَقَهم فقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وأردَفَ بنَفْيِ الإلهيَّةِ عن غَيرِه، فجاءتْ مَضامينُ هذه الأخبارِ الأربعةِ مُترتِّبةً بطَريقةِ التَّرقِّي، وكان رابعُها نَتيجةً لها. ثمَّ فُرِّعَ عليها استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ -﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾- من

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٩-١١٣١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

انصِرافِهم عن عِبادتِه إلى جانبِ عِبادةِ غَيرِه، مع وُضوحِ فَسادِ إعراضِهم عن عِبادتِه[١]!

- وجِيءَ قولُه: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالبناءِ لِما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لإجمالٍ بسَببِ إعراضِهم؛ إذ سيُبيَّنُ بحاصلِ الجُملةِ بعْدَه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بمَنزلةِ التَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو التَّعجُّبُ مِن انصِرافِهم عن عِبادةِ ربِّهم؛ خالِقِهم وخالقِ كلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ في تَعليلِ ذلك ما يُبيِّنُ سَببَ التَّعجُّبِ، فجِيءَ في جانبِ المأْفوكِينَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تُومِئُ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ وعِلَّتِه، أي: أنَّ استِمرارَهم على الجحْدِ بآياتِ اللهِ دونَ تأمُّلٍ ولا تَدبُّرٍ في مَعانيها ودَلائلِها، يَطبَعُ نُفوسَهم على الانصِرافِ عن العِلمِ بوُجوبِ الوَحدانيَّةِ له تعالى؛ فالإشارةُ بـ (ذلك) إلى الإفْكِ المأخوذِ من فِعلِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، أي: مِثلَ إفْكِكُم ذلك يُؤفَكُ الَّذين كانوا بآياتِ اللهِ يَجْحَدون[٣].

- ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [غافر: ٦٢]، ويكونَ الموصولُ وصِلَتُه إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، والمعنى: كذلك تُؤفَكونَ، أي: مِثلَ إفْكِكُم تُؤفَكونَ، ويكونَ التَّشبيهُ مُبالَغةً في أنَّ إفْكَهم بلَغَ في كُنْهِ الإفكِ النِّهايةَ، بحيثُ لو أرادَ المُقرِّبُ أنْ يُقرِّبَه للسَّامعينَ بشَبيهٍ له، لم يَجِدْ شَبيهًا له أوضَحَ منه وأجْلى في ماهيَّتِه، فلا يَسَعُه إلَّا أنْ يُشبِّهَه بنفْسِه على الطَّريقةِ المألوفةِ المبيَّنةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٨).

قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبذلك تكونُ صِلةُ المَوصولِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إيماءً إلى عِلَّةِ إفْكِهم تَعليلًا صَريحًا.

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كلَّ مَن جحَدَ بآياتِ اللهِ مِن مُشْركي العرَبِ، ومِن غَيرِهم مِن المشركينَ والمكذِّبينَ، فيَصيرَ التَّعليلُ المُومأُ إليه بالصِّلةِ تَعليلًا تَعريضيًّا؛ لأنَّه إذا كان الإفكُ شأْنَ الَّذين يَجحَدون بآياتِ اللهِ كلِّهم، فقد شمِلَ ذلك هؤلاء بحُكْمِ المُماثَلةِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، وذِكرُ فِعلِ الكَونِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجحْدَ بآياتِ اللهِ شأْنُهم وهِجِّيراهم[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استِئنافٌ ثانٍ بِناءً على أنَّ اسمَ الجلالةِ مُبتدأٌ، والموصولَ صِفةٌ له، ويكونُ الخبرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أوْ يكونُ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً والموصولُ خَبَرًا، ولم تُعطَفْ هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعدادِ دَلائلِ انفرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ وبالإنعامِ عليهم؛ حتَّى يَفتضِحَ حُمقُهم وفسادُ رأيِهم في الإشراكِ به وكُفرانِ نِعَمِه، فذكَّرَهم في الآيةِ السَّابقةِ بآثارِ قُدْرتِه في إيجادِ الأعراضِ القائمةِ بجَواهرِ هذا العالَمِ، وهما عَرَضا الظُّلمةِ والنُّورِ، وفي كِلَيهما نِعَمٌ عَظيمةٌ على النَّاسِ، وذكَّرَهم في هذه الآيةِ بآثارِ خَلْقِ الجواهرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في هذا العالَمِ على كَيفيَّاتٍ هي نِعمةٌ لهم، وفي خلْقِ أنفُسِهم على صُوَرٍ صالحةٍ بهم. فأمَّا إنْ جُعِلَ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمُ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإنَّ جُملةَ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تكونُ مُستأْنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، والموصولُ وصِلَتُه يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً لاسمِ الجَلالةِ، فيكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وهو أَولى؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ إلهيَّتِه وحْدَه، بدَليلِ ما هو مُشاهَدٌ مِن إتقانِ صُنْعِه الممْزوجِ بنعمتِه، ويجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ خبَرًا، فيكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في الامتنانِ والاعتبارِ[١].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ استئنافٌ لِبَيانِ تَفضُّلِه تعالى المتعلِّقِ بالمكانِ، بعْدَ بَيانِ تَفضُّلِه المتعلِّقِ بالزَّمانِ[٢].

- ولَمَّا كان المقصودُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ -كما دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُمُ﴾- قُدِّمَت الأرضُ على السَّماءِ؛ لأنَّ الانتفاعَ بها مَحسوسٌ، وذُكِرَت السَّماءُ بعْدَها كما يُستحضَرُ الشَّيءُ بضِدِّه، مع قصْدِ إيداعِ دَلائلِ عِلمِ الهيئةِ لِمَن فيهم استعدادٌ للنَّظرِ فيها، وتَتبُّعِ أحوالِها على تَفاوُتِ المَدارِكِ، وتعاقُبِ الأجيالِ، واتِّساعِ العلومِ[٣].

- ووَصْفُ السَّماءِ بالبناءِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ جارٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ فقد جُعِلَت فوقَ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

العالَمِ، فهي كالبناءِ له، ونفْعُها كنَفْعِ البِناءِ(١).

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خلقَ اللهُ تعالى الإنسانَ خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه، وعبَّرَ عن هذا الخلْقِ بفِعلِ ﴿صُوَرَكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ خلْقٌ على صُورةٍ مُرادةٍ تُشعِرُ بالعِنايةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، فاقْتَضى حُسْنَ الصُّوَرِ؛ فلذلك عُدِلَ في جانبِ خلْقِ الإنسانِ عن فِعلِ الجَعلِ إلى فِعلِ التَّصويرِ بقولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ثمَّ صرَّحَ بما اقتَضاهُ فِعلُ التَّصويرِ من الإتقانِ والتَّحسينِ بقولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ، ودالَّةٌ على التَّعقيبِ، أي: أوجَدَ صُورةَ الإنسانِ فجاءت حَسَنةً. وعُطِف على هذه العِبرةِ والمِنَّةِ مِنَّةٌ أُخرى فيها عِبرةٌ، أي: خلَقَكم في أحسَنِ صُورةٍ، ثمَّ أمَدَّكُم بأحسَنِ رِزقٍ، فجمَعَ لكم بيْنَ الإيجادِ والإمدادِ(٢).

- ومَوقعُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ كمَوقعِ نَظيرِه المتقدِّمِ آنِفًا -وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢]- وإعادةُ هذا تَكريرٌ للتَّوقيفِ على فسادِ رأْيِهم في عِبادةِ غَيرِه على طَريقةِ التَّعريضِ؛ بقَرينةِ ما تقدَّمَ في نَظيرِه مِن قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، وقَرينةِ قولِه هنا: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٣) [غافر: ٦٥].

- وفُرِّعَ على ما ذُكِر مِن بَدائعِ صُنْعِه وجَزيلِ مَنِّه أنْ أُنشِئَ الثَّناءُ على اللهِ بما يُفيدُ اتِّصافَه بعَظيمِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾. وإظهارُ اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣١) و (٢٤/ ١٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٠، ١٩١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩١).

الجلالةِ معَ فِعلِ (تبارك) دونَ الإتيانِ بضَميرٍ مع تَقدُّمِ اسْمِه؛ لِتَكونَ الجُملةُ كلمةَ ثَناءٍ مُستقلَّةً[١].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا الوصْفُ مِن تَمامِ الإنشاءِ؛ لأنَّ في ذِكرِ رُبوبيَّتِه للعالَمينَ استِحضارًا لِما أفاضَهُ عليهم مِن خَيراتِ الإيجادِ والإمدادِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ استئنافٌ ثالثٌ؛ للارتِقاءِ في إثباتِ إلهيَّتِه الحقِّ بإثباتِ ما يُناسِبُها، وهو الحياةُ الكاملةُ؛ فهذه الجُملةُ مُقدِّمةٌ لِجُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بإثباتِ الحياةِ الواجبةِ لِذاتِه؛ فإنَّ الَّذي هو ربُّ العالَمينَ، وأوجَدَهم على أكمَلِ الأحوالِ، وأمَدَّهم بما به قِوامُهم على ممَرِّ الأزمانِ؛ لا جَرَمَ أنَّه مَوصوفٌ بالحياةِ الحقِّ؛ لأنَّ مُدبِّرَ المخلوقاتِ على طُولِ العصورِ يجِبُ أنْ يكونَ مَوصوفًا بالحياةِ، وهي الحياةُ الحقيقيَّةُ؛ لأنَّها غيرُ مُعرَّضةٍ للنَّقصِ ولا للزَّوالِ، فلذلك كان الحيُّ حَقيقةً هو اللهَ تعالى، كما أنبَأَتْ عنه صِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ لِعَدمِ الاعتِدادِ بحياةِ ما سِواهُ مِن الأحياءِ؛ لأنَّها عارِضةٌ ومُعرَّضةٌ للفَناءِ والزَّوالِ؛ فمَوقِعُ قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ كلَّ مَن سِواهُ لا حياةَ له واجبةٌ؛ فهو مُعرَّضٌ للزَّوالِ، فكيف يكونُ إلهًا مُدبِّرًا للعالَمِ[٤]؟!

- قولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بعْدَ اتِّضاحِ الدَّلالةِ على انفِرادِه تعالى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢، ١٩٣).

بالإلهيَّةِ، فُرِّعَ عليه الأمْرُ بعِبادتِه وحْدَه غيرَ مُشركين غيرَه في العِبادةِ؛ لِنُهوضِ انفِرادِه باستِحقاقِ أنْ يُعبَدَ[1].

- وتَقديمُ ﴿لَهُ﴾ المتعلِّقِ بكَلِمةِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على مَفعولِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ به؛ لأنَّه أشدُّ تعلُّقًا بمُتعلَّقِه مِن تَعلُّقِ المفعولِ بعامِلِه[2].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على اللهِ؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بفِعلِ ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ على تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، وقرينةُ المحذوفِ هو أنَّ مِثلَ هذه الجُملةِ ممَّا يَجْري على ألْسِنةِ النَّاسِ كثيرًا، فصارتْ كالمَثَلِ في إنشاءِ الثَّناءِ على اللهِ. ويجوزُ أنْ تكونَ كلامًا مُستأنَفًا أُرِيدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نفْسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحْمَدونه، أو جاريًا على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ويجوزُ أنْ يكونَ الحمْدُ مَصدرًا جِيءَ به بَدَلًا مِن فِعلِه على معنى الأمْرِ، أي: احْمَدوا اللهَ ربَّ العالَمينَ، وعُدِلَ به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصْدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[3].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مدَحَ نفْسَه سُبحانَه، وختَمَ ثلاثَ آياتٍ على التَّوالي بقولِه: (رَبِّ الْعَالَمِينَ) [٦٤، ٦٥، ٦٦]، وليس له في القُرآنِ نَظيرٌ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

الآيات (٦٦-٦٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

﴿عَلَقَةٍ﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾: بُلوغُ الأشُدِّ، أي: بُلوغُ مُنْتهَى الشَّبابِ والقُوَّةِ، أو: اشتِدادُ الجِسْمِ وقوَّتُه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتِهاءُ إلى أقصَى المَقصدِ والمُنتهَى، والأشُدُّ قيل: جمْعٌ لا واحدَ له، وقيل: مُفردُه شَدٌّ، وأصلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٥٤، ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤، ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُصرِّحَ للمشركينَ بأنَّه مَنْهيٌّ عن عبادةِ غيرِ الله: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ ما تَدْعُونَه من دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن رَبِّي، وأُمِرتُ أن أستَسلِمَ بالطَّاعةِ لِرَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه، وأنَّه لا يَستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سِواه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه الَّذي خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا، ثمَّ لِتَبلُغوا تمامَ قُوَّتِكم، ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ، ومِنكم مَن يموتُ قبْلَ ذلك، ولِتَبلُغوا أجَلًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، ولعَلَّكم تَعقِلونَ آياتِ اللهِ. وهو وَحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، فإذا قَضى سُبحانَه شَيئًا فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَكونُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ؛ قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فأورَدَ ذلك على المُشرِكينَ بألْيَنِ قَولٍ؛ لِيَصرِفَهم عن عبادةِ الأوثانِ، وبَيَّنَ أنَّ وَجْهَ النَّهيِ في ذلك ما جاءه مِنَ البَيِّناتِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الأمرَ بإخلاصِ العبادةِ لله وَحْدَه، وذكَرَ الأدِلَّةَ على ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٠).

والبيِّناتِ؛ صرَّحَ بالنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِواه[١].

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن عندِ رَبِّي دالَّةً على تَوحيدِه وصِفاتِ كَمالِه[٢].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: وأُمِرْتُ أن أنقادَ وأستَسلِمَ وأذِلَّ وأخضَعَ بالطَّاعةِ لخالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه ومُدَبِّره[٣].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ نبيَّه نُهِيَ عن عِبادةِ الأوثانِ، وأنَّه أُمِر بالاستِسلامِ لِلَّهِ تعالَى؛ بَيَّن أمْرَ الوحدانيَّةِ والألوهِيَّةِ الَّتي أصنامُهم عاريةٌ عن شَيءٍ منهما، بالاعتِبارِ في تدريجِ ابنِ آدَمَ بأنْ ذَكَر مَبدأَه الأوَّلَ، وهو مِن تُرابٍ، ثُمَّ أشارَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٥-٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧).

التَّناسُلِ بخَلْقِه مِن نطفةٍ[(١)].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي خَلَق أباكم آدَمَ -أيُّها النَّاسُ- مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ[(٢)].

كما قالَ اللهُ تبارَكَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أُمِّه أربَعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[(٣)].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: المرادُ بذِكرِ ابتِداءِ الخَلقِ هنا الدَّلالةُ على توحيدِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يَستَحِقُّ العِبادةَ سِواه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: للدَّلالةِ على البَعثِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

أي: ثُمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا[(١)].

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريج تَمامَ قُوَّتِكم وعُقولِكم[(٢)].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾.

أي: ثمَّ لِتكونوا كِبارًا في السِّنِّ ضُعَفاءَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣).

قال الشَّوكاني: (﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: أطفالًا، وأفرَدَه لِكَونِه اسمَ جِنسٍ، أو على معنى: يُخرِجُ كُلَّ واحِدٍ مِنكم طِفلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَبلُغوا أشُدَّكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٣).

قال البِقاعي: (ثمَّ يُدَرِّجُكم في مَدارجِ التَّربيةِ، صاعِدينَ بالقوَّةِ في أَوْجِ الكمالِ طَورًا بعد طَورٍ، وحالًا بعدَ حالٍ؛ لِتَبلُغوا أشُدَّكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠).

واللَّامُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: ثمَّ يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَكونوا شيوخًا. ويجوزُ عَطْفُه على ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣).

قال ابنُ سِيدَه: (الشَّيخُ: الَّذي استبانت فيه السِّنُّ، وظهَر عليه الشَّيبُ). ((المحكم)) (٥/ ٢٤٣).

وذهب النَّحَّاسُ وتَبِعَه القُرطبيُّ إلى أنَّ الشَّيخَ مَن جاوز أربعينَ سَنةً. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومِنكم مَن يموتُ قَبْلَ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحج: ٥].

= وذهب السَّمينُ الحلبيُّ وابنُ عاشور إلى أنَّ الشَّيخَ مَن بلَغ سِنَّ الخمسينَ إلى الثَّمانينَ. يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبلِ بُلوغِ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبي، والسمعاني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٩).

وقيل: مِن قَبلِ بُلوغِ الأشُدِّ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: مِن قبْلِ الشَّيخوخةِ بعدَ بُلوغِ الأشُدِّ أو قبْلَه أيضًا. وممَّن اختاره: أبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٨).

وقيل: مِن قَبلِ هذه الأحوالِ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يَموتُ قبْلَ أن يُخرَجَ طِفلًا، وآخَرونَ قبْلَ الأشُدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارةٌ تتردَّدُ في الأدراجِ المذكورةِ كلِّها؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يموتُ قبْلَ أن يخرجَ طفلًا، وآخَرونَ قبلَ الأشدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

أي: ولِتَبلُغوا زَمَنًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، لا تَتَجاوَزونَه، ولا تَتقَدَّمونَ عليه(١).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: ولِتَعقِلوا حُجَجَ اللهِ وآياتِه، فتُوَحِّدوه وتَعلَموا كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه، وغيرَ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه(٢).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى انتِقالَ الإنسانِ مِن كَونِه تُرابًا إلى كَونِه نُطفةً، ثمَّ إلى كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال السَّعدي: (﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ﴾ بهذه الأطوارِ المقدَّرةِ ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تنتهي عندَه أعمارُكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقال ابن عاشور: (قولُه: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ عَطفٌ على ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾، أي: للشَّيخوخةِ غايةٌ -وهي الأجَلُ المُسمَّى، أي: الموتُ- فلا طَورَ بعدَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٥).

قال البقاعي: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: فتَعلَموا بالمُفاوَتةِ بيْنَ النَّاسِ فيها ببَراهينِ المُشاهَدةِ بالتَّقليبِ في أطوارِ الخِلقةِ وأدوارِ الأسنانِ، وإرجاعِ أواخِرِ الأحكامِ على أوائِلِها: أنَّ فاعِلَ ذلك قادِرٌ مُختارٌ، حَكيمٌ قَهَّارٌ، لا يُشبِهُ شَيئًا، ولا يُشبِهُه شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١١٠، ١١١).

وقال السعدي: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالَكم، فتَعلمونَ أنَّ المُطَوِّرَ لكم في هذه الأطوارِ كامِلُ الاقتِدارِ، وأنَّه الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّكم ناقِصونَ مِن كلِّ وجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

عَلَقةً، ثمَّ إلى كَونِه طِفلًا، ثمَّ إلى بُلوغِ الأشُدِّ، ثمَّ إلى الشَّيخوخةِ، واستَدَلَّ بهذه التَّغَيُّراتِ على وُجودِ الإلهِ القادِرِ؛ قال بعدَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾، يعني: كما أنَّ الانتِقالَ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ أُخرى مِن الصِّفاتِ الَّتي تقَدَّمَ ذِكرُها يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ، فكذلك الانتِقالُ مِن الحياةِ إلى المَوتِ وبالعَكسِ يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رُتَبَ الإيجادِ، ذكَرَ أنَّه المتَّصِفُ بالإحياءِ والإماتةِ، وأنَّه متى تعَلَّقَت إرادتُه بإيجادِ شَيءٍ، أوْجَدَه مِن غيرِ تأخُّرٍ[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: اللهُ هو المُنفَرِدُ بالإحياءِ والإماتةِ؛ فلا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ سِواه[3].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: فإذا أراد اللهُ شَيئًا فإنَّما يقولُ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيَكونُ ما أرادَه[4].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير القنوجي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: بقَلبي ولِساني وجوارِحي، بحيثُ تكونُ مُنقادةً لِطاعتِه، مُستَسلِمةً لأمْرِه، وهذا أعظَمُ مَأمورٍ به على الإطلاقِ، كما أنَّ النَّهيَ عن عبادةِ ما سِواه أعظَمُ مَنهيٍّ عنه على الإطلاقِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ للقلبِ مِن حركةٍ؛ فإمَّا إلى باطلٍ، وإمَّا إلى حقٍّ؛ فقولُه: ﴿نُهِيتُ﴾ تفريغٌ، وهذا الفراغُ لا بُدَّ أنْ يكونَ له ما يَملَؤُه، فالباطلُ لا بُدَّ أن يَخلُفَه حقٌّ؛ لذا قال تعالى بعدَها: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

٢- الإشارةُ إلى القاعدةِ المشهورةِ؛ وهي أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ، التَّحليةُ يعني: التَّزيينَ، فقولُه: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه تخليةٌ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تحليةٌ، وهكذا كلمةُ الإخلاصِ «لا إلهَ» نفْيٌ «إلَّا اللهُ» إثباتٌ، الأوَّلُ تخليةٌ، والثَّاني تحليةٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمون أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بغيرِ أجَلِه، ومَقطوعٌ عليه حَياتُه[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بيانُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ للَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦١).

حاجَّه في ربِّه: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلا يُمكِنُ أنْ يُحييَ أحدٌ مَيِّتًا، ولا أنْ يُميتَ حيًّا، فإنْ قيلَ: أليس عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ كان يُحيي الموتَى؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ بإذنِ اللهِ؛ بنَفْسِ الآيةِ: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإنْ قيلَ: أليسَ الرَّجُلُ يَقتُلُ الآخَرَ -وهو حيٌّ- فيَموتُ؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ ما فَعَلَه هو سببُ الموتِ وليس هو الإماتةَ! وكثيرًا ما تُقْطَعُ أوداجُ الإنسانِ؛ ويُشَقُّ بطْنُه؛ ثمَّ يَبقَى حيًّا ويَحيا، فالحاصلُ أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ[(١)].

٥- قولُ البعضِ: «سُبحانَ مَن أَمْرُه بيْنَ الكافِ والنُّونِ» قولٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه سُبحانَه أَمْرُه بعدَ الكافِ والنُّونِ ﴿كُن﴾، فإنَّ الأمْرَ هنا بمعنى المأمورِ، أما إنْ كان الأمرُ الَّذي هو فِعْلُه -يعني: أَمْرَه- فهو قبْلَ الكافِ والنُّونِ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ قولَ اللهِ بحروفٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿كُن﴾؛ وهي كلمةٌ بحرفَينِ، ويكونُ قولُه بصوتٍ مَسموعٍ[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّه ليس بيْنَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكوُّنِه تَراخٍ؛ بل يكونُ على الفوريَّةِ؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾[(٤)]، فالفاءُ للتَّعقيبِ تدُلُّ على أنَّه يكونُ عَقِبَ قولِه: (كُنْ) سواء لا يَتأخَّرُ عنه[(٥)].

٨- احتجَّ كثيرٌ مِن السَّلَفِ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢٢٦).

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فلو كان ﴿ كُن ﴾ مَخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المَخلوقاتِ؛ لأنَّ ﴿ كُن ﴾ تكونُ مَخلوقةً بـ ﴿ كُن ﴾ أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[(١)]!

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ أدلَّةِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةِ الآياتِ الكَونيَّةِ والنَّفْسيَّةِ؛ لِيَجْرُوا على مُقْتَضاها في أنفُسِهم بأنْ يَعبُدوا اللهَ وحْدَه، فانتُقِلَ إلى تَقريرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ بخبَرِ الوحْيِ الإلهيِّ بإبطالِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعمَلَ بذلك في نفْسِه، ويُبلِّغَ ذلك إليهم، فيَعلَموا أنَّه حُكْمُ اللهِ فيهم، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في الغَفْلةِ عنها، أو عَدَمِ إتقانِ النَّظرِ فيها، أو قُصورِ الاستِنتاجِ منها بعْدَ أنْ جاءَهُم رسولٌ مِن اللهِ يُبيِّنُ لهم أنواعًا بمُختلَفِ البَيانِ مِن أدلَّةٍ بُرهانيَّةٍ وتَقريبيَّةٍ إقناعيَّةٍ؛ فكان قولُه: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ إبطالًا لِعِبادةِ غَيرِ اللهِ بالقولِ الدَّالِّ على التَّحذيرِ والتَّخويفِ بعْدَ أنْ أُبطِلَ ذلك بدَلالةِ الحُجَّةِ على المقصودِ، وهذه دَلالةٌ كِنائيَّةٌ؛ لأنَّ النَّهيَ يَستلزِمُ التَّحذيرَ[(٢)].

- ومعنى الدُّعاءِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ الدُّعاءِ، وهو القولُ الَّذي تُسأَلُ به حاجةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى تَعبُدون؛ فيَكونَ

---

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٥).

العُدولُ عن أنْ يَقولَ: (أنْ أعبُدَ الَّذين تَعبُدون) تَفنُّنًا[(١)].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ ذِكرُ مَجيءِ البَيِّناتِ في أثناءِ هذا الخبَرِ إشارةٌ إلى طُرقٍ أُخرى مِن الأدِلَّةِ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ تَكرَّرتْ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ. وكان تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو ضَميرُ ﴿إِنِّي﴾- على الخبَرِ الفِعليِّ؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ، نحوُ: هو يُعْطي الجزيلَ[(٢)].

- والمقصودُ مِن إسنادِ المنْهيَّةِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: التَّعريضُ بنَهْيِ المشركينَ؛ فإنَّ الأمْرَ بأنْ يقولَ ذلك لا قصْدَ منه إلَّا التَّبليغُ لهم، وإلَّا فلا فائدةَ لهم في الإخبارِ بأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَنْهيٌّ عن أنْ يَعبُدَ الَّذين يَدْعُون مِن دونِ اللهِ، يعني: فإذا كنتُ أنا مَنهيًّا عن ذلك، فتأمَّلوا في شأْنِكم، واستَعْمِلوا أنْظارَكم فيه؛ لِيَسوقَهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ سَوقًا لَيِّنًا خَفيًّا؛ لاتِّباعِه فيما نَهى عنه[(٣)].

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ للنَّائبِ؛ لِظُهورِ أنَّ النَّاهيَ هو اللهُ تعالى، بقَرينةِ مَقامِ التَّبليغِ والرِّسالةِ[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ جُعِلَ المجرورُ بحرْفِ (مِن) وَصْفَ (رب) مُضافًا إلى ضَميرِ المتكلِّمِ دونَ أنْ يُجعَلَ مَجرورُها ضَميرًا يَعودُ على اسمِ الجلالةِ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لِتَربيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

المهابةِ في نُفوسِ المُعرَّضِ بهم؛ لِيَعلَموا أنَّ هذا النَّهيَ ومَجِيءَ البَيِّناتِ هو مِن جانبِ سيِّدِه وسَيِّدِهم، فما يَسَعُهم إلَّا أنْ يُطيعوه؛ ولذلك عزَّزَه بإضافةِ الرَّبِّ إلى الجميعِ في قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ربِّكم وربِّ غَيرِكم، فلا مُنصرَفَ لكمْ عن طاعتِه[1].

- وقال هنا: ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقُلْ: أنْ أُسلِمَ للهِ؛ لِيَكونَ ذلك دليلًا على وَجهِ الإسلامِ، كأنَّه قِيل: لماذا أسلمْتَ؟ فقال: لأنَّ اللهَ ربُّ العالَمينَ، وربُّ العالَمينَ أحَقُّ أن يُسلَمَ له، وأنْ يُتعبَّدَ له عزَّ وجلَّ؛ فهو كالدَّليلِ للحُكْمِ السَّابقِ الَّذي هو الإسلامُ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ تَكوُّنِ البدَنِ، وهو استِئنافٌ رابعٌ بعْدَ استئنافِ جُملةِ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ [غافر: ٦٥] وما تَفرَّعَ عليها، وكلُّها ناشئٌ بعضُه عنْ بَعضٍ، وهذا الامتِنانُ بنِعمةِ الإيجادِ، وهو نِعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ، والمعدومُ لا عِنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ على الإبداعِ[3].

وقيل: قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ من تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]؛ ولذلك اكتُفِيَ بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الجامعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٤).

ولم يُؤتَ باسمِ الإشارةِ أو بما يَقومُ مَقامَه مِن الضَّميرِ؛ لانْبناءِ التَّوحيدِ عليه، لكنْ فيه اعتناءٌ بدَليلِ الأنفُسِ؛ لِذِكْرِه أوَّلًا مُجمَلًا، ثمَّ مُفصَّلًا ثانيًا(١).

- واللَّاماتُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ وما عُطِفَ عليه بـ (ثمَّ) مُتعلِّقاتٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: ثم يُبْقيكم، أو ثمَّ يُنشِئُكم لِتَبْلُغوا أشُدَّكم، وهي لاماتُ التَّعليلِ مُستعمَلةٌ في مَعنى (إلى)؛ لأنَّ الغايةَ المقدَّرةَ مِن اللهِ تُشبِهُ العلَّةَ فيما يُفْضي إليها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، أي: إنَّ مِن جُملةِ ما أرادهُ اللهُ مِن خلْقِ الإنسانِ على الحالةِ المبيَّنةِ أنْ تكونَ في تلك الخِلْقةِ دَلالةٌ لآحادِه على وُجودِ هذا الخالقِ البديعِ، وعلى انفرادِه بالإلهيَّةِ، وعلى أنَّ ما عداهُ لا يَستحِقُّ وصْفَ الإلهيَّةِ، فمَن عقَلَ ذلك مِن النَّاسِ فقدِ اهْتَدى إلى ما أُريدَ منه، ومَن لم يَعقِلْ ذلك فهو بمَنزلةِ عَديمِ العقْلِ، ولأجْلِ هذه النُّكتةِ لم يُؤتَ لِفعلِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بمَفعولٍ، ولا بمَجرورٍ؛ لأنَّه نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ لكم عُقولٌ؛ فهو مُرادٌ للهِ مِن ذلك الخلْقِ، فمِن حِكمتِه أنْ جعَلَ ذلك الخلْقَ العجيبَ عِلَّةً لأُمورٍ كثيرةٍ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استِئنافٌ خامسٌ، ومُناسَبةُ مَوقعِه مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ إلى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ مِن أوَّلِ ما يُرْجَى أنْ يَعقِلوه هو ذلك

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧، ١٩٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٨، ١٩٩).

التَّصرُّفُ البديعُ بخلْقِ الحياةِ في الإنسانِ عندَ تَكوينِه بعْدَ أنْ كان جُثَّةً لا حَياةَ فيها، وخلْقِ الموتِ فيه عِندَ انتِهاءِ أجَلِه بعْدَ أنْ كان حيًّا مُتصرِّفًا بقُوَّتِه وتَدبيرِه[1].

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ المقصودُ منه الامتِنانُ بالحياةِ تَبَعًا لقولِه قبْلَ هذا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وفُرِّعَ على هذا الخبرِ إخبارٌ بأنَّه إذا أراد أمْرًا مِن أُمورِ التَّكوينِ مِن إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو غيرِهما؛ فإنَّه يَقدِرُ على فِعلِه دونَ تَردُّدٍ ولا مُعالَجةٍ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ فاءُ تَفريعِ الإخبارِ بما بعْدَها على الإخبارِ بما قبْلَها[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ
وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْأَغْلَالُ﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو القَيدُ الَّذي يُوضَعُ في العُنُقِ، وأصلُه يدُلُّ على تَدرُّعِ الشَّيءِ وتَوسُّطِه[1].

﴿الْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[2].

﴿يُسْجَرُونَ﴾: أي: يُطرَحونَ فيها فيَكونونَ وَقودًا لها، والسَّجْرُ: مَلءُ النَّارِ بالوَقودِ لِتَقويتِها وتَهييجِها، وأصلُ (سجر) هنا: يدُلُّ على إيقادٍ[3].

﴿تَمْرَحُونَ﴾: المَرَحُ: شِدَّةُ الفَرَحِ، والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يستقِرُّ معها طَرَبًا[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤). =

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِلُ، ومقامُ، ومَسكنُ، ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ معَ الاستقرارِ، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في رَفعِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿الْأَغْلَالُ﴾، وأخبَرَ عن النَّوعَينِ بالجارِّ، فالجارُّ في نيَّةِ التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: إذ الأغلالُ والسَّلاسِلُ في أعناقِهم. الثَّاني: أنَّه مُبتدأٌ وخَبَرُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ عليه. الثَّالِثُ: أنَّه مُبتَدأٌ خبَرُه جُملةُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والعائِدُ على المُبتَدأِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: والسَّلاسِلُ يُسحَبونَ بها. و﴿يُسْحَبُونَ﴾ مَرفوعُ المحلِّ على هذا الوَجهِ، وأمَّا في الوَجهَيْنِ المتقدِّمَينِ فيَجوزُ فيه النَّصبُ على الحالِ مِن الضَّميرِ المَنْوِيِّ في شِبْهِ الجُملةِ ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستأنَفًا لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه عمَّا أصابَه مِن المشركينَ، ومُبيِّنًا سوءَ عاقبتِهم: ألَمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُشركي قَومِك الَّذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ: كيفَ يُصرَفونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ؟! أولئكَ هم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وبالَّذي أرسَلْنا به رُسُلَنا

= قال ابن عاشور: (الفرَحُ: المَسَرَّةُ ورِضا الإنسانِ على أحوالِه، فهو انفعالٌ نفْسانيٌّ. والمَرَحُ ما يَظهَرُ على الفارحِ مِن الحَرَكاتِ في مَشْيِه ونَظَرِه، ومُعامَلتِه معَ النَّاسِ، وكَلامِه وتكَبُّرِه؛ فهو هَيئةٌ ظاهِريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٩٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٧٣).

مِنَ التَّوحيدِ، والبَعثِ، وغَيرِ ذلك؛ فسوفَ يَعلَمونَ حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُسحَبونَ في ماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، ثمَّ في النَّارِ يُطرَحونَ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم!

ثمَّ يُقالُ لهم: أينَ آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعَلونَها شُرَكاءَ للهِ؟! قالوا: غابُوا عنَّا، بل لم نكُنْ نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دُونِ اللهِ، كذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، وأنَّه يُقالُ لهم: ذَلِكم بسَبَبِ فَرَحِكم في الدُّنيا بالباطِلِ في أَشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ؛ فادخُلوا أبوابَ جهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبَدًا، فبِئْسَ مَنزِلُ المتكبِّرينَ عن الحَقِّ: جَهنَّمُ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عُلِمَ مِن قَولِ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨] أنَّه تعالى لا كُلفةَ عليه في شَيءٍ مِن الأشياءِ بهذه الأُمورِ المُشاهَدةِ في أنفُسِهم وفي الآفاقِ؛ أنتَجَ التَّعجُّبَ مِن حالِهم لِمَن له الفَهمُ الثَّاقِبُ والبَصيرةُ الوقَّادةُ[١].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: أَلَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ؛ فتَعْجَبَ كيف تُصرَفُ عُقولُهم عن الحَقِّ إلى الباطِلِ[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٨-٤٨٠).

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾.

أي: وهم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وكَذَّبوا بالَّذي أُرسِلَ به رُسُلُ اللهِ مِنَ الهدَى والبيانِ؛ كإخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

قال الشوكاني: (والمرادُ ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾: إمَّا القرآنُ، أوْ: جِنسُ الكتبِ المنزَّلةِ من عندِ اللهِ، وقولُه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾، ويُرادُ به ما يوحَى إلى الرُّسلِ مِن غيرِ كتابٍ إنْ كانَت اللَّامُ في الكتابِ للجنسِ، أو سائرُ الكُتُبِ إنْ كان المرادُ بالكتابِ: القرآنَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جُمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

والمرادُ بالرُّسُلِ هنا: جِنسُ الرُّسلِ. وقيل: المرادُ بالرُّسُلِ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن سائرِ الكتبِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن الهدَى والبيانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يقولُ: وكذَّبوا أيضًا -معَ تكذيبِهم بكتابِ اللهِ- بما أرسَلْنا به رُسلَنا مِن إخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ من دونِه من الآلهةِ والأندادِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ للثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّها في الكفَّارِ المجادِلينَ في رسالةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، والكتابِ =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمُون عاقِبةَ أمْرِهم(١).

كما قال الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦].

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمونَ ذلك حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُجَرُّونَ إهانةً وتَعذيبًا لهم(٢)!

كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا

= الَّذي جاءَ به، بدليلِ قولِه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾، ثُمَّ هَدَّدهم بقولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا قولُ الجمهورِ. وقال محمَّدُ بنُ سِيرينَ وغيرُه: هي إشارةٌ إلى أهلِ الأهواءِ مِن الأُمَّة). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

وقال الشوكاني: (﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالقرآنِ، وهذا وصْفٌ لا يَصِحُّ أنْ يُطْلَقَ على فِرْقةٍ مِن فِرَقِ الإسلام). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: فسوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ، المكَذِّبونَ بالكِتابِ حقيقةَ ما تُخبِرُهم به يا محمَّدُ، وصِحَّةَ ما هم به اليَومَ مُكَذِّبونَ من هذا الكتابِ، حينَ تُجعَلُ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقِهم في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٣-٤٨٥).

فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾.

أي: يُسحَبونَ في الماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، وانتَهى حَرُّه(١).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

أي: ثُمَّ يُطرَحونَ في النَّارِ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ: يُسحَبون في الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).
قال الشوكاني: (يُقالُ: سَجَرْتُ التَّنُّورَ: أي: أوقَدْتُه، وسَجرْتُه: ملأْتُه بالوَقودِ...، فالمعنَى: تُوقَدُ بهم النَّارُ، أو تُملأُ بهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).
ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ، أي: تُوقَدُ بهم النَّارُ: الثعلبيُّ، وابنُ أبي زمَنين، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ...﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم: أين آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعلونَها شُرَكاءَ للهِ في عِبادتِه؛ لِتُنقِذَكم اليومَ مِن العَذابِ[(١)]؟!

﴿...قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

أي: قالوا: غابُوا عنَّا، فتَرَكونا في العَذابِ، ولم يَنفَعونا بشَيءٍ[(٢)].

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: بل لم نَكُنْ أصلًا نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دونِ اللهِ[(٣)]!

= وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ وأنَّه مِن سَجَرَ التَّنُّورَ؛ إذا ملأه بالوقودِ، فمعناه: أنَّهم في النَّارِ وهم مَسجورونَ بالنَّارِ، مَملوءةٌ بها أجوافُهم: الزمخشريُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٧، ٤٨٨).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ إنكارُهم لِوُقوعِ الشِّركِ منهم أصلًا: ابنُ عطيَّة، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين، وذكره السعدي احتمالًا. يُنظر: المصادر السابقة.

وهو أيضًا اختيارُ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، والشنقيطي، يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨) و (٣/ ٥١٠).

وقد ذكر الشنقيطيُّ هذه الآيةَ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، وقولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولَه: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، ثمَّ قال: (فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكفرِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٧٦).

قال ابن عثيمين: (فهؤلاء أنكروا، كذَبوا على أنفُسِهم، ظَنُّوا أنَّ هذا سيَنفَعُهم، كما لو أنَّ الجانيَ في الدُّنيا أنكَر جنايتَه رُبَّما يَنفَعُه ذلك، لكنْ في الآخرةِ لا يَنفعُ، حتَّى إذا أنكَروا خُتِم على أفواهِهم، فتَتكلَّمُ الأيدي والأرجُلُ والجُلودُ والألسُنُ بما تَعملُ، وحينَئذٍ لا يَستطيعون حِيلةً ولا يَهتدونَ سبيلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٨، ٤٨٩).

وقيل: المعنى: بل لم نكُنْ نَعبُدُ مِن قَبْلُ في الدُّنيا شَيئًا مُستَحِقًّا للعبادةِ؛ فيَنفَعَنا، بل كانت عبادتُنا لغَيرِ اللهِ باطِلةً ضائِعةً لا تَنفَعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، واستظهره السعدي، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (أضرَبوا عن قَولِهم: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدعو شيئًا يُغْني عنَّا؛ فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجعٌ إلى نَفيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به، كما تقولُ: حَسِبتُ أنَّ فُلانًا شَيءٌ فإذا هو ليس بشَيءٍ! إن كُنتَ خَبَرْتَه فلم تَرَ عِندَه خيرًا. وفي الحديثِ: سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال: «لَيْسوا بشَيءٍ» [البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨)]، أي: ليسوا بشَيءٍ مُعتَدٍّ به فيما يَقصِدُهم النَّاسُ لأجْلِه... إذ ليس المعنى على إنكارِ أن يَكونوا عَبَدوا شيئًا؛ لِمُنافاتِه لِقَولِهم: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ المُقتضي الاعترافَ الضِّمنيَّ بعبادتِهم. وفَسَّر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ قَولَهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أنَّه إنكارٌ لعبادةِ الأصنامِ بعدَ الاعترافِ بها؛ لاضطرابِهم مِنَ الرُّعبِ، فيكونُ مِن نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ويجوزُ أن يكونَ لهم في ذلك الموقِفِ مَقالانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أَنفُسِهِمْۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: كهذا الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم[١].

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذَلِكم[٢] بسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَفرَحونَ بالباطِلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((حاشية الخفاجي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قال الألوسي: (معنى هذا: مِثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ تعالى في الدُّنيا الكافِرينَ، حتى إنَّهم يَدْعُونَ فيها ما يَتبَيَّنُ لهم أنَّه ليس بشَيءٍ، أو: مِثلَ ضَلالِ آلهتِهم عنهم في الآخِرةِ نُضِلُّهم عن آلهتِهم فيها، حتَّى لو طلَبوا الآلِهةَ وطلَبَتْهم لم يَلْقَ بعضُهم بعضًا، أو: مِثلَ ذلك الضَّلالِ وعَدَمِ النَّفعِ يُضِلُّ اللهُ تعالى الكافِرينَ، حتَّى لا يَهتَدوا في الدُّنيا إلى ما يَنفَعُهم في الآخِرة. وفي «المجمَع»: كما أضلَّ اللهُ تعالى أعمالَ هؤلاءِ وأبطَلَ ما كانوا يُؤَمِّلونَه، كذلك يَفعَلُ بأعمالِ جميعِ مَن يَتدَيَّنُ بالكُفرِ، فلا يَنتَفِعونَ بشَيءٍ منها، فإضلالُ الكافِرينَ على معنى إضلالِ أعمالِهم، أي: إبطالِها. ونُقِلَ ذلك عن الحَسَنِ، وقيل في معناه غيرُ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: ذَلِكم العَذابُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: ذَلِكم الإضلالُ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جريرٍ، والقاسِميُّ في قولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغيرِ ما أذِنَ لكم به مِن الباطِلِ =

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

أي: وبِسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا في أشَرٍ وبطَرٍ واختيالٍ وزَهْوٍ بالباطِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا[(٢)].

= والمعاصي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠).

وقال الألوسي: (﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشِّركُ والمعاصي، أو بغيرِ استحقاقٍ لذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

وقال الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنسفيُّ: هو الشِّركُ وعِبادةُ الأوثانِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

وقال البيضاوي والعُلَيمي وأبو السعود: هو الشِّركُ والطُّغيانُ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال السعدي: (﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كُلٌّ بطَبَقةٍ مِن طَبَقاتِها، على قَدْرِ عَمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي: فبِئْسَ مَنزِلُ الَّذين تكبَّروا عن الحَقِّ: جَهنَّمُ يُقيمونَ فيها إقامةً دائِمةً[١]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُصْرَفُ عن الحقِّ مع بيانِه ووُضوحِه، وهذا يُؤدِّي إلى فائدةٍ أخرَى، وهي خَوفُ الإنسانِ مِن أنْ يُصرَفَ عن الحقِّ، ويَنتِجُ عن ذلك فائدةٌ ثالثةٌ: وهو سؤالُ الإنسانِ ربَّه دائمًا أنْ يُثبِّتَه، ولهذا كان مِن دعاءِ المؤمنينَ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، فيَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ دائمًا على خَوفٍ؛ وأنْ يَسألَ اللهَ الثَّباتَ دائمًا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يُشعِرُ أنَّ السُّرورَ لا يَنبغي إلَّا إذا كان مع كَمالِ هذه الحَقيقةِ، وهي الثَّباتُ دائِمًا للمَفروحِ به، وذلك لا يَكونُ إلَّا في الجَنَّةِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ هذا هو الفَرَحُ المذمومُ الموجِبُ للعِقابِ، بخِلافِ الفَرَحِ المَمدوحِ الَّذي قال اللهُ فيه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفَرَحُ بالعِلمِ النَّافِعِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨).

والعَمَلِ الصَّالِحِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ أحدٌ في قلبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن كِبْرياءَ))[٢]، فالكِبْرُ -والعياذُ باللهِ- سببٌ لدُخولِ النَّارِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ عَطَفَها على قَولِه: ﴿بِالْكِتَابِ﴾ بإعادةِ العامِلِ؛ لإفادةِ استِقلالِ المعطوفِ عن المَعطوفِ عليه؛ لأنَّه ليس تابعًا له مِن كلِّ وجهٍ، بدَليلِ إعادةِ العامِلِ؛ فقَولُه: ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ ما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ كأنَّه مُستَقِلٌّ عنِ الكِتابِ؛ ولهذا كانتِ السُّنَّةُ بمَنزِلةِ الكِتابِ في الدَّلالةِ، ووُجوبِ العَمَلِ بها[٤]، وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رُسُلَنَا﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُفيدُ أنَّ مِمَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَواعِظَ وإرشادًا كَثيرًا ليس مِنَ القُرآنِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ فيه أنَّ هؤلاء المكذِّبين بالكتابِ وبما أرسلَ اللهُ به الرُّسُلَ يُعَذَّبُون عذابًا جسديًّا بالسَّلاسِلِ والأغلالِ والسَّحْبِ في النَّارِ؛ ويُعَذَّبون عذابًا قلبيًّا بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّنديمِ؛ فيُقالُ: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُضِلُّ الكافرَ لِكُفْرِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصْفٍ كان ذلك الوصفُ عِلَّةً له، فالَّذي عُلِّقَ على الكفرِ هنا الإضلالُ، إذًا الكفرُ سببٌ للإضلالِ، ويؤيِّدُ هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّ الضَّالَّ إذا ضَلَّ فإنَّه هو السَّببُ في ضلالِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لو عَلِمَ فيه خيرًا لَأسْمَعه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ القَدَريَّةَ يَقولونَ: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مَخلوقةً للهِ سُبحانَه وتعالى، ولا عَلاقةَ للهِ بها! لكِنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الَّذي يُضِلُّهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الشَّارِعَ يَذكُرُ العِلَلَ والأوصافَ المؤَثِّرةَ والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعلُّقِ الحُكمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لِمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ الفَرَحَ بغيرِ الحقِّ سببٌ للعذابِ والإضلالِ[٤]، وأنَّ الفَرَحَ بالحقِّ محمودٌ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرحُ بالحقِّ محمودٌ، والفرحُ بغيرِ الحقِّ مذمومٌ، والفرحُ بما ليس حقًّا ولا باطلًا ليس محمودًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

ولا مذمومًا؛ لأنَّه مِن اللَّغْوِ، ولكنَّ عبادَ الرَّحمنِ إذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرامًا[١].

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الأسبابَ تَتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يَرِدُ على الشَّيءِ سَببانِ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمَرَحُ أشدُّ الفَرَحِ، وهكذا الأسبابُ الشَّرعيَّةُ تتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يكونُ في الإنسانِ سَبَبانِ، كلُّ واحِدٍ منهما يُوجِبُ الحُكمَ، فإذا اجتَمَعا صار كُلُّ واحِدٍ يقَوِّي الآخَرَ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ انصِرافِهم عن الإيمانِ، بعدَ تلك الدَّلائلِ البَيِّنةِ[٣]، وتمهيدٌ لما يعقُبُه مِن بيانِ تكذيبِهم بكلِّ القُرآنِ وبسائرِ الكتبِ والشرائعِ، وترتيبُ الوعيدِ على ذلكَ[٤].

وسَجَّلَ على جَهالَتِهم وصَرْفِهم عن الطَّريقِ الحقِّ، مع قِيامِ تلك الحُجَجِ القاطِعةِ والبَراهينِ السَّاطِعةِ بقولِه: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾[٥].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُجَادِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ المُجادَلةِ وتَكرُّرِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٧).

ثمَّ ذكَر أنَّه إذا اجتَمَع سببانِ، واختَلَف موجَبُهما؛ أخَذْنا بموجَبِ كلٍّ منهما ما لم يكُنْ أحدُهما أقوَى، فيُؤخَذُ بالأقوَى، فالرَّجلُ إذا ماتَتْ زوجتُه، وكانتْ ابنةَ عمِّه اجتمَع في حقِّه النِّصفُ فرضًا، والباقي تعصيبًا، فيرِثُ بالفرضِ والتَّعصيبِ مع توفُّرِ الشُّروطِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وتكريرُ ذمِّ المُجادَلةِ لِتَعدُّدِ المجادِلِ -بأن يكونَ المجادِلُ هناك قومًا، وهنا قومًا آخرينَ-، أو المجادَلِ فيه -بأنْ يُحمَلَ في كلٍّ على معنًى مناسبٍ؛ ففيما مرَّ في البعثِ وهنا في التَّوحيدِ-، أو هو للتأكيدِ؛ اهتمامًا بشأنِ ذلك[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ، وهو مَنْفيٌّ لَفظًا، والمرادُ به التَّقريرُ على الإثباتِ، و(أنَّى) بمعنى (كيف)، وهي مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ، أي: أرأيتَ عَجيبَ انصِرافِهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ بصارفٍ غيرِ بَيِّنٍ مَنْشَؤه؟! ولذلك بُنيَ فِعلُ (يُصرَفون) للنَّائبِ؛ لأنَّ سَببَ صَرْفِهم عن الآياتِ ليس غيرَ أنفُسِهم، ويجوزُ أنْ تكونَ (أنَّى) بمعنى (أين)، أي: ألَا تَعجَبُ مِن أين يَصرِفُهم صارفٌ عن الإيمانِ حتَّى جادَلوا في آياتِ اللهِ، مع أنَّ شُبَهَ انصِرافِهم عن الإيمانِ مُنتفيةٌ بما تَكرَّرَ مِن دَلائلِ الآفاقِ وأنفُسِهم، وبما شاهَدوا من عاقبةِ الَّذين جادَلوا في آياتِ اللهِ ممَّن سبَقَهم؟! وهذا كما يقولُ المُتعجِّبُ مِن فِعلِ أحدٍ: أين يُذهَبُ بك؟! وبناءُ فِعلِ ﴿يُصْرَفُونَ﴾ للمَجهولِ على هذا الوجْهِ للتَّعجيبِ مِن الصَّارفِ الذي يَصرِفُهم، وهو غيرُ كائنٍ في مَكانٍ غيرِ نُفوسِهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- وُصِلَ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالتَّكذيبِ دُونَ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُعتادَ وُقوعُ المُجادَلةِ في بَعضِ الموادِّ لا في الكُلِّ. وصِيغةُ الماضي ﴿كَذَّبُوا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وعَطْفُ قوله: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على أصْلِ العطْفِ مُقتضيًا المُغايرَةَ؛ فيَكونَ المرادُ: كذَّبوا بما أرسَلْنا به رُسُلَنا مِن الكُتبِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ، فيَكونَ تَكذيبُهم ما أُرسِلَت به الرُّسلُ مُرادًا به تَكذيبُهم جميعَ الأديانِ. ويَحتمِلُ أنَّه أُرِيدَ به التَّكذيبُ بالبَعثِ؛ فلعلَّهم لَمَّا جاءَهُم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإثباتِ البَعثِ سَألوا عنه أهلَ الكِتابِ، فأثْبَتوه، فأنكَرَ المشْرِكون جميعَ الشَّرائعِ لذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفَ مُرادفٍ، فائدتُه التَّوكيدُ، والمرادُ بـ﴿رُسُلَنَا﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وتَفرَّعَ على تَكذيبِهم وَعيدُهم بما سَيلْقَونَه يومَ القِيامةِ، فقيل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونه، وعُبِّر عن وِجْدانِهم العذابَ بالعِلمِ به بمُناسَبةِ استِمرارِهم على جَهْلِهم بالبعثِ، وتَظاهُرِهم بعَدمِ فَهمِ ما يقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فأُنْذِروا بأنَّ ما جَهِلوه سيَتحقَّقونَه يومَئذٍ(٢).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ عليه، أي: يَتحقَّقون ما كذَّبوا به(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ (إذ) ظَرْفٌ لـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وهو ظَرْفٌ لِما مَضَى؛ فلا يَعمَلُ فيه المستقبلُ، فلا يصِحُّ أنْ يُقالَ: سأقومُ أمْسِ. ولَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٢).

كان وُقوعُ معنى الجُملةِ سيَقَعُ في الآخِرةِ على الاستِقبالِ؛ كان استخدامُ (إذ) الدَّالَّةِ على الماضِي للدَّلالةِ على تيقُّنِ حُدوثِه؛ لأنَّه لَمَّا كانتِ الأمورُ المُستقبَلةُ في أخبارِ اللهِ تعالى مُتيَقَّنةً مَقطوعًا بها؛ عُبِّرَ عنها بلَفظِ ما كان ووُجِدَ، والمعنى على الاستِقبالِ(١).

- و(ثُمَّ) عاطفةٌ جملةَ ﴿فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾، وشأنُ (ثُمَّ) إذا عطَفَت الجُمَلَ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ وذلك أنَّ احتِراقَهم بالنَّارِ أشدُّ في تَعذيبِهم مِن سَحْبِهم على النَّارِ؛ فهو ارتِقاءٌ في وَصْفِ التَّعذيبِ الَّذي أُجمِلَ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّجرُ بالنَّارِ حاصلٌ عقِبَ السَّحبِ، سواءٌ أكان بتَراخٍ أمْ بدونِه(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ السَّجرُ: مَلْءُ التَّنُّورِ بالوقودِ؛ لِتَقويةِ النَّارِ فيه، وهذا يُفيدُ أنَّهم في النَّارِ، فهي مُحيطةٌ بهم، وهم مَسْجورون بالنَّارِ مَملوءةٌ بها أجوافُهم، والمرادُ أنَّهم يُعذَّبون بأنواعٍ مِن العذابِ، ويُنقَلون مِن بعضِها إلى بعضٍ. وإسنادُ فِعلِ ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ إلى ضَميرِهم أُريدَ به المبالَغةُ في تَعلُّقِ السَّجْرِ بهم(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ (ثُمَّ) هذه للتَّراخي الرُّتبيِّ لا مَحالةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

لأنَّ هذا القولَ يُقالُ لهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ؛ بدَليلِ أنَّ ممَّا وقَعَ في آخِرِ القَولِ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ودُخولُ أبوابِ جهنَّمَ قبْلَ السَّحبِ في حَميمِها والسَّجرِ في نارِها. وهذا القِيلُ ارتِقاءٌ في تَقريعِهم وتَوبيخِهم، وإعلانِ خَطَلِ[١] آرائِهم بيْنَ أهْلِ المحشَرِ، وهو أشدُّ على النَّفْسِ مِن ألَمِ الجِسْمِ، ولأنَّ هذا القولَ مُقدِّمةٌ لِتَسليطِ العذابِ عليهم؛ لاشتِمالِه على بَيانِ سَببِ العذابِ؛ مِن عِبادةِ الأصنامِ، وازْدهائِهم في الأرضِ بكُفْرِهم ومَرَحِهم، وهو أيضًا ارتِقاءٌ في وَصفِ أحوالِهم الدَّالَّةِ على نكالِهم؛ إذ ارْتَقى مِن صِفةِ جَزائِهم على إشْراكِهم -وهو شَيءٌ غيرُ مُستغرَبٍ تَرتُّبُه على الشِّركِ- إلى وَصفِ تَحقيرِهم آلهتَهم الَّتي كانوا يَعبُدونها، وذلك غَريبٌ مِن أحوالِهم وأشدُّ دَلالةً على بُطلانِ إلهيَّةِ أصْنامِهم، وهو المَقصدُ المهمُّ مِن القَوارعِ الَّتي سُلِّطَت عليهم في هذه السُّورةِ[٢].

- وصِيغَ ﴿قِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الغَلَطِ والفضيحةِ في الموقفِ؛ فإنَّهم كانوا يَزْعُمون أنَّهم يَعبُدون الأصنامَ لِيَكونوا شُفعاءَ لهم مِن غضَبِ اللهِ، فلمَّا حَقَّ عليهم العذابُ، فلمْ يَجِدوا شُفعاءَ؛ ذُكِّروا بما كانوا يَزْعُمونه، فقِيل لهم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فابْتَدَروا بالجوابِ قبْلَ انتِهاءِ المقالةِ؛ طَمَعًا في أنْ يَنفَعَهم الاعتذارُ؛ فجُملةُ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ مُعترِضةٌ في أثناءِ القولِ الَّذي قِيل لهم. ومعنى

(١) أي: فَسادِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ضَلُّواْ﴾: غابوا، أي: غُيِّبْنا في التُّرابِ، ثمَّ عرَضَ لهم فعَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تُفيدُهم، فأضْرَبوا عن قولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدْعو شيئًا يُغْني عنَّا، فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجعٌ إلى نَفْيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وصِيغَ الفِعلانِ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[2].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَذييلٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ القَولِ الَّذي يُقالُ لهم، ومعنى الإشارةِ تَعجيبٌ مِن ضَلالِهم، أي: مِثلَ ضَلالِهم ذلك يُضِلُّ اللهُ الكافرينَ. والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُفِيدُ تَشبيهَ إضلالِ جَميعِ الكافرينَ بإضلالِه هؤلاء الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تذييلًا، أي: مِثلَ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ يُضِلُّ اللهُ جميعَ الكافرينَ؛ فيكونُ إضلالُ هؤلاء الَّذين يُجادِلون مُشبَّهًا به إضلالُ الكافرينَ كلِّهم، والتَّشبيهُ كِنايةٌ عن كَونِ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بلَغَ قُوَّةَ نَوعِه، بحيثُ يُنظَّرُ به كلُّ ما خَفِيَ مِن أصنافِ الضَّلالِ، وهو كِنايةٌ عن كَونِ مُجادَلةِ هؤلاء في آياتِ اللهِ أشَدَّ الكفرِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ فيه العُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في التَّوبيخِ، أي: هذا بما كُنتُم تُظهِرون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٥).

في الدُّنيا مِن السُّرورِ بالمعاصي، وكثْرةِ المالِ والأتْباعِ، والصِّحَّةِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا التَّقريعَ والتَّوبيخَ، وأيْقَنوا بانتِفاءِ الشَّفيعِ؛ تَرقَّبوا ماذا سيُؤمَرُ به في حقِّهم؟ فقِيل لهم: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ فإنَّ مَدلولَ اسمِ الإشارةِ العذابُ المُشاهَدُ لهمْ، وهو يَشتمِلُ على إدْخالِهم أبوابَ جهنَّمَ والخُلودِ فيها، ودُخولُ الأبوابِ كِنايةٌ عن الكَونِ في جهنَّمَ؛ لأنَّ الأبوابَ إنَّما جُعِلَت لِيُسلَكَ منها إلى البَيتِ ونحْوِه[٢].

- والمخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ مَحذوفٌ؛ لأنَّه يدُلُّ عليه ذِكرُ جَهنَّمَ، أي: فبِئسَ مَثوى المتكبِّرينَ جهنَّمُ. وأُوثِرَ لَفظُ ﴿مَثْوَى ﴾ دونَ (مَدخَل) المُناسِبِ ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ ﴾؛ لأنَّ المَثْوى أدَلُّ على الخُلودِ؛ فهو أَولى بمَساءتِهم[٣].

- والمرادُ بالمتكبِّرينَ في قولِه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ المُخاطَبونَ ابتِداءً؛ لأنَّهم جادَلوا في آياتِ اللهِ عن كِبْرٍ في صُدورِهم، ولأنَّ تَكبُّرَهم مِن فَرَحِهم، وإنَّما عُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ -﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾-؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٩).

للإشارةِ إلى أنَّ مِن أسبابِ وُقوعِهم في النَّارِ تَكبُّرَهم على الرُّسلِ، ولِيَكونَ لكلِّ مَوصوفٍ بالكِبْرِ حظٌّ مِنِ استِحقاقِ العِقابِ إذا لم يَتُبْ ولم تَغلِبْ حَسناتُه على سَيِّئاتِه إنْ كان مِن أهلِ الإيمانِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

الآيات (٧٧-٨١)

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾: أي: الذين جادَلوا بالباطِلِ، والباطِلُ: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عِندَ الفَحصِ عنه، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[1].

﴿الْفُلْكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مُوصيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ، وهو مُنجِزٌ لك ما وعَدَك؛ فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به أولئك الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حَياتِك؛ أو نُمِتْكَ قبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا يُرجَعونَ، فنُجازيهم.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص:١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، مِنهم مَن قصَصْناهم عليك، ومِنهم مَن لم نَقصُصْ عليك أخبارَهم، وليس لِرَسولٍ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ إلَّا بأمْرِ اللهِ، فإذا جاء أمرُ اللهِ بالفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم قَضى اللهُ بيْنهم بالعَدلِ، وخَسِرَ عِندَ ذلك المُشرِكونَ المتَّبِعونَ للباطِلِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُمتَنًّا على عِبادِه: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم الأنعامَ، فتَركَبونَ بَعضًا منها، وتَأكُلونَ بَعضًا، ولكمْ فيها مَنافِعُ أُخرى، ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ تُريدونَها، وعلى تِلك الأنعامِ وعلى السُّفُنِ تَركَبونَ، ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ فأيَّ آياتِه سُبحانَه تُنكِرونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا تكلَّم مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هذا الموضِعِ في تَزييفِ طَريقةِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ؛ أمَرَ في هذه الآيةِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَصبِرَ على إيذائِهم وإيحاشِهم بتلك المجادَلاتِ[1].

وأيضًا فقدْ كان فيما سَبَق مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تلَقَّاه به المُشرِكونَ مِن الإساءةِ والتَّصميمِ على الإعراضِ، ابتِداءً مِن قَولِه في أوَّلِ السُّورة: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١]، ثمَّ قَولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ثُمَّ قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] الآيةَ؛ ففرَّع هنا على جَميعِ ما سَبَق وما تخلَّله مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ: أنْ أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على ما يُلاقيه منهم(١).

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ مُنجِزٌ -لا مَحالةَ- ما وعَدَك به مِن عُقوبةِ الكافِرينَ، ونَصْرِ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حياتِك؛ أو نُمِتْك قَبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا مَصيرُهم وعَلَيْنا حِسابُهم، فيَنالونَ حِينَها نَصيبَهم مِن عذابِ الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصْلُه: فإنْ نُرِك، و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معْنى الشَّرطِ؛ ولذلك أُلحِقَت النُّونُ بالفعلِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩).

وقولُه تعالَى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ قيل: هو جَوابُ الشَّرطِ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ والمعطوفِ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وهو ظاهِرُ اختيارِ مُقاتلِ بنِ سُليمانَ، وابنِ جَريرٍ، والسَّمرْقنديِّ، وابنِ أبي زَمَنِين، ومكِّيٍّ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والعُلَيميِّ، والشَّوكانيِّ، والقاسميِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠). =

كما قال تعالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

لَمَّا انْقَضى تَفصيلُ الإبطالِ لِضَلالِهم بالأدلَّةِ البيِّنةِ، والتَّذكيرِ بالنِّعمةِ، والإنذارِ بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ، وضَرْبِ الأمْثالِ بأحوالِ الأُمَمِ المكذِّبةِ، ثمَّ بوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَحقيقِ الوعْدِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأنُه إلَّا شأنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ ألَّا يأْتوا بالآياتِ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم ولا استِجابةً لِرَغائبِ مُعانِديهم[١].

= وقيل: جَوابُ الشَّرطِ لقوله تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ مَحذوفٌ تَقديرُه: فذاك، أي: فذاك المرادُ، أو المطلوبُ، أو نَحْوُ ذلك، وقيل: فذاكَ إلينا، وهو علينا هيِّنٌ، وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزَّمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وجَلال الدينِ المحلِّيُّ، والبقاعيُّ، وأبو السعودِ، والألوسيُّ، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩).

وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إنْ أَرَيْناك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ قرَّت عيْنُك بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ- إلى الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبْلِك يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالَى[1].

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

أي: مِن أُولئك الرُّسُلِ مَن أَنْبأناك بقَصَصِهم وأخْبارِهم، ومِنهم مَن لم نُنَبِّئْك بقَصَصِهم ولا أخْبارِهم[2].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس لأيِّ رَسولٍ مِن رُسُلِ اللهِ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ تَدُلُّ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ إلَّا بأمرِ اللهِ تعالَى ومَشيئتِه[3].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي فإذا جاء الوَقتُ المحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم، قَضى اللهُ بيْنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧- ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

بالعَدلِ[١].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

أي: وهَلَك عندَ ذلك المُشرِكونَ المُتَّبِعونَ للباطِلِ؛ فما رَبِحَت تجارتُهم[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بأمْرِ اللهِ: القِيامةُ: السمعاني، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والثعالبي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

وقال مكِّيٌّ، والواحديُّ، والبَغويُّ، وابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والسعديُّ: أمْرُ اللهِ: هو قضاؤُه بيْنَ الأنبياءِ وأُممِهم. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العذاب: السَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٨).

وذكَرَ البيضاويُّ والشَّوكانيُّ أنَّه العذابُ في الدُّنيا أو الآخِرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وخصَّ مقاتلُ بنُ سليمان هذا العذابَ بالقتلِ ببدرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢).

قال البقاعي: (و«أمرُه» ما توعَّد به مِن العذابِ عندَ العنادِ بعدَ الإجابةِ إلى المقترحِ، ومِن القيامةِ وما فيها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٢١).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أراد الله إرسالَ رَسولٍ وبَعثةَ نبيٍّ، قضَى ذلك وأنفذَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هو انتِقالٌ مِن الامتِنانِ على النَّاسِ بما سُخِّرَ لأجْلِهم مِن نِظامِ العوالِمِ العُلْيا والسُّفلَى، وبما منَحَهم مِن الإيجادِ، وما في ذلك مِن الألْطافِ بهم، وما أُدمِجَ فيه مِن الاستِدلالِ على انفِرادِه تعالَى بالتَّصرُّفِ، فكيْف يَنصرِفُ عن عِبادتِه الذين أشْرَكوا به آلهةً أُخرى؟! إلى الامتِنانِ بما سُخِّرَ لهم مِن الأنعامِ لِمَنافِعِهم[(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٩﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ هو الذي خَلَقَ لكم[(٢)] الأنعامَ؛ فمِنها تَركَبونَ، ومنها تَأكُلونَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٢) هذه الآية امتِنانٌ مِن اللهِ على العِبادِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

وجعَل ابنُ جريرٍ الخِطابَ هنا لِمُشركي قُرَيشٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).

قيل: (مِن) في قَولِه تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ في كِلا الموضعينِ: للتبعيض، والمعنى: تَرْكبونَ بَعضًا منها، وتأكُلونَ بَعضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَريرٍ، ورجَّحه الشَّوكانيُّ، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٥).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ «مِنْ»: للتَّبعيضِ، وكذلك في قَولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ لابتداءِ الغايةِ في الموضِعَينِ، ومعناها: ابتداءُ الرُّكوبِ وابتداءُ الأكلِ، والأوَّلُ أَوْلى، والمعنى: لِتَركبوا بَعضَها وتأكُلوا بَعضَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾ الأُولى للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المركوبَ ليس كُلَّ الأنعامِ، بل الإبِلُ خاصَّةً. و﴿مِنْهَا﴾ الثَّانيةُ لِبَيانِ الجِنسِ؛ لأنَّ الجميعَ منها يُؤكَل. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١). =

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾.

أي: ولكمْ في الأنعامِ مَنافِعُ؛ فتَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا، وتَنتَفِعونَ بنَسْلِها والحِراثةِ بها... وغَيرِ ذلك مِنَ المنافِعِ[1].

= وذهَب أبو حيَّانَ إلى أنَّ الأُولى للتَّبعيضِ، وأنَّه يجوزُ أن تكونَ الثَّانيةُ للتَّبعيضِ ولابتداءِ الغايةِ، وأنَّه لا يَظهَرُ كَونُها لبيانِ الجنسِ، خِلافًا لابنِ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

وقال البيضاويُّ: (مِن جِنسِها ما يُؤكَلُ كالغَنَمِ، ومنها ما يُؤكَلُ ويُركَبُ كالإبِلِ والبَقَرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ. وممَّن ذهَب إلى هذا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ كثير، إلَّا أنَّ مُقاتِلًا ذهَب إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ والبَقَرُ، والتي تُؤكَلُ منها هي الغنَمُ، وذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ، والتي تُؤكَلُ هي البَقَرُ والغَنَمُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ: الإبِلُ خاصَّةً. وممَّن ذهَب إلى هذا: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الأنعامُ: هي الإبلُ والبَقَرُ والغنَمُ في اللُّغةِ، إلَّا أنَّها الإبلُ خاصَّةً في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (أُريد بالركوبِ هنا الركوبُ للراحةِ مِن تعَبِ الرِّجلينِ في الحاجةِ القريبةِ؛ بقرينةِ مقابلتِه بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ والخَيلُ، وغيرُ ذلك من البهائِمِ التي يَقتنيها أهلُ الإسلام لِمَركبٍ أو لِمَطعمٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا العُمومِ: ابن جرير، واستظْهَره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

قال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، وهو ما أنعَمَ اللهُ به علينا من الحيوانِ الذي سَخَّرَه لنا؛ من إبِلٍ وبقَرٍ، وغنَمٍ وفِيَلةٍ، وغيرِها، وكُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ مِمَّا في صُدورِكم حاجةٌ للوُصولِ إليها[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

أي: وعلَى الأنعامِ في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تركَبونَ، وتَحمِلونَ مَتاعَكم[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

= (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥، ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه، فيُظهِرُها ويُجَلِّيها لكم[1].

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

أي: فأيَّ آياتِ اللهِ تَقدِرونَ على إنكارِها وعَدَمِ الاعترافِ بها، حتى يحِقَّ لكم اتِّباعُ الباطِلِ أو المجادَلةُ في الحَقِّ من شأنِ التَّوحيدِ أو البَعثِ أو غيرِهما؟! فقدْ تقرَّر عِندَكم أنَّ جَميعَ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلمْ يَبْقَ مَجالٌ لإنكارِها أو الإعراضِ عنها إلَّا أنْ تُعانِدوا وتُكابِروا[2]!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فيه الامتِنانُ بما سَخَّرَ اللهُ تعالَى لهم مِنَ الأنعامِ؛ لِمَنافِعِهم الجَمَّةِ خاصَّةً وعامَّةً، وفائِدةُ هذا الامتِنانِ: تَقريبُ نُفوسِهم مِنَ التَّوحيدِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ المروءةِ: الاستِحياءُ مِن المُنعِمِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا بأسَ أنْ نَفْرَحَ إذا أصابَ اللهُ عَدوَّنا بمُصيبةٍ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ قولَه تعالَى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأجْلِ أنْ تَقَرَّ عيْنُه بذلك، فإذا أُصيبُ أعداؤُنا بخسْفٍ، أو صَواعقَ، أو فَيضاناتٍ، أو ما أشبهَ ذلك، وفرِحْنا بهذا؛ فلا لَوْمَ علينا لأنَّهم أعداؤُنا، ويَفرَحونَ بما يُصيبُنا؛ فالجزاءُ مِن جِنسِ العَملِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ استنبَط منه بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ كلَّ مَن قَصَّه اللهُ في القرآنِ فهو رَسولٌ، وإنْ كان لم يَرِدْ ذِكْرُه إلَّا بلفْظِ النُّبُوَّةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، وأوَّلُ الرُّسلِ نوحٌ عليه السَّلامُ، وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأفاد قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أنَّه ليس كلُّ الرُّسُلِ قدْ عَلِمْناهم[٢].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَسليةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الكُفَّارَ يَطلُبون منه آياتٍ، ولكنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، يُسَلِّي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وأنَّ هذا الأمرَ ليْس إليك؛ بلْ هو إلى اللهِ، إذا شاء أنْ يُؤتيَك آيةً آتاكَ، وإلَّا فهو الحكيمُ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ الإذْنِ للهِ عزَّ وجَلَّ، والإذْنُ نَوعانِ: إذْنٌ شَرعيٌّ، وإذْنٌ كَونيٌّ؛ فالإذْنُ الكَونيُّ: ما يَتَعَلَّقُ بالمَخلوقاتِ وإيجادِها وإعدامِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

وتَغييرِها وما أشْبَهَ هذا، والإذْنُ الشَّرعيُّ: ما يَتعلَّقُ بالمَشروعاتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] الإذنُ فيهُ شَرْعيٌّ، ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ كَونيًّا؛ لأنَّنا نَعلَمُ أنَّه إذا فَعَلوه فقدْ أَذِنَ اللهُ فيه إذْنًا كَوْنيًّا، وقَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] الإذنُ فيهُ شَرعيٌّ، أي: لم يَأْذَنْ به شَرعًا، ولا يجوزُ أنْ يكونَ إذْنًا كَونيًّا؛ لأنَّه وقَعَ، فقدْ أذِنَ اللهُ تعالَى فيما شَرَعَ هؤلاء إذْنًا كَونيًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الشَّفاعةُ تُطلَبُ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ: أنْ يُخَفِّفَ العَذابَ عن شَخصٍ أو ما أشْبهَ ذلك، أو يَرفَعَ دَرَجاتِه، وهذا إذْنٌ كَوْنيٌّ لا شَكَّ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، يعني: أنَّ اللهَ تعالى قدْ يُحدِثُ مِن أمْرِه ما شاء، و«إذا» هنا شَرطيَّةٌ للمُستقبَلِ؛ إذَنِ الأمرُ لم يَأتِ بَعدُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مُتَّصِفٌ بالأفعالِ الاختياريَّةِ، خِلافًا للأشاعِرةِ ونَحوِهم؛ الذين قالوا: إنَّ اللهَ تعالَى لا يُوصَفُ بالأفعالِ الاختياريَّةِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ ما قَضَى اللهُ مِن عِقابٍ أو عَذابٍ فإنَّه حقٌّ؛ وعلى هذا فيَنْتفي بذلك أنْ يكونَ اللهُ تعالَى ظالِمًا لِمَن عاقبَه، فإنْ قال قائلٌ: ألَيْستِ العقوبةُ تَنْزِلُ بالأُمَّةِ وفيهمُ الصَّالحون؟

فالجوابُ: بلَى، تَنْزِلُ العقوبةُ على الأُمَّةِ وفيهم الصَّالحون؛ لكنَّها تكونُ عُقوبةً على المسيءِ، ورِفْعَةَ درَجاتٍ وتَكفيرَ سيِّئاتٍ على الصَّالحِ؛ ولهذا لَمَّا قالتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٣٠).

إحْدى أُمهاتِ المؤمنينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعمْ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ[١]))[٢]، فإذا غَلَبَ الخَبَثُ على الطَّيِّبِ حَلَّتِ العقوبةُ بالجميعِ[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أنَّ الأصلَ جَوازُ كلِّ ما يُنتفَعُ به مِن وُجوهِ الانتِفاعِ في هذه الأنعامِ، وبِناءً على ذلك يَجوزُ أنْ يُركَبَ ما لا يُركَبُ عادةً إذا لم يَشُقَّ عليه؛ لأنَّ ذلك مِن المنافِعِ، فإنْ شَقَّ عليها كان مَمنوعًا؛ لأنَّ إيذاءَ الحيوانِ مُحَرَّمٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ نِعمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى على عِبادِه بأنْ يُريَهم الآياتِ الدَّالَّةَ عليه، ولو شاء اللهُ تعالَى لَأخفَى عنَّا ذلك، ووَكَلَنا إلى ما في نُفوسِنا وفِطَرِنا، ولكِنْ مِن رَحمتِه أنَّه يُظهِرُ الآياتِ حتَّى يكونَ هذا عَونًا على ما في الفِطرةِ مِن مَعرفةِ آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ قدْ كان فيما سبَقَ مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَلقَّاه به المشْرِكون مِن الإساءةِ

---

(١) الخَبَثُ أي: الفُسُوقُ والفُجورُ والمعاصي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٤٠).

والتَّصميمِ على الإعراضِ، ابتداءً مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]، ثم قولِه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨]، ثم قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، ثم قولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، فلمَّا حصَلَ الوعدُ بالانتصافِ مِن مُكذِّبي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، أعقبَ بقولِه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ فإنَّ مُناسَبةَ الأمْرِ بالصَّبرِ عقِبَ ذلك أنْ يكونَ تَعريضًا بالانتصارِ له؛ ولذلك فُرِّعَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الشَّرطُ المردَّدُ بيْنَ أنْ يُرِيَه بعْضَ ما توَعَّدَهم اللهُ به وبيْن ألَّا يَراهُ؛ فإنَّ جَوابَ الشَّرطِ حاصلٌ على كِلْتا الحالتَين، وهو مَضمونُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي: أنَّهمْ غَيْرُ مُفْلِتينَ مِن العِقابِ(١).

- وجُملةُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ جوابٌ للشَّرطِ الثَّاني، وهو ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجَوابُ الشَّرطِ الأوَّلِ مَحذوفٌ -وذلك على قولٍ-، والتَّقديرُ: فإمَّا نُرِينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ -وهو القَتْلُ والأسْرُ يومَ بدْرٍ- فذاك، أو أنْ نَتوفَّينَّك قبْلَ يوم بدْرٍ، فإلينا يُرْجَعون يومَ القِيامةِ، فنَنتقِمُ منهم أشدَّ الانتقام، وإنَّما حُذِفَ جَوابُ الأوَّلِ دونَ الثَّاني؛ لأنَّ الأوَّلَ إنْ وقَعَ فذاك غايةُ الأمَلِ في إنْكائِهم؛ فالثَّابتُ على تَقديرِ وُقوعِه مَعلومٌ، وهو حُصولُ المرادِ على التَّمام، وأمَّا إنْ لم يقَعْ ووَقَعَ الثَّاني -وهو تَوفِّيه قبْلَ حُلولِ المجازاةِ بهم- فهذا هو الذي يَحتاجُ إلى ذِكرِه للتَّسليةِ، وتَطمينِ النَّفْسِ، على أنَّه وإنْ تَأخَّرَ جَزاؤُهم عن الدُّنيا فهو حَتْمٌ في الآخِرةِ، ولا بُدَّ منه(٢).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - الحاشية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير =

- وللتَّأكيدِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ مَوقعُه؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ استَبْطؤوا النَّصرَ، كما قال تعالَى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فنُزِّلوا مَنزلةَ المتردِّدِ فيه، فأكَّدَ وعْدَه بحَرْفِ التَّوكيدِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيۡنَا﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتمامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذَين الشَّرطينِ اللَّذينِ في قولِه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ في سُورةِ (يُونسَ)، إلَّا أنَّ في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، وهنا في سُورةِ (غافرٍ) ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، والمخالفةُ بيْن الآيتَين تَفنُّنٌ، ولأنَّ ما في (يُونسَ) اقْتَضى تَهديدَهم بأنَّ اللهَ شَهيدٌ على ما يَفعَلون، أي: علَى ما يَفعَلُه الفريقانِ مِن قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٣]؛ فكانتِ الفاصِلةُ حاصلةً بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وأمَّا هنا فالفاصلةُ مُعاقِبةٌ للشَّرطِ؛ فاقتَضَت صَوغَ الرُّجوعِ بصِيغةِ المضارعِ المختتَمِ بواوٍ ونونٍ، على أنَّ ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦] مُعرَّفٌ بالإضافةِ؛ فهو مُشعِرٌ بالمرجِعِ المعهودِ، وهو مَرجِعُهم في الآخِرةِ، بخِلافِ قولِه: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ المشعِرِ برُجوعٍ مُتجدِّدٍ[٣].

= أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيه تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأْنُه إلَّا شأْنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه، وأنَّ الآياتِ عندَ اللهِ يُظهِرُ ما شاء منها بمُقْتضى إرادتِه الجاريةِ على وَفْقِ عِلْمِه وحِكمتِه؛ فالرُّسلُ لا يَأتون بها مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم. وفي ذلك تَعريضٌ بالرَّدِّ على المجادِلين في آياتِ اللهِ، وتَنبيهٌ لهمْ على خَطأِ ظَنِّهم أنَّ الرُّسلَ تَنتصِبُ لِمُناقَشةِ المعانِدينَ؛ فالمقصودُ الأهمُّ مِن هذه الآيةِ هو قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ...﴾ إلخ، فهو كمُقدِّمةٍ للمقصودِ؛ لِتأكيدِ العُمومِ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو معَ ذلك يُفيدُ بتَقديمِه معنًى مُستقلًّا مِن رَدِّ مُجادَلتِهم؛ فإنَّهم كانوا يَقولونَ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فدُمِغَت مَزاعِمُهم بما هو مَعلومٌ بالتَّواتُرِ مِن تَكرُّرِ بَعثةِ الرُّسلِ في العُصورِ والأُمَمِ الكثيرةِ(١).

- وتَنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾ مُفيدٌ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، أي: أرْسَلْنا رُسلًا عدَدُهم كثيرٌ، وشأْنُهم عظيمٌ(٢).

- وعطْفُ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ...﴾ بالواوِ دونَ الفاءِ يُفيدُ استقلالَ هذه الجُملةِ بنفْسِها؛ لِما فيها مِن معنًى عَظيمٍ حَقيقٍ بألَّا يكونَ تابعًا لِغَيرِه، ويُكْتفَى في الدَّلالةِ على ارتباطِ الجُملتَينِ بمَوقعِ إحداهما مِن الأُخرى(٣).

- والباءُ في ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هي باءُ السَّببيَّةِ دخَلَتْ على مُسْتثنًى مِن أسبابٍ مَحذوفةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في الاستِثناءِ المفرَّغِ، أي: ما كان له أنْ يَأتِيَ بآيةٍ بسَببٍ مِن الأسبابِ إلَّا بسَببِ إذْنِ اللهِ تعالَى. وهذا إبطالٌ لِما يَتعنَّتون به مِن المُقترَحاتِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ في العُدولِ عن (إذْنِ اللهِ) إلى ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ ما سيُظْهِرُه اللهُ مِن الإذْنِ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي آياتُ عِقابٍ لِمُعانِديه، كآيةِ الجُوعِ سَبْعَ سِنينَ حتى أكَلوا الميتةَ، وآيةِ السَّيفِ يَومَ بَدْرٍ إذ استأصَلَ صَناديدَ المكذِّبينَ مِن أهلِ مَكَّةَ. وفي إيثارِ ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه، مِن نحْوِ: ظهَرَ الحقُّ، أو تبيَّنَ الصِّدقُ؛ تَرشيحٌ[٢] لِمَا في قولِه: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ مِن التَّعريضِ بأنَّه أمرُ انتصافٍ مِن المكذِّبين؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: خسِرَ الذين جادَلوا بالباطِلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحقَّ.[٣]

- قولُه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (هنالك) أصْلُه اسمُ إشارةٍ إلى المكانِ، وعُبِّرَ به هنا عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ المعبَّرِ عنه بـ(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك نُكتةٌ بَديعةٌ؛ وهي الإيماءُ إلى أنَّ المبطِلينَ مِن قُريشٍ ستَأْتِيهم الآيةُ في مَكانٍ مِن الأرضِ، وهو مكانُ بَدْرٍ وغيرِه مِن مَواقعِ إعمالِ السَّيفِ فيهم؛ فكانتْ آياتُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُجَّةً على مُعانِديه أقْوى مِن الآياتِ السَّماويةِ، نَحْوِ الصَّواعقِ أو الرِّيحِ، وعن الآياتِ الأرضيَّةِ، نَحْوِ الغرَقِ والخَسْفِ؛ لأنَّها كانتْ مع مُشاركتِهم ومُداخلتِهم حتَّى يَكونَ انْغِلابُهم أقطَعَ لِحُجَّتِهم وأخْزى لهم، نَظيرَ آيةِ عَصا مُوسى مع عِصِيِّ السَّحرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٣، ٢١٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ هنا بقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾، وختَمَ السُّورةَ بقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾؛ ووَجْهُه أنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ونَقيضُ الحقِّ الباطلُ، والثَّاني مُتَّصلٌ بإيمانٍ غيرِ نافعٍ، ونَقيضُ الإيمانِ الكُفْرُ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ امْتنَّ اللهُ تعالَى عليهم بما سخَّرَ لهم، وأُدمِجَ في الامتِنانِ استِدلالٌ على دَقيقِ الصُّنعِ وبَليغِ الحِكمةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [غافر: ٨١]، أي: في ذلك كلِّه[٢].

- اللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: لأجْلِكم، وهو امتنانٌ مُجمَلٌ يَشمَلُ بالتَّأمُّلِ كلَّ ما في الإبلِ لهم مِن مَنافِعَ، وهم يَعلَمونها إذا تَذكَّروها وعَدُّوها، ثم فُصِّلَ ذلك الإجمالُ بعضَ التَّفصيلِ بذِكرِ المهمِّ مِن النِعَمِ التي في الإبلِ بقولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ إلى ﴿تُحْمَلُونَ ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ تَقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، مع أنَّ المفعولَ أشَدُّ اتِّصالًا بفِعلِه مِن المجرورِ؛ لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمنعَمِ عليهم[٤].

- وأيضًا تَغييرُ النَّظْمِ الكَريمِ بتَقديمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ إذ لو جِيءَ على ظاهرِه لاختلَّتْ، وكذلك جرَى في

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١، ٤١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).

الفاصلةِ الآتيةِ، مع الاهتمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ، والإشعارِ بأصالةِ الرُّكوبِ في الانتفاعِ بالأنعامِ. وقيل: لأنَّه في حيِّزِ الضَّرورةِ، وقيل: لأنَّه يُقصَدُ به التَّعيُّشُ، وهو مِن الضَّرورياتِ، والتَّلذُّذُ والرُّكوبُ والمسافرةُ عليها قدْ تكونُ لأغراضٍ دِينيَّةٍ واجبةٍ أو مَندوبةٍ، أو للفرْقِ بيْن العَينِ والمنفَعةِ[(١)].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ولم يقل: (لِتأكُلوا منها ولِتَصِلوا إلى المنافعِ)؛ لأنَّهم في الحالِ آكِلونَ وآخِذونَ المنافعَ، وأمَّا الرُّكوبُ وبُلوغُ الحاجةِ فأمرانِ مُنتَظرانِ؛ فجِيءَ بما يدُلُّ على الاستقبالِ[(٢)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، والمعنى على اعتِبارِ التَّعليلِ، كأنَّه قِيل: ولِتَجْتَنُوا مَنافعَها المجْعولةَ لكمْ، وإنَّما غُيِّرَ أُسلوبُ التَّعليلِ؛ تَفنُّنًا في الكلامِ، وتَنشيطًا للسَّامعِ؛ لئلَّا يتكرَّرَ حرْفُ التَّعليلِ تَكْراراتٍ كثيرةً[(٣)].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ المنافِعُ شامِلةٌ للرُّكوبِ الذي في قولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾؛ فذِكْرُ المنافعِ بعْدَ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فذكَرَ هنا الشَّائعَ المطروقَ عِندَهم، ثمَّ ذكَرَ مَثِيلَه في الشُّيوعِ، وهو الأكْلُ منها، ثمَّ عاد إلى عُمومِ المنافِعِ، ثم خَصَّ من المنافعِ الأسفارَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥).

فإنَّ اشتدادَ الحاجةِ إلى الأنعامِ فيها تَجعَلُ الانتفاعَ برُكوبِها للسَّفرِ في مَحلِّ الاهتِمامِ(١).

- ولَمَّا كانتِ المنافعُ ليْستْ مُنْحصِرةً في أجزاءِ الأنعامِ، جِيءَ في مُتعلَّقِها بحرْفِ (في) دونَ (مِن)، فتَشمَلُ كلَّ ما يُعَدُّ كالشَّيءِ المحْويِّ في الأنعامِ(٢).

- وتَقْديمُ المجرورَيْنِ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾؛ للاهتِمام بالمنعَم عليهم والمُنعِمِ بها؛ لأنَّه الغرَضُ الأوَّلُ مِن قولِه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾(٣).

- وأنبأَ فِعلُ (لِتَبْلُغُوا) أنَّ الحاجةَ التي في الصُّدورِ حاجةٌ في مَكانٍ بعيدٍ يَطلُبُها صاحبُها(٤).

- وقولُه: ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ حاجةً واحدةً ضاقتْ عنها قُلوبُ الجميعِ حتى فاضَتْ منها، فمَلَأت مَساكِنَها(٥).

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ منها هو أعْظمَ مَنفعةٍ؛ إذ فيه مَنفعةُ الأكْلِ والرُّكوبِ -وذَكَر أيضًا أنَّ في الجَميعِ منافعَ مِن شُربِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك-؛ أكَّدَ مَنفعةَ الرُّكوبِ بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾(٦).

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ وبُلوغُ الحَاجةِ المترتِّبةِ عليه قدْ يُتوصَّلُ به إلى الانتِقالِ لأمْرٍ واجِبٍ، أو مَندوبٍ، كالحَجِّ وطَلَبِ العِلمِ؛ دخَلَ حرْفُ التَّعليلِ (اللام)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٦).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

على الرُّكوبِ وعلى المترتِّبِ عليه مِن بُلوغِ الحاجاتِ؛ فجعَلَ ذلك عِلَّةً لجَعْلِ الأنعامِ لنا. ولَمَّا كان الأكلُ وإصابةُ المنافِعِ من جِنسِ المُباحاتِ، لم يَجعَلْ ذلك عِلَّةً في الجَعْلِ، بلْ ذَكَر أنَّ منها نأكُلُ، ولنا فيها منافِعَ مِن شُرْبِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك، كما أَدْخَل لامَ التَّعليلِ في ﴿لِتَرۡكَبُواْ﴾، ولم يُدْخِلْها على الزِّينةِ في قولِه: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾[(١)] [النحل: ٨].

- وأُعقِبَ الامتِنانُ بالأنعامِ بالامتنانِ بالفُلْكِ؛ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾، فقال: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بجَعْلِ الأنعامِ إلى الامتنانِ بنِعمةِ الرُّكوبِ في الفُلْكِ في البِحارِ والأنهارِ؛ فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾. وأمَّا قولُه: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ فهو تَمهيدٌ له، وهو اعتراضٌ بالواوِ الاعتراضيَّةِ؛ تكريرًا للمِنَّةِ، على أنَّه قدْ يَشمَلُ حمْلَ الأثْقالِ على الإبلِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النحل: ٧]؛ فيكونُ إسنادُ الحمْلِ إلى ضَميرِ النَّاسِ تَغليبًا. وقيل: لعلَّ المرادَ به حمْلُ النِّساءِ والوِلدانِ عليها بالهوْدَجِ، وهو السِّرُّ في فصْلِه عن الرُّكوبِ[(٢)].

وقيل: قَولُه: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ تَوطِئةٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ لِيَجمَعَ بيْنَ سَفائِنِ البَرِّ وسَفائِنِ البَحرِ، فكأنَّه قيل: وعليها في البَرِّ وعلى الفُلكِ في البَحرِ تُحمَلونَ؛ فلا تَكرارَ[(٣)].

- وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾، ولم يقُلْ: وفي الفُلْكِ، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٣)) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٢).

فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ للمُزاوَجةِ والمشاكَلةِ مع لَفظِ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾، وإنَّما أُعِيدَ حرْفُ (على) في الفُلْكِ؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذِّكرِ، وكان ذِكرُ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾ كالتَّوطئةِ لها، فجاءتْ على مِثالِها[١].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ[٢].

- وأشارَ بالبِناءِ للمَفعولِ ﴿تُحْمَلُونَ ﴾ أنَّه سخَّرَ ذلك تَسخيرًا عظيمًا، لا يُحتاجُ معه إلى عِلاجٍ في نفْسِ الحمْلِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ﴾ [غافر: ٧٩]، أي: اللهُ الذي يُريكم آياتِه، وهذا انتقالٌ من مُتعدِّدِ الامتِنانِ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾[غافر: ٦١]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾[غافر: ٦٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ تلك ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتنانِ تَذكيرًا بالشُّكرِ، فنُبِّهَ هنا على أنَّ في تلك المِنَنِ آياتٍ دالَّةً على ما يَجِبُ للهِ مِن الوَحدانيَّةِ والقُدْرةِ والحِكمةِ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ مُفيدًا مُفادَ التَّذييلِ؛ لِما في قولِه: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ مِن العُمومِ؛ لأنَّ الجمْعَ المُعرَّفَ بالإضافةِ مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: يُريكم آياتِه في النِّعَمِ المذكوراتِ وغيرِها من كلِّ ما يَدلُّ على وُجوبِ تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسلِه، ونَبْذِ المُكابَرةِ فيما يَأْتونهم به مِن آياتِ صِدقِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧، ٢١٨).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ جِيءَ في جانبِ إراءةِ الآياتِ بالفعلِ المضارِعِ؛ لِدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما انتفَعَ بشَيءٍ مِن النِّعَم عَلِمَ ما في ذلك مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّة خالِقِها وقُدرتِه وحِكْمتِه. والإراءةُ هنا بَصَريَّةٌ، عبَّرَ بها عن العِلمِ بصِفاتِ اللهِ؛ إذ كان طَريقُ ذلك العِلمِ هو مُشاهدةَ تلك الأحوالِ المختلِفةِ، فمِن تلك المشاهَدةِ يَنتقِلُ العقْلُ إلى الاستِدلالِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دَلالةَ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه بُرهانيَّةٌ تَنْتهي إلى اليَقينِ والضَّرورةِ[١].

- وإضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجلالةِ والاسمِ الجَليلِ في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؛ لِتَربيةِ المَهابةِ، وتَهويلِ إنْكارِها، ولِزيادةِ التَّنويهِ بها، والإرشادِ إلى إجادةِ النَّظرِ العقْليِّ في دَلائلِها. وأمَّا كونُها جائيةً مِن لَدُنِ اللهِ، وكونُ إضافتِها مِن الإضافةِ إلى ما هو في معنَى الفاعلِ، فذلك أمْرٌ مُستفادٌ مِن إسنادِ فِعلِ ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ إلى ضَميرِه تعالَى[٢].

- وفُرِّعَ على إراءةِ الآياتِ قولُه: ﴿فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عليهم مِن أجْلِ إنْكارِهم ما دلَّت عليه تلك الآياتُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في إنكارِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ يُمكِنُ أنْ يُنكَرَ دونَ غيْرِه مِن الآياتِ؛ فيُفيدُ أنَّ جميعَ الآياتِ صالحٌ للدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدْرتِه، لا مَساغَ لادِّعاءِ خَفائِه، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في عَدمِ الاستِفادةِ مِن إحْدَى الآياتِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

الآيات (٨٢-٨٥)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ
مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣)
فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ
إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَاقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تَختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقدْ تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تَأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[1].

﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[2].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خَلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالَى عن الأُممِ السَّابقةِ المُكذِّبةِ بالرُّسلِ، وماذا حَلَّ بهم مِن العذابِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧- ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

مُوبِّخًا المشركينَ لعدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم، فيَقولُ: أفلَمْ يَسِرْ أولئك المُشركونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا كيْف كانتْ عاقِبةُ الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! كان كُفَّارُ تلك الأُمَمِ السَّابِقةِ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُريشٍ، وأشَدَّ قُوَّةً منهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ، فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَددِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا عِظَمُ آثارِهم!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جُرمَهم الكبيرَ، فيَقولُ: فلمَّا جاءت تلك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ فَرِحوا بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يُكذِّبونَ بوُقوعِه ويَسخَرونَ منه، فلمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا باللهِ وَحْدَه، وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها مع اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى أنَّ الإيمانَ لا يَنفَعُ إذا نزَل العذابُ، فيقولُ: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم حينَ رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم؛ سَنَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الكُفَّارِ سُنَّةً: أنَّه لا يَنفَعُهم الإيمانُ إذا رأَوُا العَذابَ، وأنَّ التَّوبةَ لا تُقبَلُ بعْدَ رُؤيةِ العذابِ، وخَسِرَ عندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ بربِّهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

رَاعَى اللهُ تعالَى تَرْتيبًا لَطِيفًا فِي آخِرِ هذِه السُّورَةِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر فصْلًا في دَلائلِ الإلهيَّةِ وكَمالِ القُدرةِ والرَّحمةِ والحِكمةِ، ثمَّ أردَفه بفصْلٍ في التَّهديدِ

والوَعيدِ، وهذا الفصلُ الَّذي وَقَع عليه خَتْمُ هذه السُّورةِ هو الفصلُ المشتمِلُ على الوَعيدِ[(١)].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أفَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا بأعيُنِهم، ويَتفَكَّروا بقُلوبِهم: كيف كانتْ خاتِمةُ أمرِ الكُفَّارِ الذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا لِرُؤيتِهم آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ لِتَكذيبِهم رُسُلَهم[(٢)]؟!

﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ الذين أهلَكَهم اللهُ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[(٣)].

﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وكانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ[(٤)].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَدَدِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم، ولا عِظَمُ آثارِهم[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عُثيمين: (هذا الاستِفهامُ يحتَمِلُ أنْ يكونَ للحَثِّ... ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ للتَّوبيخِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير =

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾.

أي: فلَمَّا جاءتْ أولئك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ، والبراهينِ القاطِعاتِ، لم يُؤمِنوا بها، وفَرِح هؤلاء الكافِرونَ بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ورضُوا به(١).

= السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القاسمي: (﴿ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: مِن الحصونِ والقصورِ والمباني والعُدَدِ والعَدَدِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابنُ الجوْزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، في ﴿مَّا﴾ قولانِ: أحدُهما: أنَّها للنفي. والثاني: أنَّها للاستفهام، ذكَرهما ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١).

وممَّن قال بأنَّها للنفي: ابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

وقال الشَّوكانيُّ: (و«ما» الثَّانيةُ -يعني في قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾- يجوزُ أن تكونَ مَوصولةً، وأن تكونَ مَصدريَّةً). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

والضَّميرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: عائِدٌ على الأُمَمِ المكذِّبة. ونسَبَه ابن الجوْزيِّ إلى الجمهور، وقيل: الضميرُ عائدٌ على الرُّسلِ، وفيه حذفٌ تقديرُه: كذَّبوهم ففرِحوا أي: الرسلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤).

قال القُرطبي: (﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ في معناه ثلاثةُ أقوالٍ:

قال مجاهِدٌ: إنَّ الكُفَّارَ الذين فَرِحوا بما عِندَهم مِن العِلمِ قالوا: نحن أعلَمُ منهم؛ لن نُعَذَّبَ ولن نُبعَثَ.

وقيل: فَرِحَ الكُفَّارُ بما عِندَهم مِن عِلمِ الدُّنيا، نحوُ: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم: ٧]. =

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بالكافِرينَ عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه[1].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾.

أي: فلَمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا بوَحدانيَّةِ اللهِ، فلا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه[2].

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

= وقيل: الذين فَرِحوا: الرُّسُلُ؛ لَمَّا كَذَّبهم قَومُهم أعلَمَهم اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه مُهلِكُ الكافِرينَ ومُنَجِّيهم والمؤمنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ (قولِ مجاهدٍ): ابنُ جَرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٠).

وقال الرَّسْعني: (وعِلْمُهم الذي فرِحوا به: إنكارُهم الوَحدانيةَ والبعثَ، بالشُّبهِ التي كانوا يدْفعون بها البيِّناتِ. وتَسميةُ ذلك علمًا؛ تهكُّمٌ بهم). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٤).

وقال السمعاني: (قد كانَ في ظنِّهم أنَّهم عُلماء، فسمَّى ما عِندَهم عِلمًا على ظنِّهم، وكان الَّذي ظنُّوه أن لَا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نارَ ولا حياةَ بعدَ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤).

وقيل: هذا عامٌّ في جميعِ العُلومِ المناقِضةِ لدِينِ الرُّسُلِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: الشَّوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٨-٥٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

أي: وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها، وتبرَّأْنا منها[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ * لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٥].

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾.

﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾.

أي: فلَمْ يَنفَعْهم إيمانُهم بتَوحيدِ اللهِ حِينَ رأَوْا عذابَه نازِلًا بهم[٢]!

كما قال تعالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (و﴿بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: بما كُنَّا بسَبَبِه مُشرِكينَ، وأن تكونَ مُتعَلِّقةً بـ﴿مُشۡرِكِينَ﴾ تعَلُّقَ الجارِّ بعامِلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ تعالى أنَّه لا يَقبَلُ تَوبةَ الكافِرينَ حينَ نُزولِ العَذابِ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم في تِلك الحالِ، وقدْ مَضَت هذه السُّنةُ والطريقةُ في عِبادِه[1].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

أي: وهلَكَ عِندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ برَبِّهم، المُشرِكونَ في عِبادتِه، فما رَبِحَت تجارتُهم[2].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن تَرَكَ الانقيادَ للحَقِّ لأجْلِ طَلَبِ الرِّياسةِ، والتَّقَدُّمِ على الغيرِ في المالِ والجاهِ؛ فقدْ باع الآخِرةَ بالدُّنيا، فبَيَّنَ اللهُ تعالَى أنَّ هذه الطَّريقةَ فاسِدةٌ؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ ذاهِبةٌ، واحتَجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القُرطبي: (﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ مصدرٌ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: سَنَّ يَسُنُّ سَنًّا وسُنَّةً، أي: سَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكفَّارِ أنَّه لا يَنفعُهم الإيمانُ إذا رأَوُا العذابَ... وقيلَ: أي: احْذَروا يا أهلَ مكَّةَ سُنَّةَ اللهِ في إهلاكِ الكفرةِ؛ فـ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ منصوبٌ على التَّحذيرِ والإغراءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤-٥٣٥).

قَبۡلِهِمۡ﴾ فيه الحَثُّ على النَّظرِ في أحوالِ الأُممِ السابقةِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهُم على عدَمِ السَّيرِ، والسَّيرُ في الأرضِ لا بدَّ أنْ يَصحَبَه النَّظرُ والاعتبارُ؛ وإلَّا فإنَّه لا يَنفَعُ، ويَتفرَّعُ على هذا ما يَفعَلُه كَثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مِن السَّيرِ إلى دِيارِ ثَمودَ للاطِّلاعِ على آثارِ القومِ الدَّالَّةِ على قُوَّتِهم! أو يَذهَبون للفُرجةِ والنُّزهةِ فقطْ دونَ أنْ يعتَبِروا، وهذا لا يَجوزُ، فالواجبُ على مَن سار إلى تلك الدِّيارِ أنْ يَدْخُلَها وهو باكٍ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإنْ لم تكونوا باكِينَ فلا تَدخُلوا عليهم))[١]، ولا يَنفَعُ التَّباكي؛ فإنَّه لم يَقُلْ: (فتَباكَوْا)! ومَن لم يُوطِّنْ نفْسَه على هذا الوَصفِ فإنَّه لا يَجوزُ له أنْ يَدخُلَ[٢].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، هذه الآيةُ مُرشِدةٌ إلى أنَّه لا يَتعَلَّمُ إلَّا مَن ظَنَّ مِن نَفسِه القُصورَ؛ ولهذا كان أقبَلَ شَيءٍ على العِلمِ الصِّغارُ[٣].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ آياتِ الرُّسُلِ بَيِّنَةٌ لا تَحتَمِلُ الشَّكَّ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّه يَنْبغي للعالِمِ الذي يَنْشُرُ شَريعةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذا نَشَرَها بيْنَ الناسِ أنْ يكونَ نَشْرُه إيَّاها على وجْهٍ بَيِّنٍ لا اشتباهَ فيه؛ أوَّلًا: اقتداءً بالرُّسُلِ، وثانيًا: ليزدادَ المخاطَبُ طُمأنينةً؛ لأنَّ الطُّمأنينةَ لها أثَرٌ في قَبولِ ما يُلْقَى وفي القيامِ به؛ فإنَّ الإنسانَ إذا لم يُبَيَّنْ له الحقُّ على وجْهٍ تَحصُلُ به الطُّمأنينةُ قدْ يَحصُلُ له تردُّدٌ؛ لكنْ إذا زِيدَ طُمأنينةً انْتَفَع بذلك[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رَضيَ اللهُ عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أرْسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ البيِّناتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم، ويَتفرَّعُ على هذا فائدتانِ؛ وهما: رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ، وحِكمةُ اللهِ تعالَى في فِعْلِه؛ أمَّا رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ فلأنَّ اللهَ تعالَى لوْ أرسَلَ إليهم رُسلًا بدونِ آياتٍ، لكان في ذلك تَكليفٌ بما لا يُطاقُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُ أنْ يُصَدِّقَ برَسولٍ بدونِ آياتٍ تدُلُّ على صِدْقِه، وإلَّا لأمْكَنَ كلَّ كاذبٍ أنْ يقولَ: إنَّه رسولٌ! وأمَّا الحِكمةُ فظاهرةٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى لمّا أَرْسَلَ الرُّسُلَ لم يَتْرُكْهم هَمَلًا! بلْ أعطاهم ما على مثلِه يُؤمِنُ البشرُ، كما أخبَرَ بذلك نَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نَبيٍّ إلَّا قدْ أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشرُ))، والذي أُوْتِيَه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو الوحيُ؛ القرآنُ؛ ولهذا قال: ((فأرْجو أنْ أكونَ أكثَرَهم تابعًا يومَ القيامةِ))[(١)]؛ لأنَّ القرآنَ آيةٌ باقيةٌ إلى يومِ القيامةِ، أو إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ تعالى بفَسادِ العالَمِ، أمَّا آياتُ الرُّسُلِ فغالِبُها تَنْقضي في زمانِها[(٢)].

٢- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أنَّ التَّوبةَ مَقْبولةٌ -ولو في شِدَّةِ مَرضِ الموتِ- حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى المعايَنةِ؛ فلا تُقبَلُ توبتُه[(٣)]؛ فقدْ بيَّن تعالَى أنَّ التَّوبةَ بعْدَ رُؤيةِ البَأْسِ لا تَنْفَعُ، وأنَّ هذه سُنَّةُ اللهِ التي قدْ خَلَتْ في عِبادِه[(٤)]، وبيَّن أنَّ الإيمانَ النَّافِعَ الذي يُنَجِّي صاحِبَه هو الإيمانُ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٥٠).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٩٦).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٩١).

الاختياريُّ الذي يكونُ إيمانًا بالغَيبِ، وذلك قبْلَ وُجودِ قَرائنِ العَذابِ[١]، وفيه حَضٌّ على المبادَرةِ إلى الإيمانِ، وتَخويفٌ مِن التَّأنِّي[٢].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مع ما سَبَقَ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بيانُ أنَّ كلَّ كافرٍ فهو مُبْطِلٌ ليْس معه حقٌّ، وكلَّ مُبْطِلٍ -لا يَقولُ إلَّا الباطِلَ- فهو كافرٌ، أي: أنَّ المُبْطِلَ في كلِّ أحْوالِه كافرٌ ليْس معه شَيءٌ مِن الحقِّ؛ فاختلافُ التَّعبيرِ لِزيادةِ المعنى[٣].

٤- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ظُهورُ الخُسرانِ لهؤلاء المُكذِّبينَ قبْلَ أنْ يَموتوا؛ لقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: حينَ جاءَهم البأسُ تَبيَّنَ لهم الخُسرانُ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كَلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَوبيخِهم، والهَمزةُ في ﴿أَفَلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[٥].

- وتَفريعُ هذا الاستِفهامِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٥٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عقِبَ قولِه: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]؛ يَقْتضي أنَّه مُساوِقٌ للتَّفريعِ الذي قبْلَه، وهو ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]؛ فيَقْتضي أنَّ السَّيرَ المُستفهَمَ عنه بالإنكارِ على تَرْكِه هو سيْرٌ تَحصُلُ فيه آياتٌ ودَلائلُ على وُجودِ اللهِ ووَحْدانيَّته، وكِلَا التَّفريعينِ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]، فذلك هو مُناسَبةُ الانتقالِ إلى التَّذكيرِ بعِبرةِ آثارِ الأُمَمِ التي استأْصَلَها اللهُ تعالى لَمَّا كذَّبَت رُسلَه، وجَحَدتْ آياتِه ونِعَمَه. وحصَلَ بذلك تَكريرُ الإنكارِ الذي في قولِه قبْلَ هذا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ...﴾ [غافر: ٢١] الآيةَ؛ فكان ما تَقدَّمَ انتقالًا عقِبَ آياتِ الإنذارِ والتَّهديدِ، وكان هذا انتقالًا عَقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلالِ، وفي كِلا الانتقالَينِ تَذكيرٌ وتَهديدٌ ووَعيدٌ، وهو يُشيرُ إلى أنَّهم إنْ لم يَكونوا ممَّن تَكُفُّهم النِّعَمُ عن كُفرانِ مُسْدِيها، كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ الكريمةِ، فلْيَكونوا ممَّن يَردَعُهم الخوفُ مِن البطْشِ كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمةِ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم حيثُ يَختارون مِن إحْدى الخُطَّتَينِ[(١)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، وقال قبْلُ في نفْسِ السُّورةِ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [غافر: ٢١]؛ فخُولِفَ في عَطْفِ جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، فعُطِفَت بالفاءِ للتَّفريعِ؛ لِوُقوعِها بعْدَما يَصلُحُ لأنْ يُفرَّعَ عنه إنكارُ عَدَمِ النَّظرِ في عاقبةِ الذين مِن قبْلِهم، بخِلافِ نَظيرتِها التي قبْلَها؛ فقدْ وقَعَتْ بعْدَ إنذارِهم بيومِ الآزفةِ[(٢)].

- وقولُه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ ...﴾ إلخ، استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٠).

مَبادِي أحوالِ الأُمَمِ السَّابقةِ وعَواقِبِها[(١)].

- وجُملةُ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مُعترِضةٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ التَّعجيلُ بإفادةِ أنَّ كَثرتَهم وقُوَّتَهم، وحُصونَهم وجنَّاتِهم؛ لم تُغْنِ عنهم مِن بأْسِ اللهِ شيئًا[(٢)].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ...﴾ [غافر: ٨٢- ٨٥] جاءتِ الفاءُ، ثمَّ ترادَفت بعْدَها فاءاتٌ؛ فأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ فهو نَتيجةُ قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجارٍ مَجْرى البَيانِ والتَّفسيرِ لقولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، كقولِك: رُزِقَ زيْدٌ المالَ، فمنَعَ المعروفَ، فلمْ يُحسِنْ إلى الفُقراءِ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ تابعٌ لِقولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾؛ كأنَّه قال: فكَفَروا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا آمَنوا، وكذلك ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ تابعٌ لإيمانِهم لَمَّا رَأَوا بأْسَ اللهِ[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ...﴾ الآيةَ، مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، أي: كانوا كذلك إلى أنْ جاءتْهم رُسلُ اللهِ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧).

بالبيِّناتِ، فلمْ يُصدِّقوهم فرَأَوا بأْسَنا(١).

- وأفادَتْ (لَمَّا) في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ معنى أنَّ اللهَ لم يُغيِّرْ ما بهم مِن النِّعَمِ العُظْمى حتَّى كذَّبوا رُسلَه؛ لِما فيها مِن معنَى التَّوقيتِ(٢).

- والفرَحُ هنا مُكنًّى به عن آثارِه، وهي الازدهاءُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: بما أنْتَ فيه، مُكنًّى به هنا عن تَمسُّكِهم بما همْ عليه؛ فالمعنَى: أنَّهم جادَلوا الرُّسلَ، وكابَروا الأدلَّةَ(٣).

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ، وهو الاستِهزاءُ والسُّخريةِ مِن المتكبِّرينَ لِمُخاطَبتِهم بلَفظِ الإجلالِ في مَوضعِ التَّحقيرِ، والبِشارةِ في مَوضعِ التَّحذيرِ، والوَعدِ في مَوضعِ الوَعيدِ، والعِلمِ في مَوضعِ الجَهلِ؛ تَهاوُنًا من القائلِ بالمقولِ له، واستِهزاءً به(٤).

- وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاطَ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الشِّدَّةِ الَّتي لا تَنْفيسَ بها؛ لأنَّ المُحيطَ بشَيءٍ لا يَدَعُ له مَفْرَجًا(٥).

- وفي ذِكرِ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَنبيهٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

على أنَّ الاستهزاءَ بوَعيدِ الرُّسلِ كان شِنْشنةً -أي: عادةً مُستقِرَّةً- لهم. وفي الإتيانِ بالفِعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مُضارِعًا إفادةٌ لِتَكرُّرِ استِهزائِهم(١).

- وهذِه الآيةُ مِن الاحتِباكِ: إثباتُ الفَرَحِ أولًا دَليلٌ على حذْفِ ضِدِّه ثانيًا، وإثباتُ الاستهزاءِ ثانيًا دليلٌ على حذْفِ مِثلِه أولًا(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- مَوقعُ جُملةِ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٨٣] كمَوقعِ جُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن قولِه: ﴿كَانُوٓا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢]، وهو التَّفريعُ عليها؛ لأنَّ إفادةَ (لَمَّا) معْنى التَّوقيتِ يُثيرُ معْنى تَوقيتِ انتِهاءِ ما قبْلَها، أي: دامَ دُعاءُ الرُّسلِ إيَّاهم، ودامَ تَكذيبُهم واستِهْزاؤهم إلى أنْ رَأَوا بأْسَنا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا قالوا: آمنَّا باللهِ وحْدَه(٣).

- والبأْسُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ هو العذابُ الخارقُ للعادةِ المنذِرُ بالفَناءِ؛ فإنَّهم لَمَّا رَأَوه عَلِموا أنَّه العذابُ الذي أُنذِروه، وفُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، أي: حِينَ شاهَدوا العذابَ لم يَنفَعْهم الإيمانُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَقبَلُ الإيمانَ عندَ نُزولِ عَذابِه، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فلمْ يَنفَعْهم)، إلى قولِه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لِدَلالةِ فِعلِ الكونِ على أنَّ خبَرَه مُقرَّرُ الثُّبوتِ لاسْمِه، فلمَّا أُريدَ نفْيُ ثُبوتِ النَّفعِ إيَّاهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١، ٢٢٢).

بعْدَ فَواتِ وَقتِه، اجتُلِبَ لذلك نَفْيُ فِعلِ الكونِ الذي خبَرُه ﴿يَنفَعُهُمْ﴾، والمعنَى: أنَّ الإيمانَ بعْدَ رُؤيةِ بَوارِقِ العذابِ لا يُفِيدُ صاحبَه، مِثلُ الإيمانِ عندَ الغَرْغرةِ، ومِثلُ الإيمانِ عندَ طُلوعِ الشَّمْسِ مِن مَغرِبِها[1].

- وجُملةُ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا لِسُؤالِ مَن يَسألُ: لماذا لم يَنفَعْهم الإيمانُ وقدْ آمَنوا؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك تَقديرٌ قدَّرَه اللهُ للأُمَمِ السَّالفةِ، أعْلَمَهم به وشرَطَهُ عليهم؛ فهي قَديمةٌ في عِبادِه، لا يَنفَعُ الكافرَ الإيمانُ إلَّا قبْلَ ظُهورِ البأْسِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كالفَذْلكةِ[3] لقولِه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾، وبذلك آذَنَتْ بانتهاءِ الغرَضِ مِن السُّورةِ[4].

- و﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مَكانٍ، عُبِّرَ به عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ، أي: خَسِروا وقْتَ رُؤيتِهم بأْسَنا؛ إذ انقضَتْ حياتُهم وسُلطانُهم، وصاروا إلى تَرقُّبِ عَذابٍ خالدٍ مُستقبَلٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغَ منْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

- والعُدولُ عن ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١] إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾- إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ خُسرانِهم هو الكفْرُ باللهِ، وذلك إعذارٌ للمُشركينَ مِن قُريشٍ(١).

- وقد الْتَفَّ آخرُ هذه السُّورةِ -بما بُيِّن مِن كمالِ العِزَّةِ، وتمامِ القدرةِ، وشُمولِ العِلمِ ممَّا رتِّب مِن أسبابِ الهداية والإضلالِ، والإشقاءِ والإسعادِ، والنَّجاةِ والإهلاكِ- بأوَّلِها أيَّ التفافٍ، واكتَنَفت البدايةُ والنِّهايةُ بيانَ ذلك معَ ما اشْتَمل عليه الوسطُ أيضًا منه أعظمَ اكتنافٍ؛ فسبحانَ مَن هذا إنزالُه، وتبارَك اسمُه، وجل جلالُه(٢).



تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ فُصِّلَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٣).



الفهرس







الفهرس

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠